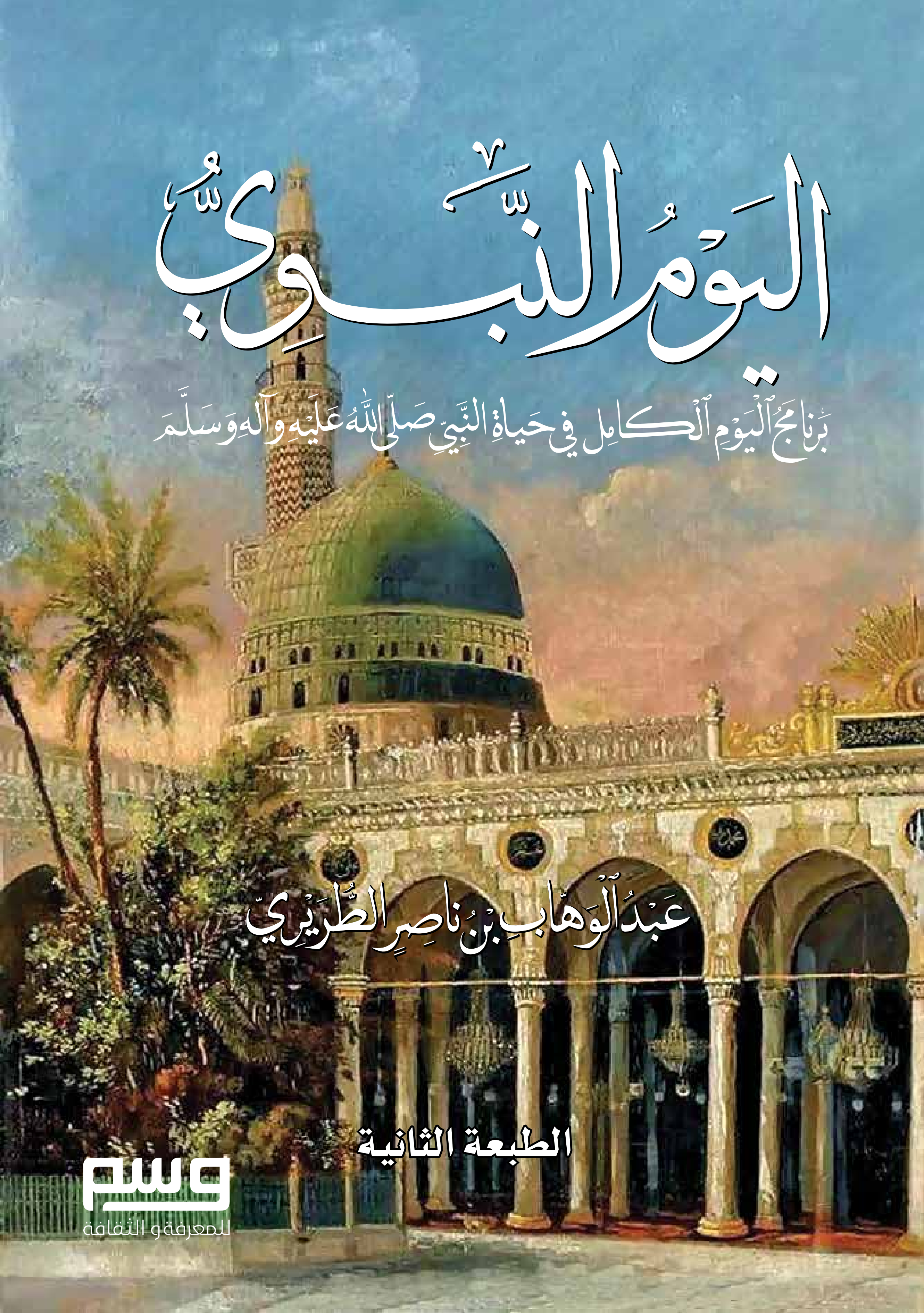
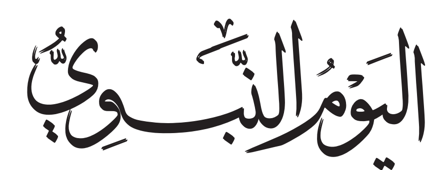


اليَومُ النَّبَوِيُّ
بَرنامَجُ اليَومِ الكامِلِ في حياةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم
عبدُ الوَهّابِ بنُ ناصِرٍ الطُّرَيرِيّ
الطبعة الثانية
وسم
للمعرفة و الثقافة

اليَومُ النَّبَوِيُّ



El-yuvm el-nebevi©
ISBN: 978-605-71319-5-9



+90 551 163 82 25
wasmbookstore.com
wasm.bookstore@gmail.com
WasmBookstore
Wasm_Bookstore

www.altriri.net
altriri@gmail.com
/altriri
@Abdulwahab.altriri
/c/AbdulwahabAltorairy
t.me/altriri
abdulwahabaltriri
+905467723779

جميع الحقوق محفوظة
All Rights Reserved

يحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلا بموافقة خطية من الناشر

No part of this publication may be reproduced or distributed in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الثانية

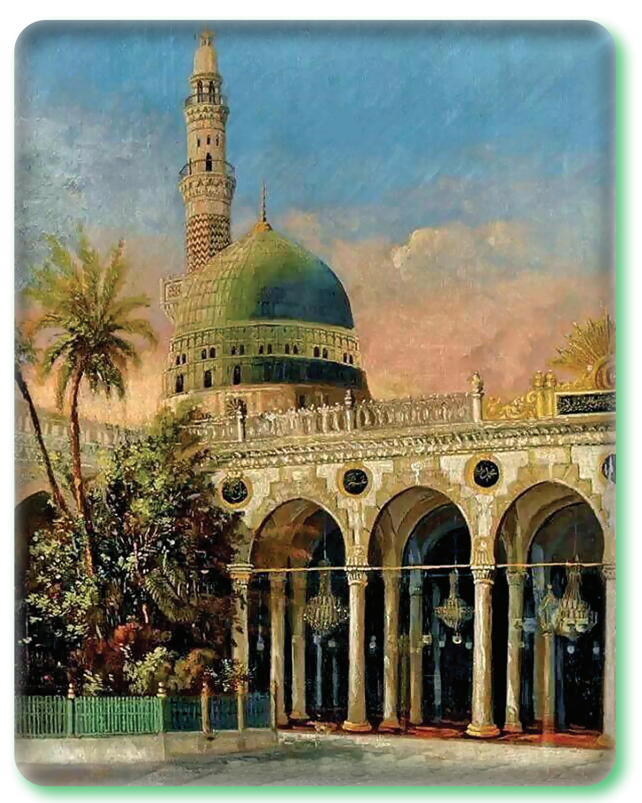
1444هـ - 2022 م

Copyright© 2022

وسم للمعرفة والثقافة ـ اسطنبول ـ تركيا
Fatih, Aksemseltin mahallesi, Haliciar Cd, No 18, Istanbul

اليوم النبوي

برنامج اليوم الكامل في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم



عبد الوهاب بن ناصر الطريري

الطبعة الثانية







مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله على فضله وإنعامه، وتيسيره وإتمامه، **وبعدُ**..

فقد طُبع هذا الكتاب قبل أكثر من عشر سنين، وخلال هذه المدة تلقيت اقتراحات وملاحظات من أفاضل اطلعوا عليه، ثم إني خلال هذه المدة أكملت العمل في موسوعة «الحياة النبوية»، والتي صدرت في جزئين تتبعت فيها حياة النبي ﷺ في أحوالها المتنوعة، وهديه في كل حالٍ منها.

فاجتمع لدي حصيلة إضافية تناسب هذا الكتاب ألحقتها به في مواضعها، وإن كان لكل منهما خصوصيته؛ فكتاب «**اليوم النبوي**» مقطع أفقيٌ للبرنامج اليومي النبوي، وكتاب «**الحياة النبوية**» مقطعٌ عموديٌ لامتداد المساحة العمرية لنبينا ﷺ، ولكن ثمة مساحة مشتركة بينهما أفدت منها في هذه الطبعة.

وأضفت إلى هذه الطبعة وصفاً لأيام خاصة من حياة النبي ﷺ، كيوم الجمعة، ويوم العيد، وأيام رمضان، وأشدِّ يوم، وأسْعدِ يوم في حياته ﷺ.

كما ألحقت بها رسوماً وصوراً توضح البيئة النبوية بناءً وطعاماً وآنيةً.

واختصرت مصادر تخريج الحديث التي أعزو إليها تجنباً للإطالة.

واستفدت في هذه الطبعة من كتاب «**فقه عمل اليوم والليلة**» لأخي الشيخ عبد الله بن مانع الروقي وفقه الله.

واللهَ أسأل أن يجعل ما جمعته في هذا الكتاب من العلم الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض، وأن يتقبله ربي بقبول حسن، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وصلواته وسلامه وبركاته على نبينا محمد وآله وصحبه.

عبد الوهاب الطريري أبا الخيل

إسطنبول – أغوا

٢١/ ١/ ١٤٤٤ هـ

: +905467723779

: +966504455117

: altriri@gmail.com



الإهــداء

إلى مَن عبرتْ حياته حياتي.. كنَفْحة عطر أو وَمْضة ضياء..

إلى مَن رحلَ عن دنياي.. واستوطن فِجاج قلبي وأُفق عيني..

إلى مَن أوحى إليَّ بفكرة هذا العمل، وقادني فيه إلى نقطة البدء..

إلى أخي **عبد العزيز بن محمد الماجد** رحمه الله..

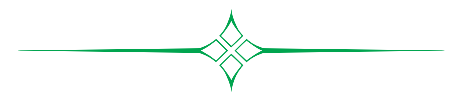
وإلى ابنه **أسامة**..

وإلى بناته: **أمل وسارة وعفاف**..

ففي أعمارهم بقيةٌ من عمره..

وفي أنفاسهم بقيةٌ من حياته..

ربَّاه**!** قد قَصُرَ لقاؤنا في دنيا حياتنا.. اللهمَّ فاجعلْ لنا أحسن العُقْبى في آخرة حياتنا وخالد أعمارنا.. أَحِلَّنا دارَ المُقامة من فضلك، إخواناً على سُرُرٍ متقابلين.







شكر وعرفان

بين يدي الكتاب أقدِّم الشكر أخلصه وأوفاه إلى:

معالي الشيخ عبد الله بن الشيخ المحفوظ بن بيَّه، ومعالي الشيخ د. عبد الوهاب ابن إبراهيم أبو سليمان، ود. أحمد البراء الأميري، ود. عبد الله بن محمد الغذامي، ود. سعد بن عطية الغامدي، ود. عبد الله بن ناصر الصبيح، ود. عبد الله بن حمد السكاكر، والأستاذ جميل محمد علي فارسي؛ فقد عبر هذا الكتاب أمام عيونهم في طَوْر تشكُّله الأول، فسدَّدوا وأرشدوا وشجَّعوا، فأفدتُ من ذلك، وسدَّدتُ وزدتُ وأكملتُ؛ فهم شركاء فيما هو مسطور بين يديك..

فلهم أصدق الشكر، وأخلص الدعاء.





مقدِّمة

في مدينة النَّخِيل.. مدينة القلوب النَّضِرة.. يسكن قلبه.. وتُوْرِقُ عيناه.. فهذا المكانُ مكانُه.. والمدينةُ مدينتُه.. والأهلُ أهلُه.. دخلَ المدينةَ فأضاءَ منها كلُّ شيء، وأحبَّه أهلُها ومظاهرُ الطبيعة فيها؛ فهذا «أُحُدٌ» جبلٌ يحبُّه ويبادله الحبَّ..

هذه الأزقَّة ستعرف خطواته.. هذا المسجد وتلك الغرفات الصغيرة على جانبه.. هؤلاء الرجال الأوفياء يلتفُّون حولَه.. يحيطون به.. يحبُّهم ويحبُّونه.. يلتقي بهم، وينفرد مع الله..

في هذه السيرة اليومية نترحَّل مع ساعات يوم النبي ﷺ، وكأنَّا نعيش معه بساطة الحياة العظيمة، وعَفْوية الحياة الجادة، والتوازن بين مناشط الحياة، والتكامل لاستيفاء الاحتياجات.

ترى حيوية الحياة وتدفُّقها في تدافع ساعات هذا اليوم، اللحظات في حياته لا تمر عابرة دون استثمار.

كان يَعْقِد صفقاته مع الحياة في كل ثانية في بيته، ومسجده، وفي أزقَّة مدينته، وبيوت أصحابه، وعلى حَصِير جلوسه، وسُفْرة طعامه، وفراش نومه.

كانت عيون مَن حوله راصدةً شديدةَ الدِّقَّة والملاحظة، حتى الظلام لم يكن ساتراً القلوبَ التي عشقت هذا النبي، وأرادت أن تعرف كيف كان يقضي ليله، وحتى الحيطان لم تكن طويلة لتحجب حياته الخاصة، كانت القلوب والعيون

داخلة معه حتى يأوي إلى فراشه، ترمقه في استغراق نومه، وفي وثوب استيقاظه.

لم يكن يوماً عاديّاً يبدأ من الصباح ويضمر في المساء، بل تشعر لفرط نشاطه أن كل لحظة هي بداية له، هو رجلُ اقْتِناصِ الفرص ورجلُ اللحظة. يفهم بفطرة النبي الرسول أن الدقيقة محسوبة ولها إنجازها.. والساعة محسوبة ولها إنجازها... واليوم محسوب وله إنجازه... والأجل ينصب خيامه على مشارف العمر.

في هذه الصفحات نعيش مع رسول الله ﷺ في صباحه ومسائه، نمشي معه في أسواق المدينة، نأكل من كفافه، نسمع صوته الحاني معلِّماً، وصوته المُخْبِت مصلِّياً، نجلس على حَصِيره الذي كان يجلس عليه، ونأكل من طعامه القليل الذي يُؤْثِر.

يمكنك أن تدخل بيته من وصف صحابته له.. ويمكنك أن ترى سكينته نائماً، وأن ترى حيويَّته جالساً، وربما رأيتَ في حِجره رضيعاً، أو على ظهره طفلاً يحظى بدفئه وبركته.

إذن كيف كان يتعامل هذا الإنسان العظيم النبي الكريم مع طبيعته البشرية ومشروعه الرِّسالي؟!

كيف كان يتعامل مع دورة الزمن اليومية؟!

كيف كان يقضيها؟!

هذا يوم: النبي، الرسول، الإنسان، المسؤول، الأب، الزوج، الصَّدِيق.. هذا «**اليوم النبوي**»، وهذا الكتاب بين يديك..

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

مكة المكرمة، الجمعة

٢٠/ ٧/ ١٤٣١هـ



أنوار الفجر

يصدَعُ نورُ الفجر ظلمةَ الليل، ويصدَعُ أذانُ بلال ﵁ سكونَ المدينة، ويوافي ذلك رسولَ الله ﷺ نائماً[١] يستريح البدن الشريف ساعة السَّحَر بعد سَبْح طويل من قيام الليل.

فإذا أَذَّنَ بلالٌ ﵁ استيقظ رسولُ الله ﷺ، وأولُ شيء يفعله أن يتناول سواكه فيستاك به[٢]، ثم يقول: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[٣].

ثم يجيب المؤذِّنَ بمثل ما يقول، فإذا قال: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ. قال: «**اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ**». وإذا قال: أشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ. قال: «**وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**». وإذا قال: أشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله. قال: «**وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ**». وإذا قال: حيَّ على الصلاة. قال: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**». وإذا قال: حيَّ على الفلاح. قال: «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**». وإذا قال: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ. قال: «**اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ**». وإذا قال: لا إله إلَّا اللهُ. قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[٤].

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٣٣)، و«صحيح مسلم» (٧٤٢)، و«سنن ابن ماجه» (٧١٦)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٤٥، ٨٨٩، ١١٣٦)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥، ٧٤٦)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٦٣١٢)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (١٦٨٢٨)، و«صحيح البخاري» (٩١٤)، و«سنن أبي داود» (٥٢٦)، وغيرها.

ثم يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّداً الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَاماً مَحْمُوداً الَّذِي وَعَدْتَهُ**»[١].

ثم ينبعث رسولُ الله ﷺ، فإن كان به حاجة إلى الغُسل اغتسل، وإن كان به حاجة إلى الوُضوء توضَّأ.

وربما قام إلى الصلاة من غير وُضوء، فيقال له في ذلك، فيقول: «**تَنَامُ عَيْنَايَ، وَلَا يَنَامُ قَلْبِي**»[٢].

ثم يصلِّي ركعتي الفجر، ولم يكن يصلِّي بعد الفجر نفلاً إلا هاتين الركعتين؛ فيصلِّي صلاةً خفيفة، حتى يقول القائلُ: هل قرأَ فيها بأمِّ الكتاب[٣]؟ لشدة ما يخفِّفها.

وكما كان يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين كان يفتتح صلاة النهار بركعتين خفيفتين.

وكان يقرأ فيها بعد الفاتحة في الركعة الأولى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ**﴾، وفي الركعة الثانية: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾.

وأحيانا يقرأ في الركعة الأولى: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا...**﴾، وفي الثانية: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...**﴾، وربما قرأ: ﴿**فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[٤].

ولم يكن على شيءٍ من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على هاتين الركعتين قبل الصبح، وكان يقول: «**لَهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦١٤)، و«سنن أبي داود» (٥٢٩)، و«جامع الترمذي» (٢١١)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٧٣٨)، و«سنن أبي داود» (١٣٤١)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٦١٨)، و«صحيح مسلم» (٧٢٣)، و«سنن أبي داود» (١٢٥٥)، وغيرها.

(٤) «صحيح مسلم» (٧٢٦، ٧٢٧)، و«سنن أبي داود» (١٢٥٦، ١٢٦٠)، وغيرها.

(٥) «صحيح البخاري» (١١٦٩)، و«صحيح مسلم» (٧٢٤، ٧٢٥)، وغيرها.

ويا لله إذا كانت هذه سنة الفجر، فكيف بصلاة الفجر! ثم انظر إلى هذه المعيارية: ركعتا سنة في يومٍ خير من الدنيا وما فيها، إن هذا المقياس لمن يعيش في الدنيا ونظره ممدود إلى الآخرة، هنا تأخذ الدنيا حجمها الحقيقي، ويتضح أن أثمن ما فيها هو ما يقدم للآخرة، وكان يأمر بهما ويؤكد عليهما بقوله: «**لَا تَدَعُوا رَكْعَتَيِ الْفَجْرِ، وَإِنْ طَرَدَتْكُمُ الْخَيْلُ**»(١).

فإذا فرغ من صلاته؛ فإن كانت زوجته مستيقظة تحدَّث معها حديث المؤانسة والإسعاد، فما ظنك بزوجة مُحبَّة تستفتح أنوار يومها بحديث المودة من زوجها؟! وإن كانت نائمة اضطجع على شقِّه الأيمن حتى يحين موعد إقامة الصلاة(٢).

فإذا رأى بلالٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن الناسَ قد اجتمعوا في المسجد أتى إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فنادى: الصلاةَ يا رسولَ الله(٣)، فيخرجُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إليهم.

فإذا دخل المسجدَ قال: «**بِاسْمِ اللهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، أَعُوذُ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**»(٤).

ماذا يصنع كيد الشيطان الضعيف بمَن كان عياذه ولياذه بالله ذي العظمة والعزة والجبروت؟ ﴿**إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾.

فإذا رآه بلالٌ داخلاً المسجدَ أقام الصلاةَ(٥)، وإذا رآه أصحابُه قاموا إلى الصلاة،

(١) «مسند أحمد» (٩٢٥٨)، و«سنن أبي داود» (١٢٥٨)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٦٢٦، ٩٩٤)، و«صحيح مسلم» (٧٣٦، ٧٤٣)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٢٥٧٢)، و«سنن أبي داود» (١٣٦٤)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (٢٦٤١٧)، و«سنن أبي داود» (٤٦٦)، و«جامع الترمذي» (٣١٤)، وغيرها.

(٥) «صحيح مسلم» (٦٠٦)، و«سنن أبي داود» (٥٣٧)، و«جامع الترمذي» (٢٠٢)، وغيرها.

وكان يقول لهم: «**إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَا تَقُومُوا حَتَّى تَرَوْنِي**»[١]، حتى لا يشق على الناس انتظاره قياماً[٢].

ويخرج أحياناً ورأسه يَقْطُرُ ماءً من أثر الغُسل، وخرج مرة فأُقيمت الصلاة، وعُدِّلت الصفوف، ووقف في مصلَّاه، ثم تذكَّر أنه جُنُبٌ ولم يغتسل، فأومأ إليهم بيده وقال لهم: «**مَكانَكُم**». ثم رجع إلى بيته فاغتسل، ومكث أصحابه على هيئتهم ينتظرونه قياماً حتى خرج إليهم ورأسه يَقْطُرُ ماءً، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنِّي كُنْتُ جُنُباً، وَإِنِّي نَسِيتُ حَتَّى قُمْتُ فِي الصَّلَاةِ**»[٣]، وبذلك أزال ﷺ عنهم الحيرة، وأجاب عن التساؤل الذي يبادر إلى أذهان كثير منهم، حين رأوه رجع إلى بيته بعد أن قام في مصلَّاه.

فلم يكن ﷺ يتكتَّم هذه الأمور ويتحرَّجها، وإنما كان بشراً من البشر، يرى الناسُ في حياته وقائعَ حياتهم، ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَهُ رَجُلًا**﴾.

فإذا قام في مصلَّاه أقبل على أصحابه بوجهه، قبل أن يكبر وقال: «**اسْتَوُوا، اسْتَوُوا، اسْتَوُوا، سَوُّوا صُفُوفَكُمْ، وَتَرَاصُّوا وَاعْتَدِلُوا؛ وَاللهِ لَتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُمْ أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ، فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ**»[٤].

ويقول أحياناً: «**أَقِيمُوا الصُّفُوفَ، وَحَاذُوا بَيْنَ الْمَنَاكِبِ، تَوَسَّطُوا الْإِمَامَ، وَسُدُّوا الْخَلَلَ، وَلِينُوا بِأَيْدِي إِخْوَانِكُمْ، وَلَا تَذَرُوا فُرُجَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفّاً وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَ صَفّاً قَطَعَهُ اللهُ**»[٥]. ويزيد أحياناً عبارات أخرى تؤكد هذا وتحض عليه.

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٧)، و«صحيح مسلم» (٦٠٤)، وغيرها.

(٢) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» (٢/ ٥٥٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٥)، و«صحيح مسلم» (٦٠٥)، و«سنن ابن ماجه» (١٢٢٠)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٧١٩، ٧٢٣)، و«صحيح مسلم» (٤٣٣)، و«سنن أبي داود» (٦٧٠).

(٥) «مسند أحمد» (٥٧٢٤)، و«سنن أبي داود» (٦٦٦)، وغيرها.

وكان ﷺ يسوِّي صفوفهم بيده، ويقيمهم في أماكنهم واحداً واحداً حتى عقلوه عنه، ثم صار يسوِّيهم وهو في مصلَّاه، فإذا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ أَخَذَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ الْتَفَتَ فَقَالَ: «**اعْتَدِلُوا سَوُّوا صُفُوفَكُمْ**». ثُمَّ أَخَذَ بِيَسَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**اعْتَدِلُوا سَوُّوا صُفُوفَكُمْ**»(١).

قال أنس رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ **اللهِ** ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنا، إذا قُمنا للصلاة، حتَّى كأنما يُسوِّي بها القِدَاحَ(٢)، حتى رأى أنَّا قد عقَلْنا عنه، ثم خرج يوماً، فقام حتى كاد أن يكبِّرَ، فرأى رجلاً بادياً صَدْرُهُ، فقال: «**عِبَادَ اللهِ، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ**»(٣). فَكَانَ أَحَدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ، وَقَدَمَهُ بِقَدَمِهِ(٤).

ثم يكبِّر تكبيرة الإحرام، ويرفع يديه حَذْوَ مَنْكِبَيه، ويضع يده اليمنى على اليسرى(٥)، ويسكت إسكاتة بقدر ما يقول: «**اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنَ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْ خَطَايَايَ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ**»(٦). ورُويت عنه استفتاحات أخرى(٧).

ثم يستعيذ ويبسمل، ثم يجهر بالفاتحة، فيقرأ قراءة مفصَّلة مترسِّلة، يُقَطِّع قراءَته آيةً آيةً: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف.. ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ثم يقف.. ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾. وكانت قراءته مدّاً، يمدُّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، ويمدُّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾(٨)،

---

(١) «صحيح ابن حبان» (٢١٦٨).

(٢) القداح: هي أعواد السهام حين تنحت وتبرى، ومعناه: يبالغ في تسوية الصفوف حتى كأنما يقوم بها السهام لشدة استوائها واعتدالها. ينظر: «شرح النووي على مسلم» (٤/ ١٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٧١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٣٦)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٧٢٥).

(٥) «صحيح البخاري» (٧٣٥، ٧٤٠)، و«صحيح مسلم» (٣٩٠، ٣٩١)، وغيرها.

(٦) «صحيح البخاري» (٧٤٤)، و«صحيح مسلم» (٥٩٨)، وغيرها.

(٧) ينظر: «مسند أحمد» (١١٦٥٧)، و«سنن أبي داود» (٧٧٦)، و«جامع الترمذي» (٢٤٣)، وغيرها.

(٨) «صحيح البخاري» (٥٠٤٥، ٥٠٤٦)، و«سنن أبي داود» (١٤٦٥، ٤٠٠١)، و«جامع الترمذي» (٢٩٢٧)، وغيرها.

ويقرأُ قرآنَ الفجر، ويطيل القراءة في الركعة الأُولى، ويُقصِّر في الثانية، ويقرأ في صلاته ما بين الستين إلى مئة آية[١].

هنيئاً لأولئك الذين تتعطَّر آذانهم مع أول لحظات يومهم بآي القرآن، يسمعونها من رسول الله ﷺ، كيف كان سماعهم للقرآن يتلوه من أُنزل عليه القرآن؟ يشهدونه مع رسول الله وتشهده معهم الملائكة، ﴿**وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾.

ويقنت أحياناً بعد الركوع من الركعة الثانية في النوازل تنزل بالمسلمين، فيدعو ويستنزل الفرجَ والنصرَ[٢]، ويدعو للمستضعفين من المؤمنين.

قال عبدُ الله بن رَواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يصوِّر هذا المشهد وهذه القراءة:

وفينا رسولُ الله يتلُو كتابَه إذا انْشَقَّ معروفٌ من الفجر ساطعُ[٣]

فإذا أتمَّ صلاته وسلَّم منها قال وهو في مكانه ووجهُه تِلْقاء القِبلة: «**أَسْتغفرُ اللهَ، أَسْتغفرُ اللهَ، أَسْتغفرُ اللهَ، اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**»[٤].

ثم ينصرف عن يمينه، وربما انصرف عن يساره، فأول ما يسمعُ منه أصحابُه إذا أقبل عليهم بوجهه قوله: «**رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»[٥].

ثم يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ. لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٤١، ٧٥٩، ٧٧٩)، و«صحيح مسلم» (٤٦١، ٦٤٧)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٥٦٠، ٦٣٩٤)، و«صحيح مسلم» (٦٧٧، ٦٧٨)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٥٧٣٧)، و«صحيح البخاري» (١١٥٥، ٦١٥١)، وغيرها.

(٤) «صحيح مسلم» (٥٩١)، و«سنن أبي داود» (١٥١٢)، و«جامع الترمذي» (٢٩٨-٣٠٠).

(٥) ينظر: «مسند أحمد» (١٨٥٥٣)، و«صحيح البخاري» (٨٥٢)، و«صحيح مسلم» (٧٠٩).

الْكَافِرُونَ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ»[(١)].

ويقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)]، ثم يسبِّح اللهَ، ويحمده، ويكبِّره، يعدّهن ويعقدهن بيمينه...[(٣)].

ثم يذكر الله بجوامع الذِّكر، التي يستقبل بها صباح يومه، **ومنها:**

- «**أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذَا الْيَوْمِ، وَخَيْرِ مَا فِيهِ، وَخَيْرِ مَا بَعْدَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذَا الْيَوْمِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ**». وإذا أمسى قالها أيضاً: «**أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلهِ...**»[(٤)].
- «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي، وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي، وَمَالِي. اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**». ولم يكن يدَعها حين يصبح وحين يُمسي[(٥)].

---

(١) «صحيح البخاري» (٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٥٩٣، ٥٩٤). والجَدُّ: الحظ والسعادة والغنى. ينظر: «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٤٤).

(٢) «مسند أحمد» (٧٢٩)، «صحيح مسلم» (٧٧١)، و«سنن أبي داود» (١٥٠٩)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٨٤٣، ٦٣٢٩)، و«صحيح مسلم» (٥٩٥-٥٩٧)، وغيرها.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٧٢٣)، و«سنن أبي داود» (٥٠٧١)، و«جامع الترمذي» (٣٣٩٠)، وغيرها.

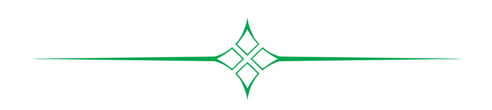
(٥) «مسند أحمد» (٤٧٨٥)، «سنن أبي داود» (٥٠٧٤)، و«سنن النسائي» (١٠٣٢٥)، وغيرها.

- «**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». يعيدها ثَلاثاً إذا أصبح وإذا أمسى[1].

ويأتي في أثناء ذلك خدمُ المدينة، بأيديهم الأقداح فيها الماء؛ يتبرَّكون بوضع رسول الله ﷺ يده المباركة في آنيتهم، فما يُؤتى بإناء إِلَّا غمسَ فيه يده، وربما أتوا إليه في اليوم الشديد البرد، فيضع يده في آنيتهم[2].

ما أبهجَ هذا المنظر الصباحي؛ حيث النبي ﷺ المنوَّر بنور النُّبوة، تتدافع بين يديه الأَكُفُّ بآنيتها، ترشُف من يمينه المباركة بركتها وطُهرها، وعيون أهليهم الوامِقة[3] ترمُق المشهدَ البَهِيج، كأنك ترى المشهد رأي عين، ونبيك يغمُر يده في آنيتهم، ويغمُر حبه في قلوبهم.

أفلحت وجوهٌ كانت تستفتحُ ضياءَ النهار برؤية وجه نبيها الأَنْوَر.



(١) «مسند أحمد» (٢٠٤٣٠)، و«سنن أبي داود» (٥٠٩٠)، و«سنن النسائي» (١٠٣٣٢)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٢٤٠١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٢٤)، وغيرها.

(٣) أي: المُحِبَّة. ينظر: «تاج العروس» (٢٦/ ٤٨٤).



رسم تخيلي للمسجد النبوي





الصباح النبوي

ثم تتقارب أطراف الصفوف، فيُطيف أصحابُ رسول الله ﷺ به وهو جالس في مصلَّاه، مقبلٌ إليهم، فيُسْفِرُ لهم ضوءُ الصباح عن ضياء وجه رسول الله ﷺ، وكان أبيضَ وضيئاً، كأنَّ الشمس تجري في وجهه، يرى الناظرُ في مُحيَّاه بشائرَ الصِّدق، كما قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: لمَّا تبيَّنْتُ وجهَهُ، عرفتُ أنَّ وجهَهُ ليس بوجهِ كذَّاب[١].

فربما بدأهم بموعظة، كما في حديث العِرباض بن سَارية رضي الله عنه قال: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تأمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ**[٢]**، وَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، فتَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعةٍ ضَلَالَةٌ**»[٣].

(١) «مسند أحمد» (٢٣٧٨٤)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٥)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٣٤)، وغيرها.

(٢) مُجَدَّع الأطراف: مُقَطَّعُ الأعضاء. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٤٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٦٠٧)، و«جامع الترمذي» (٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢)، وغيرها.

ولم يكن ﷺ يكثر عليهم هذه العِظات، وإنما كان يتخوَّلهم بها ويتعاهدهم من غير إملال، خشية السآمة عليهم[١].

ويسألهم إذا اجتمعوا حوله: «هَلْ فِيكُمْ مَرِيضٌ أَعودُهُ؟». فإن قالوا: لا. قال: «فَهَلْ فِيكُمْ جِنازة أَتْبَعُها؟»[٢].

ويسأل عمَّن فَقَدَ من أصحابه؛ فَقَدْ سأل عن المرأة السوداء التي كانت تَقُمُّ المسجدَ[٣]، فقالوا: ماتت. فقال: «**أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟**». فكأنهم صغَّروا أمرها وقالوا: يا رسولَ الله، ماتت من الليل ودُفنت، فكرهنا أن نوقظك. فقال ﷺ: «**دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا**». ثم أتى قبرَها فصلَّى عليها ودعا لها[٤].

ولمَّا فقد ثابتَ بن قيس بن شمَّاس رضي الله عنه سأل عنه، وقال: «**مَا شَأْنُ ثَابِتِ ابْنِ قَيْسٍ لَا يُرَى؟ أَشْتَكَى؟**[٥]». فقال سعدُ بنُ معاذ: إنه لجاري، وما علمتُ له بشكوَى. فأتاه سعدٌ، فإذا هو قد دخل بيته وأغلق عليه بابه يبكي، فقال له: ما شأنُك؟ فقال: شرٌّ؛ إن الله يقول: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ**﴾، وأنا رجلٌ شديد الصوت، أخاف أن يكون قد حبط عملي، فأنا من أهل النار. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لَسْتَ مِنْهُمْ، بَلْ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، أَنْتَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»[٦].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢١)، و«جامع الترمذي» (٢٨٥٥)، وغيرها.

(٢) ينظر: «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١١٤). وهذا الحديث وإن كان ضعيف الإسناد، ومما تفرَّد به ابن عساكر فيما نعلم، إلَّا أن مجمل حياة النبي ﷺ يدل على هذه الحال.

(٣) تَقُمُّ المسجد: تَكْنُسُه وتنَظِّفه. ينظر: «الإفصاح عن معاني الصحاح» (٧/ ١٨٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٥٨، ١٣٣٧)، و«صحيح مسلم» (٩٥٦)، وغيرها.

(٥) أي: هل مرض؟

(٦) «صحيح البخاري» (٣٦١٣، ٤٨٤٦)، و«صحيح مسلم» (١١٩)، وغيرها.

وهكذا تراه يتفقَّد أصحابه، لا يعزُب عن باله ولا يسقط من عينه أحدٌ؛ فلكلِّ مَن حضر حظه من الحفاوة والرِّعاية، ولمَن غاب حظه من الاهتمام والتفقُّد، وفي ذلك تقوية لِلُحمة المجتمع، وتعميق للانتماء إلى الجماعة.

ويسألهم في مجلسه الصباحي هذا عن رؤاهم بقوله: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا فَلْيَقُصَّهَا أَعْبُرْهَا لَهُ**»[١]. فيقصُّون عليه رُؤاهم، فيَعْبُرُها لهم، أو يقول لهم ما شاء الله أن يقول.

ومناسبة السؤال عن الرُّؤى في هذا الوقت أنهم صلوا صلاة قد قاموا قبلها من نومهم، وثَمَّ رؤاهم التي رأوها ولا زالت تشغلهم، ولذا كان ﷺ يتلقى قلقهم، بسؤالهم عن ما رأوا.

ومما ورد من ذلك: حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ، وَرَأَيْتُ كَأَنِّي فِي رَوْضَةٍ ـ ذَكَرَ مِنْ سَعَتِهَا وَخُضْرَتِهَا ـ وَسْطَهَا عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ، أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ، وَأَعْلَاهُ فِي السَّمَاءِ، فِي أَعْلَاهُ عُرْوَةٌ، فَقِيلَ لِي: ارْقَ، قُلْتُ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَأَتَانِي وَصِيفٌ فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي، فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَاهَا، فَأَخَذْتُ بِالعُرْوَةِ، فَقِيلَ لَهُ: اسْتَمْسِكْ بالعروة، فَاسْتَيْقَظْتُ، وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي، فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلَامُ، وَذَلِكَ العَمُودُ عَمُودُ الإِسْلَامِ، وَتِلْكَ العُرْوَةُ عُرْوَةُ الوُثْقَى، فَأَنْتَ عَلَى الإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ**»[٢].

ولقد عاش عبدُ الله بن سلام رضي الله عنه ـ والذي كان حَبْراً يهوديّاً فأسلم ـ بعد وفاة النبي ﷺ نحواً من خمس وثلاثين سنة، عَبَرَت فيها أحداث الرِّدَّة وحروب المرتدين، وبقي عبد الله بن سلَام ثابتاً على الإسلام مستمسكاً بالعُروة الوُثقى حتى مات، كما أخبره نبيه ﷺ يوم عَبَرَ رؤياه تلك.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٢٦٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٣، ٧٠١٠، ٧٠١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٨٤)، وغيرها.

وكأن تعبير النبي ﷺ لهذه الرؤيا إشارة أنْ سيكون ردة يرتدُّ فيها فِئامٌ من الناس، ولكن عبد الله بن سلَام لن يكون منهم، وهكذا كان رضي الله عنه.

وفي ذلك دلالة من دلالات نبوته ﷺ.

ولمَّا قال مرَّةً لأصحابه: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رؤيا فَلْيَقُصَّها؛ أَعْبُرْها لَهُ**». قال رجلٌ: يا رسولَ الله، إني رأيتُ الليلة في المنام ظُلَّةً تَنْطِفُ[1] السمنَ والعسلَ، ورأيت الناسَ يتكَفَّفونَ[2] منها بأيديهم، فالمستكثِرُ والمستقِلُّ، وأَرَى سَبَباً[3] واصلاً من السماء إلى الأرض، فأَرَاك أخذتَ به فعلوتَ فأعلاك الله، ثم أخذَ به رجلٌ من بعدك فَعَلَا فأعلاه اللهُ، ثم أخذَ به رجلٌ آخرُ من بعدكما فأخذ به فَعَلَا فأعلاه اللهُ، ثم أخذَ به رجلٌ آخرُ من بعدكم فانقطع به، ثم وُصِل له فَعَلَا فأعلاه اللهُ.

قال أبو بكر: يا رسولَ الله، بأبي أنت، والله لَتَدَعَنِّي فَلَأَعْبُرَنَّها. قال رسولُ الله ﷺ: «**اعْبُرْهَا**». قال أبو بكر: أما الظُّلَّةُ، فظُلَّةُ الإسلام، وأما الذي يَنْطِفُ من السمن والعسل، فالقرآن، حلاوتُه ولينُه، وأما ما يَتَكَفَّفُ الناسُ من ذلك، فالمستكثِرُ من القرآن والمستَقِلُّ، وأما السَّبب الواصل من السماء إلى الأرض، فالحقُّ الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعْليكَ اللهُ به، ثم يأخذُ به رجلٌ من بعدك، فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فيعلو به، ثم يأخذُ به رجلٌ آخرُ فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأَخْبِرْني يا رسولَ الله بأبي أنت، أصبتُ أم أخطأتُ؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**أَصَبْتَ بَعْضاً، وَأَخْطَأْتَ بَعْضاً**». قال: فوالله يا رسولَ الله، لتُحَدِّثَنِّي ما الذي أخطأتُ؟ قال: «**لا تُقسمْ**»[4].

---

(١) أي: سحابة تقطر. ينظر: «النهاية» (٥/ ٧٥).

(٢) أي: يتلقفونه بأكفِّهم. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٩٠).

(٣) أي: حبلًا. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٢٩).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٠٤٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٦٩)، و«سنن أبي داود» (٤٦٣٢)، وغيرها.

ويلاحظ أن رُؤى الصحابة رضي الله عنهم التي كانوا يقصُّونها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تفيضُ بهمِّهم الأكبر وقضيتهم الأولى، وهو دينهم ونبيهم، فهم يعيشونه جهداً وجهاداً في يقظتهم، ورؤىً في منامهم، فيا لله! أي نفوس تلك التي كانت تُطِيفُ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيمتد همُّها به من يقظتها إلى منامها وأحلامها!

ويحدَّثهم صلى الله عليه وآله وسلم برؤيا رآها هو، فيقصُّها عليهم ويَعْبُرها لهم؛ كما في حديث سمرة رضي الله عنه قال: سَأَلنا رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً، فقال: «**هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا؟**». قلنا: لا. قال: «**لَكِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي فَأَخَذَا بِيَدَيَّ، فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ...**». ثم ذكر حديث الرُّؤيا الطويل، وفيه ذكر بعض أحوال المعذَّبينَ في النار، وما يعذَّبونَ عليه، وذكر الجنة ومنازلها وبعض أحوال الآخرة[(١)].

وكما كانوا يقصون عليه رؤاهم الحسنة فيعبرها، فقد كان يوجههم إذا رأوا في منامهم ما يكرهون؛ فهذا رجل يقول: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّ رَأْسِي قُطِعَ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله وسلم وَقَالَ: «**إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحَدِكُمْ فِي مَنَامِهِ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ**»[(٢)].

ويقول رجل آخر: لَقَدْ كُنْتُ أَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يَقُولُ: «**الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ اللهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، وَلْيَتْفِلْ ثَلَاثاً، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ**»[(٣)].

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصمت في مجلسه صمت استماع لا صمت وجوم وتواقر، يستطعم

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦)، و«صحيح مسلم» (٢٢٧٥)، و«جامع الترمذي» (٢٢٩٤)، وغيرها.
(٢) «صحيح مسلم» (٢٢٦٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٧٠٤٤).

به من أصحابه حديثهم، فكانوا يتناشدون الأشعار ويتحدثون في أمر الجاهلية، فيشاركهم الحديثَ والاستماع، فربما تحدَّثوا عن حياتهم في الجاهلية، وما كانوا يقعون فيه من أُحْمُوقات الجاهلية التي تَبَدَّى لهم عَوَارُها بعد أَنْ مَنَّ اللهُ عليهم بالإسلام، فإذا ذكروها ضحكوا من جهلهم في الجاهلية، ويتبسَّم رسولُ الله ﷺ، وهو الذي كان ضحكه تبسُّماً[١].

ومما يُروى عنهم من أحاديث الجاهلية قول أحدهم: مَا نَفَعَ أَحَداً صَنَمُهُ مِثْلَ مَا نَفَعَنِي. قَالُوا: كَيْفَ هَذَا؟ قَالَ: صَنَعْتُهُ مِنَ الْحَيْسِ[٢]، فَجَاءَ الْقَحْطُ، فَكُنْتُ آكُلُهُ يَوْماً فَيَوْماً. وَقَالَ آخَرُ: رَأَيْتُ ثَعْلَبَيْنِ جَاءَا وَصَعِدَا فَوْقَ رَأْسِ صَنَمٍ لِي وَبَالَا عَلَيْهِ فَقُلْتُ:

أَرَبٌّ يَبُـــولُ الثَّعْلَبَـانِ بِرَأْسِـهِ ... لَقَدْ ذَل مَنْ بَالَتْ عَلَيه الثَعَالِب

فَجِئْتُكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَسْلَمْتُ[٣].

ولم يكن ﷺ يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حسناء، فَإِذَا طَلَعَتْ الشمس ساطعة قَام رسولُ الله ﷺ إلى حُجر نسائه، فإذا خرَجَ من المسجد قال: «**بِاسْمِ اللهِ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ. اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي، وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ**»[٤].

ولم تكن الشمس تشرق عليهم وهم نيام، وإنما كان ما بعد الفجر وقت استئناف الحياة وتلقي صحوة الكون بحيوية ونشاط.

---

(١) «مسند أحمد» (٢٠٨١٠)، و«صحيح مسلم» (٦٧٠)، و«جامع الترمذي» (٢٨٥٠)، وغيرها.

(٢) الحَيْس: طعام تتخذه العرب من الأَقِط والتمر والسمن، تُخلط جميعاً، وهو من طعام السفر غالباً لسهولة إعداده. ينظر: «لسان العرب» (١/ ١٩٩). والأقط: هو لبن يطبخ حتى يذهب ماؤه، ثم يجفف، ولم تكن العرب تعرف الجبن وإنما الأقط هو جبن العرب. ينظر: «لسان العرب» (٧/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٧/ ٢٩٩٣).

(٤) «مسند أحمد» (٦٤١٧)، و«سنن ابن ماجه» (٧٧١)، وغيرها.

وكانت هذه طبيعة حياة النبي ﷺ وأصحابه، وهي حال المجتمع عامة، فبعد الفجر يبدأ مَن له عمل بعمله، ومَن اتسع وقته تفرغ للذكر والدعاء، وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها ما كانت تنام نومة الضحى إلا بعد طلوع الشمس[١].

وعن أبي وائل قال: غَدَوْنَا عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ يَوْماً بَعْدَ مَا صَلَّيْنَا الْغَدَاةَ، فَسَلَّمْنَا بِالْبَابِ، فَأَذِنَ لَنَا، فَمَكَثْنَا بِالْبَابِ هُنَيَّةً، فَخَرَجَتِ الْجَارِيَةُ، فَقَالَتْ: أَلَا تَدْخُلُونَ، فَدَخَلْنَا، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ يُسَبِّحُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا وَقَدْ أُذِنَ لَكُمْ؟ فَقُلْنَا: لَا، إِلَّا أَنَّا ظَنَنَّا أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبَيْتِ نَائِمٌ، قَالَ: ظَنَنْتُمْ بِآلِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ غَفْلَةً، قَالَ: ثُمَّ أَقْبَلَ يُسَبِّحُ حَتَّى ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ، فَقَالَ: يَا جَارِيَةُ انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ؟ قَالَ: فَنَظَرَتْ فَإِذَا هِيَ لَمْ تَطْلُعْ، فَأَقْبَلَ يُسَبِّحُ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ طَلَعَتْ، قَالَ: يَا جَارِيَةُ انْظُرِي هَلْ طَلَعَتْ؟ فَنَظَرَتْ، فَإِذَا هِيَ قَدْ طَلَعَتْ، فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَقَالَنَا[٢] يَوْمَنَا هَذَا وَلَمْ يُهْلِكْنَا بِذُنُوبِنَا[٣].

فإذا دخل ﷺ بيته كان أول شيء يبدأ به السِّواك[٤]، يطيِّب به فمه المطيَّب، ويسلِّم على أهله قائلاً: «**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ، كَيْفَ أَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْبَيْتِ؟**»[٥].

ويطوف على نسائه، يدخل على كل واحدة في حُجرتها، يسلِّم عليهنَّ ويدعو لهنَّ، ولا يطيل المُكث[٦]، وقد كانت حجراتهن متقاربة، تقع شرقي المسجد، فكان ذلك ييسِّر هذا المرور السريع.

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٥٤٥١).

(٢) أقالنا: أي عفا عنا، ووهب لنا، ولم يعاقبنا. ينظر: «تاج العروس» (٣٠/ ٣٠٦).

(٣) «صحيح مسلم» (٨٢٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٣)، و«سنن أبي داود» (٥١)، و«سنن ابن ماجه» وغيرها.

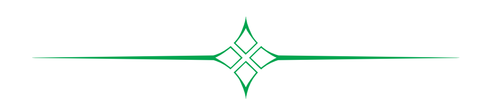
(٥) «صحيح مسلم» (١٣٦٥).

(٦) «مسند أحمد» (١٣٠٢٥)، و«صحيح البخاري» (٤٧٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٤٢٨).

فربما دخل على إحداهن وهي في مصلَّاها وخرج وهي على حالها، كما دخل على جُوَيْرِيةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وهي في مصلَّاها تذكر الله، وخرج وهي على حالها من الذكر[١].

ومن أثر هذه الزيارة الصباحية على زوجاته حضوره في حياتهن وتعاهدهن، بحيث يتكرر اللقاء اليومي بهن، وهي رسالة واضحة إلى كل واحدة منهن عن أهميتها في حياته، وحضورها في نفسه، وأنه يذكرها ويشتاق لها.

وقد يسأل عن الطعام، فيقول: «**هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟**». فإن كان ثمةَ طعام قُرِّب إليه، وغالباً ما يكون طعاماً خفيفاً، كالتمر والحَيْس والأَقِط[٢]، أو شراباً، كاللَّبَن أو النَّبيذ[٣]، ونحو ذلك، وربما سأل فيقولون: يا رسولَ الله، ما عندنا شيء. فيقول: «**فَإِنِّي إِذَنْ صَائِمٌ**»[٤].



(١) «مسند أحمد» (٢٣٣٤)، و«صحيح مسلم» (٢٧٢٦)، و«سنن أبي داود» (١٥٠٣)، وغيرها.

(٢) سبق شرحه.

(٣) النبيذ: ماء يُنْقَع فيه تمر أو زبيب أو عسل أو غيره، يذهب ملوحة الماء، وكانت مياه المدينة مالحة، فينبذون فيها التمر والزبيب حتى يحلو الماء، وليس هو النبيذ المسكر. ينظر: «لسان العرب» (٣/ ٥١١).

(٤) «صحيح البخاري» (١٤٩٤)، و«صحيح مسلم» (١٠٧٦، ١١٥٤)، وغيرها.



صورة للأقط، وهو لبن يطبخ حتى يذهب ماؤه، ثم يجفف



صورة للحيس، وهو طعام يتخذ من التمر والأَقِط والسمن، تُخلط جميعاً





المجلس النبوي

فإذا أتم ﷺ طوافَه على نسائه عاد إلى المسجد، فإذا دخله صلَّى تحية المسجد عند سارية تسمَّى: سارية المهاجرين، وهي متوسطة في الروضة الشريفة، وكان يتحرَّى الصلاة عندها(١).

ثم يجلس شرقي المسجد في الروضة الشريفة، مستنداً إلى حُجرة عائشة رضي الله عنها، ويجتمع إليه أصحابه، وكان هذا اللقاء معهوداً، بحيث أن مَن أراد النبيَّ ﷺ في هذا الوقت، فإنه يأتي إليه في المسجد، وقد يقلُّ الصحابةُ حولَه أو يكثرون، بحسب فراغهم وظروف حياتهم، فإن كانوا قليلاً تحلَّقوا حوله، وإن كانوا كثيراً جلسوا صَفَّيْن عن يمينه ويساره، حتى يصل إليه الوافد، ويدنو منه السائل(٢).

وكانوا يحفون به عن يمينه ويساره، فإذا أُعطِي شراباً شرب منه ثم أعطاه الذي عن يمينه، وإن كان صغيراً أو غريباً، **ومن ذلك:**

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ، فَشَرِبَ مِنْهُ وَعَنْ يَمِينِهِ غُلَامٌ وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ، فَقَالَ لِلْغُلَامِ: «**أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَ هَؤُلَاءِ؟**». فَقَالَ الغُلَامُ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا أُوثِرُ بِنَصِيبِي مِنْكَ أَحَداً. قَالَ: فَتَلَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي يَدِهِ(٣).

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٢)، و«صحيح مسلم» (٥٠٩)، و«سنن ابن ماجه» (١٤٣٠)، وغيرها.

(٢) ينظر: «سنن أبي داود» (٤٦٩٨)، وما سيأتي قريباً في جلوسه ﷺ بين أصحابه كأحدهم.

(٣) «صحيح البخاري» (٢٤٥١). وتَلَّه بيده: ألقاه. ينظر: «النهاية» (١/ ١٩٥).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حُلِبَتْ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ دَاجِنٌ، وَشِيبَ[١] لَبَنُهَا بِمَاءٍ، فَأَعْطَى رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ القَدَحَ، فَشَرِبَ مِنْهُ حَتَّى إِذَا نَزَعَ القَدَحَ مِنْ فِيهِ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ عُمَرُ: ـ وَخَافَ أَنْ يُعْطِيَهُ الأَعْرَابِيَّ ـ أَعْطِ أَبَا بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ عِنْدَكَ، فَأَعْطَاهُ الأَعْرَابِيَّ الَّذِي عَلَى يَمِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**الأَيْمَنَ فَالأَيْمَنَ**»[٢].

وكان الصحابة إذا جلسوا عنده لا يُحِدّون النظر إليه، ولكن يلحظونه بأعينهم لحظاً؛ لمزيد تعظيمهم ومهابتهم له، كما قال عمرو بن العاص: لَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ مَا أَطَقْتُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهُ[٣].

وكما كانوا يغضون أبصارهم حياءً فقد كانوا يغضون أصواتهم تأدباً، وعملاً بقول الله عز وجل: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ**﴾.

ولذا كان عمر وهو الجَهْوري الصوت إذا كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خفض صوته كأنه يُسِرُّ إليه، ولا يستبين النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قولَه حتى يستفهمه[٤]، رعاية منه للأدب مع مقامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ولم يكن في المجلس النبوي فرش يجلسون عليها، ولا أرائك يتكئون عليها، وإنما فراشهم حَصْباء المسجد، فهي مصلاهم ومجلسهم.

وكان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يجلس في هذا المجلس مع أصحابه كأحدهم، ليس له شَارة تميِّزه عنهم، فيجيء الغريبُ فلا يعرفه من بينهم، وربما سأل: أيكم ابنُ

---

(١) شيب: خُلِط. ينظر: «عمدة القاري» للعيني (١٢/ ١٩٢).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٣٥٢). «صحيح مسلم» (٢٠٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٤) «صحيح البخاري» (٧٣٠٢).

عبد المطلب؟ فلا يجدون ما يميِّزون به رسولَ الله ﷺ، إلَّا وَضاءته وبهاءه، فيقولون: هو هذا الأبيض المُتَّكِئ. فلما رأى الصحابة ذلك، أشاروا على النبي ﷺ أن يعملوا له دَكَّةً من الطين؛ حتى يعرفه القادم، فأذن لهم، وكان ذلك في آخر حياته، عام الوفود، سنة تسع[1].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتناوبون الحضور في هذا المجلس النبوي، كما في حديث عمر رضي الله عنه قال: كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في عوالي المدينة، وكنا نتناوبُ النزولَ على رسول الله ﷺ، ينزلُ يوماً وأنزلُ يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[2].

فإذا جلس ﷺ إلى أصحابه تحدَّث إليهم، وكان أفصح خلق الله كلاماً، وأعذبهم حديثاً، وأبينهم أداءً، ليس كلامه هذّاً مسرعاً، ولا بطيئاً متقطِّعاً، وإنما هو فَصْلٌ بَيِّنٌ، لو شاء العادُّ أن يَعُدَّه لأَحْصَاه، كما قالت عائشةُ رضي الله عنها: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْرُدُ الْحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ هذا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ فصلٍ، تَفْهَمُهُ الْقُلُوبُ، ويَحْفَظُهُ مَنْ جَلَسَ إِلَيْهِ، ولَوْ شَاءَ الْعَادُّ أَنْ يُحْصِيَهُ أَحْصَاهُ[3].

وغالباً ما يأخذ حديثه طابع الحوار المبدوء بالتساؤل: فربما ابتدأهم بالسؤال ليسألوه، كقوله: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟**» ثَلَاثاً، قالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ**». وَكَانَ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فَقَالَ: «**أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ**». فَمَا زَالَ يُكَرِّرُها، حَتَّى قالوا: لَيْتَهُ سَكَتَ[4]، شفقة عليه لما رأوا من تأثره.

(١) «سنن أبي داود» (٤٦٩٨)، و«سنن النسائي» (٥٠٠٦)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٨٩)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٥٦٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٣)، و«الشمائل المحمدية» للترمذي (ص١٣٤)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٢٦٥٤، ٥٩٧٦)، و«صحيح مسلم» (٨٧)، وغيرها.

وربما سألهم ليَلْفِتَ أبصارهم إلى معنى أعظم من المتبادر لهم، كقوله: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**». قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ**»[(١)].

وربما استثارَ أذهانهم بالسؤال ليُجيبوه، كما بدأهم مرةً بالسؤال، وقد أُتي إليه بجُمَّار نَخْل[(٢)]، فقال: «**أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ تُشْبِهُ الرَّجُلَ الْمُسْلِمَ، لَا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ، مَا أَخَذْتَ مِنْهَا مِنْ شَيْءٍ نَفَعَكَ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟**». فوقعوا في شجر البَوادي، يَعُدُّونها عليه، وهو يقولُ في كلٍّ: «**لا.. لا**». ووقع في نفس عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ـ وكان عاشر عشرة هو أصغرهم سنّاً ـ أنها النخلة، فنظر، فإذا في المجلس أبو بكر وعمر لا يتكلمان، فاستحيى أن يقولها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**هِيَ النَّخْلَةُ**». قال عبد الله: فَلَمَّا قُمْنَا قُلْتُ لِعُمَرَ: يَا أَبَتَاهُ، وَاللهِ لَقَدْ كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَكَلَّمَ؟ قَالَ: لَمْ أَرَكُمْ تَكَلَّمُونَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ أَوْ أَقُولَ شَيْئاً، قَالَ عُمَرُ: لَأَنْ تَكُونَ قُلْتَهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا[(٣)].

وربما بدأهم بسؤال مفاجئ؛ لينتهي بهم إلى نتيجة مفاجئة، كما بدأهم قائلاً: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِماً؟**». ففجأهم السؤال؛ إذ لم يستعدوا له، ولو علموا أنه سيسألهم لصاموا كلهم، فسكتوا جميعاً، وأجاب أبو بكر قائلاً: أنا

(١) «مسند أحمد» (٨٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٥٨١)، و«جامع الترمذي» (٢٣١٨).

(٢) هو لبٌّ أبيض في قلب النخلة إذا فُلِقت. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٤٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦١، ٤٦٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢٨١١)، وغيرها.

يا رسولَ الله. فقال: «**مَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضاً؟**». فسكتوا، وأجاب أبو بكر قائلاً: أنا يا رسولَ الله. فقال: «**مَنْ تَبعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟**». فسكتوا، وقال أبو بكر: أنا يا رسولَ الله. فقال: «**مَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِيناً؟**». فسكتوا، وقال أبو بكر: أنا يا رسولَ الله. فقال: «**مَا اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الْخِصَالُ فِي امْرِئٍ فِي يَوْمٍ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**»[١].

ويستخدم أحياناً وسيلة الإيضاح وهو يتحدَّث، كما حدَّث مرة عن رفع الأمانة، فقال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَبْقَى أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْوَكْتِ[٢]، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ[٣]، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَنَفِطَ[٤]، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً[٥]، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ». ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا عَلَى رِجْلِهِ[٦].

ويستعين بالرسم التوضيحي، كما خطَّ على الأرض خَطّاً مُرَبَّعاً، وَخَطَّ خَطّاً فِي الْوَسَطِ خَارِجاً مِنْهُ، وَخَطَّ خُطَطاً صِغَاراً إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الْوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الْوَسَطِ، ثم قال: «**أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟**». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قال: «**قَالَ: هَذَا الْإِنْسَانُ الْخَطُّ الْأَوْسَطُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ الَّتِي إِلَى جَنْبِهِ الْأَعْرَاضُ** ـ أي: الآفات التي تعرض للإنسان ـ **تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، إِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَالْخَطُّ الْمُرَبَّعُ: أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ، وَالْخَطُّ الْخَارِجُ: أَمَلُهُ، يَتَعَاطَى الْأَمَلَ، والأجلُ يَخْتَلِجُهُ دُونَ ذَلِكَ**»[٧].

---

(١) «صحيح مسلم» (١٠٢٨)، و«مسند البزار» (٩٧٥٤)، و«صحيح ابن خزيمة» (٢١٣١)، وغيرها.

(٢) أي: أثر النار على الجلد. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢١٨).

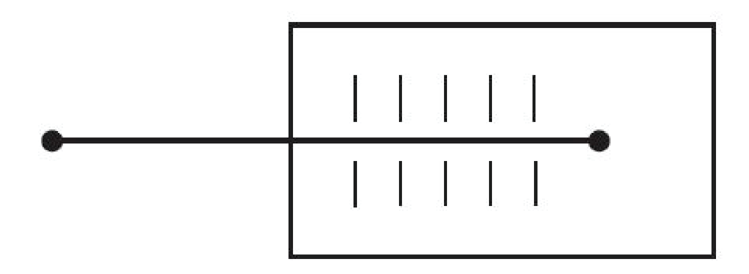
(٣) المجل: يبوسة في الكف من أثر العمل. ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٤٢).

(٤) نَفِط: أي ورم وامتلأ ماء. ينظر: «الفتح» (١٣/ ٣٩).

(٥) المُنْتَبِر: المُنتفِخ. ينظر: «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٣/ ٢١٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٧٠٨٦)، و«صحيح مسلم» (١٤٣)، و«جامع الترمذي» (٢١٧٩)، وغيرها.

(٧) «صحيح البخاري» (٦٤١٧).



فانظر كيف اختزل الفكرة واختصرها بأوضح بيان، فكل الموتى ماتوا ولهم آمال لم يستتموها، ومساحة الأمل أوسع من مساحة العمر، ولذا فلا بد من وضع الأجل في حساب الأمل، وهذا الاستغراق في الأمل هو الأماني الغرارة: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

ومما كان يَعْمُر هذا المجلس: الاستغفار الكثير؛ فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يلحظون عدم فتور النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الاستغفار والتوبة، وربما عدُّوا له في المجلس الواحد مئة مرة قبل أن يقوم: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ»[١].

ولم تكن المواعظ ولا التعليم تتم بأسلوب إلقائي أُحادي الاتجاه، وإنما بأسلوب حِواري يعتمد إشراك المتعلِّم في عملية التعليم، ويعتمد الحوار الذي يتيح النمو العقلي والفكري للمتعلِّم.

ولم يكن هذا المجلس مجلس علم ووعظ فقط، بل كان مجلس حيوية وتفاعل مع الحياة، فيشارك النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه ما يتحدثون به، ويتفاعل مع حديثهم وهمومهم وشجون حياتهم كما قال زيد بن ثابت: كَانَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم إِذَا ذَكَرْنَا الْآخِرَةَ ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا الدُّنْيَا ذَكَرَهَا مَعَنَا، وَإِنْ ذَكَرْنَا الطَّعَامَ ذَكَرَهُ مَعَنَا، وَإِذَا ذَكَرْنَا النِّسَاءَ ذَكَرَهُنَّ مَعَنَا، وَبِكُلِّ هَذَا أُحَدِّثكُم عَنْهُ[٢].

---

(١) «سنن أبي داود» (١٥١٦)، و«جامع الترمذي» (٣٤٣٤).

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٤٨٨٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٣٣٤٠)، و«الجامع الكبير» للسيوطي (٢٠/ ٢٨١).

وفي مجلسه يُؤْتَى بصبيان المدينة، فيدعو لهم، ويحنِّكهم بتمرة يمضغها في فيه بريقه الطيب المبارك، ثم يضع في أفواههم منها، ويسمِّيهم، ويُبرِّك عليهم[١].

ومن ذلك: أن أبا أُسيد مالك بن رَبيعة السَّاعدي رضي الله عنه أَتَى بابنه المُنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وُلد، فوضعه النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم على فَخِذه، وأبو أُسيد جالس، فشُغل النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم بشيء بين يديه، فأَمَرَ أبو أُسيد بابنه فاحتُمل من على فَخِذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وردُّوه إلى أهله، فاستفاقَ[٢] رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**أَيْنَ الصَّبِيُّ؟**». فقال أبو أُسيد: أَقْلَبْناه[٣] يا رسولَ الله. فقال: «**مَا اسْمُهُ؟**». قال: فلانٌ يا رسولَ الله، قال: «**لَا، وَلَكِنْ أَسْمِهِ: الْمُنْذِر**». فسمَّاه يومئذ: المنذر[٤].

ويُؤتى في مجلسه ببَواكير ثمار النَّخِيل؛ حيث كان التمر فاكهة أهل المدينة وقوتهم وغذاءهم، فكانوا يفرحون إذا رَأَوْا أول الثمرة، ويأتون به إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم، فإذا أخذه قال: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا، وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَبَارِكْ لَنَا فِي مُدِّنَا، بَرَكَةً مع بَرَكَةٍ، اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدُكَ وَخَلِيلُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنِّي عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَإِنَّهُ دَعَاكَ لِمَكَّةَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ لِلْمَدِينَةِ بِمِثْلِ مَا دَعَاكَ بِهِ لِمَكَّةَ وَمِثْلِهِ مَعَهُ**». ثم يدعو أصغرَ مَن يحضره من الولدان، فيعطيه ذلك الثمر[٥].

وكان في هذا المجلس فسحة للطُّرْفَة والمُزاح الجميل، ولم يكن وَقار المجلس النبوي ولا مَهابة محيَّاه صلى الله عليه وآله وسلم مما يحجز أصحابه عن عفوية الحياة، فها هو صلى الله عليه وآله وسلم يحدِّث أصحابه، وعنده رجلٌ من أهل البادية، فقال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ اللهُ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا**

(١) «صحيح البخاري» (٣٩٠٩، ٥٤٧٠، ٥٤٦٧، ٦١٩٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٤-٢١٤٦).

(٢) أي: انتبه من شغله وفكره الذي كان فيه. ينظر: «النهاية» (٣/ ٤٨١).

(٣) أقلبناه: رَدَدْناه. ينظر: «النهاية» (٤/ ٩٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٦١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢١٤٩)، وغيرها.

(٥) «صحيح مسلم» (١٣٧٣)، و«جامع الترمذي» (٣٤٥٤)، و«سنن ابن ماجه» (٣٣٢٩).

شِئْتَ؟! فَقَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ، فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ، فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ[١] **وَتَكْوِيرُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ؛ فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ!**». فلما فرغ النبيُّ ﷺ من حديثه قال الأعرابي: يا رسولَ الله، والله لا تجده إلَّا قرشيّاً أو أنصاريّاً؛ فإنهم أصحاب زرع، وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع، فضحك مَن في المجلس، وضحك النبيُّ ﷺ[٢].

وربما أُهدي للنبيِّ ﷺ طعامٌ وهو مع أصحابه، فيأكلون جميعاً، كما في حديث سمرة بن جندب قال: أُهديت للنبي ﷺ شاةٌ، والطعام يومئذ قليل، فقال لأهله: «**اطْبُخوا هَذِهِ الشَّاةَ، وَانْظُرُوا إِلَى هَذَا الْخُبْزِ، فَاثْرُدُوا وَاغْرِفُوا عَلَيْهِ**». وكانت له ﷺ قَصْعَةٌ لها أربع حلق يقال لها: الغَرَّاءُ. يحملها أربعة رجال، فلما أصبحوا وسجدوا الضحى، أُتي بتلك القصعة، فالتفُّوا عليها، فلما كثروا جَثَا رسولُ الله ﷺ على ركبتيه يأكل، فقال أعرابيٌّ: ما هذه الجِلْسَة؟ قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَنِي عَبْداً كَرِيماً، وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً عَنِيداً، كُلُوا مِنْ جَوَانِبِهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهَا**». ثم قال: «**خُذُوا وَكُلُوا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتُفْتَحَنَّ عَلَيْكُمْ أَرْضُ فَارِسَ وَالرُّومِ حَتَّى يَكْثُرَ الطَّعَامُ فَلَا يُذْكَرُ اسْمُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[٣].

والطعام في هذا الوقت يسمى: الغداء، وهو ما يُؤكل في الغُدوة، وهي أول النهار، وهو ما يسمى في وقتنا الإفطار، والعشاء ما يُؤكل في العشي، أي بعد العصر أو بعد المغرب.

وهذا المجلس هو مجلس استقبال القادمين من الوفود؛ فإن المسافرينَ عادةً يبيتون خارج المدينة، ثم يدخلونها ضحىً، فيَلْقَون النبيَّ ﷺ في هذا المجلس.

---

(١) أي: فنبت واستوى وحُصد في طرفة عين. ينظر: «الفتح» (٥/ ٣٤).

(٢) «مسند أحمد» (١٠٦٤٢)، و«صحيح البخاري» (٢٣٤٨)، و«مسند البزار» (٨٧٥٩)، وغيرها.

(٣) «سنن أبي داود» (٣٧٧٣)، و«سنن ابن ماجه» (٣٢٦٣، ٣٢٧٥)، و«سنن البيهقي» (٧/ ٢٨٣).

ومن ذلك: وفد المُضَرِيِّين، وقد أَتَوْا إلى النبي ﷺ في صَدْر النهار، فرأى ما بهم من الفقر والفاقة، فتَمَعَّر وجهُه أَلَماً لحالهم[١]، ثم خطبَ الناسَ بعد صلاة الظهر، وحثَّ على الصدقة، حتى اجتمع عنده كَوْمان من طعام وثياب[٢].

ووفد عَبْد القَيْس الذين أَتَوْا إليه ﷺ من الأَحْساء، ودخلوا عليه ضحى فرحَّب بهم وقال: «**مَرْحَباً بِالْوَفْدِ، غَيْرَ خَزَايَا وَلَا نَدَامَى**»[٣].

ويغلب على الظن أنه المجلس الذي أتى فيه جبرائيلُ عليه السلام في صورة رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه أحدٌ، فسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة[٤].

وأنه المجلس الذي أتى فيه ضِمامُ بن ثَعْلبة رضي الله عنه، فأناخَ جمله في المسجد، ثم قال للنبي ﷺ: ابنَ عبد المطلب؟ قال: «**قَدْ أَجَبْتُكَ**». قال: إني سائلُك، فمُشدِّد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. قال: «**سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**». فسأله عن أركان الإسلام، ثم قال: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ، وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي، وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ، والذي بعثك بالحق، لا أزيدُ عليهن ولا أَنْقُصُ، فلما ولَّى، قال النبيُّ ﷺ: «**فَقِهَ الرَّجُلُ، لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ**»[٥].

وكان هذا المجلس هو مجلس شورى المسلمين فيما يقع لهم، وفيه كانت الشورى ثم قرار الخروج لأُحد، وفيه تقرَّر حفر الخندق، ونحو ذلك مما يستجد

---

(١) أي: تغيَّر وجهه وبدا عليه التألُّم لحالهم.

(٢) «مسند أحمد» (١٩١٧٤)، و«صحيح مسلم» (١٠١٧)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٥٣، ٤٣٦٨)، و«صحيح مسلم» (١٧)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (١٨٤)، و«صحيح البخاري» (٥٠، ٤٧٧٧)، و«صحيح مسلم» (٨-١٠).

(٥) «مسند أحمد» (٢٣٨٠)، و«صحيح البخاري» (٦٣)، و«سنن أبي داود» (٤٨٦)، وغيرها.

في أمور حياتهم، ولم يكن أحدٌ أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ، كيف لا وهو المنزَّل عليه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾؟[1].

وهذا المجلس في هذه الفترة هو المجلس الرئيسي للدعوة، والصحبة، والتعلم، والمشورة، فهو الثابت في وقته ومكانه، وما سواه من المجالس عارضة ومتنوعة.

وكان ﷺ يَقْسِمُ بِشْرَه وإقبالَه في مجلسه بين أصحابه، حتى يتفرَّقوا عنه، وكلٌّ يظن أنه أكثرهم حُظْوَة عنده[2].

ويطول هذا المجلس النبوي ويقصُر، بحسب الحال، وبحسب ما يكون فيه من شأن، حتى إذا تعالَى النهارُ قام ﷺ، ولم يكن يقوم من مجلسه إِلَّا قال: «**سبحانك اللهمَّ ربي وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستغفرُك وأتوبُ إليكَ**». فقالوا: يا رسولَ الله، إن هذا قولٌ ما كنا نسمعُهُ منك فيما خلا؟ فيقولُ: «**هُوَ كَفَارَةٌ مَا يَكُونُ فِي المَجْلِسِ**»[3].

وسألته عائشةُ رضي الله عنها، فقالت: يا رسولَ الله، أراكَ تختمُ بهؤلاء الكلمات مجلسَكَ وقراءتَكَ وصلاتَكَ؟ فقال: «**مَنْ قَالَ خَيْراً كَانَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتُ طَابَعاً عَلَيْه إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة**، ـ أي ختماً يختم به على ما قال من خير ـ **وَمَنْ قَالَ شَرّاً كُنَّ كَفَّارَةً له**»[4].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٧٥٧)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٣)، و«سنن ترمذي» (١٧١٤).

(٢) ينظر: «طبقات ابن سعد» (١/ ٣٦٥)، و«المعرفة والتاريخ» (٣/ ٢٨٦)، و«الشمائل المحمدية» للترمذي (٣١٩)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٢/ ١٥٥) (٤١٤)، و«دلائل النبوة» لأبي نعيم (٥٦٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١/ ٢٩٠)، و«تاريخ دمشق» (٣/ ٣٤١، ٣٤٦، ٣٥٠)، و«البداية والنهاية» (٨/ ٤٥٠). ويشهد له وقائع حياته ﷺ العامة.

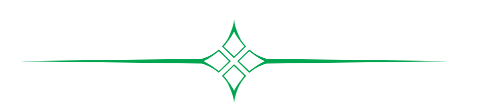
(٣) «مسند أحمد» (١٩٧٦٩)، و«سنن أبي داود» (٤٨٥٩)، و«جامع الترمذي» (٣٤٣٣)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٤٨٦)، و«سنن النسائي» (١٢٦٨)، وغيرها.

وإذا كان ذاك المجلس النبوي الذي لا يقال فيه إلا خير ما يقال، ولا يفشو فيه إلا أعف القول وأفضله وأزكاه يُختم بكفارة المجلس، فإن مجالسنا التي يَسْرب فيها لغو القول نقوله ونسمعه، ينبغي أن يجعلنا أشد تعاهداً لتطهيرها بهذا الذكر، كفارة لما كان من زلل القول في مجالسنا.

وقلَّما يقوم ﷺ من مجلسه حتى يدعو لأصحابه بهذه الدعوات: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ أَمْتِعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا**[١]**، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»[٢]، ثم يتفرَّق الصحابةُ إلى أعمالهم أو إلى بيوتهم؛ للقيلولة قبل الظهر.

ويرجع ﷺ إلى بيته؛ لنومة القَيْلولة، وربما تلقَّته أسواق المدينة ماشياً فيها؛ مجيباً لدعوة، أو قاصداً لزيارة، أو ساعياً في قضاء حاجة.



(١) أي: أبق هذه القوات صحيحة سليمة إلى الوفاة. ينظر: «تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٤/ ٢٥٩).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٥٠٢)، و«سنن النسائي» (١٠١٦١)، وغيرها.



رسم تخيلي للبيت النبوي



يمشي في الأسواق

كانت المدينة أحياء متفرِّقة ما بين عاليتها، كقُباءٍ وبني سالم بن عوف، وسافلتها؛ كبني سَلِمة وبني حارثة، وكل حي هو تجمع عشائري لقوم من الأنصار؛ فهنا بنو زريق، وهناك بنو ظفر، وبنو ساعدة، وبنو النجار.. وهكذا.

والبيوت مختلطة بالحوائط والنخيل والبساتين، والطرق هي ما بين الدور في الحيِّ، وما بين الأحياء في المدينة.

وكان ﷺ يسير في هذه الطرق في زياراته الكثيرة لأحياء المدينة وعشائرها، ولذلك انتشرت مساجده وأماكن صلاته في أنحاء المدينة حيث يصلي عند من يزورهم في مساجدهم.

وكان ﷺ إذا خرج من بيته رفع طَرْفه إلى السماء، وقال: «**بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك أَنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أَزِلَّ أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أَجْهَلَ أو يُجْهَلَ عَلَيَّ**»[١].

وكان يسير راكباً وماشياً، ولعل غالب المشي في الشتاء، وغالب الركوب في الصيف؛ لأن تراب المدينة في الصيف رمضاءُ لاهبةٌ، وحجارتها جمرٌ متّقدٌ.

وكان ﷺ متواضعاً في مركبه، ومن تواضعه ركوبه في الطريق على حمار، وأحياناً يُرْدِف عليه بعض أصحابه معه[٢].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٦٦١٦)، و«سنن أبي داود» (٥٠٩٤)، و«جامع الترمذي» (٣٤٢٧)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١٥١٣)، و«صحيح مسلم» (١٢٨٢)، وغيرها.

ومن مركوبه في الطرق حماره عُفَيْر[١]، وبغلته دُلْدُل[٢]، وناقته القَصْوَاء[٣].

وأما المسافات القريبة فيقطعها ماشياً كالسير بين الدور أو الأنحاء المتقاربة.

ولما نزل النبي ﷺ المدينة اتخذ مسجده الذي بوأه الله مكانه، فكان المسجد في منازل بني النجار، وهي المنطقة الوسطى بين نواحي المدينة، فالمسجد هو المنطقة المركزية، وبقية الأحياء تحيط به شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً.

وكان ﷺ إذا مشى في الطريق مشى بقوة وعزم، بعيداً عن التَّواقُر المتكلَّف الذي يتصنَّعه المتعاظمون؛ فينزع رجليه في خَطْوِه كأنما يَتَقَلَّع عن الأرض، ويَتَكَفَّأ[٤] كأنما يَنْحَدِرُ من عُلُوٍّ، يعرف مَن يراه أنه ليس بعاجزٍ ولا كسلان، وإذا التفتَ التفتَ جميعاً، وكان إذا مشى معه أصحابه مَشَوْا أمامه وحوله، وتركوا ظهره للملائكة، ولم يكونوا يتبعونه مِن خلفه، ولم يطأ عَقِبَه رجلان[٥].

وهذا من تواضعه ﷺ ألَّا يتقدَّم أصحابَه ويدعهم يتَّبعونه من خلفه كما يفعل الجبابرة، ولا يرضى لأصحابه مظاهر الذُّل أو الاستصغار، بل يمشي فيهم وبينهم.

وكان إذا مشى يتوكَّأ على عصا من سَلَم أو عَسِيب نخل، وربما جعل في يده عُرجوناً أو مِحْجَناً[٦]، وكانت هذه عادة العرب؛ إذ كثيراً ما يعرض لهم ما يحتاجونها له[٧].

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٨٥٦)، و«صحيح مسلم» (٣٠)، وغيرها..

(٢) «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٤٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٢٧٣١)، و«صحيح مسلم» (١٢١٨)، وغيرها..

(٤) يتكفّأ: يرفع القدم من الأرض، ثم يضعها، ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر. ينظر: «عون المعبود» (١/ ٥٥).

(٥) «مسند أحمد» (٦٨٤، ١٠٥٣، ٣٠٣٣، ٨٦٠٤، ١٤٢٣٦، ١٤٥٥٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣٠)، و«سنن أبي داود» (٤٨٦٣)، و«جامع الترمذي» (١٧٥٤، ٣٦٤٨)، وغيرها.

(٦) العرجون هُوَ العُود الأَصْفر الَّذِي فِيهِ شَمَاريخ العِذْق. والمحجن هي العصا المنشعبة في أعلاها بحيث يكون رأسها ملتقى غصنين. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٠٣).

(٧) «صحيح البخاري» (١٢٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤)، و«جامع الترمذي» (٣١٤١)، وغيرها.

وكان يتبسَّم لكلِّ مَن يلقاه في طريقه، قال جريرُ بنُ عبد الله ﵁: ما لقيني رسولُ الله ﷺ إلَّا تبسَّم في وجهي[١].

ما أروع هذه الابتسامة المشعَّة المرحِّبة، التي تُشعِر بالوُّدِّ والاختصاص؛ حتى ظنَّ جريرٌ ﵁ أنه ﷺ إنما يفعل ذلك معه وله؛ فوقعت من نفسه هذا الموقع، مع أنه ﷺ يفعل ذلك مع الناس كلهم، كما قال عبد الله بن الحارث بن جَزْء ﵁: ما رأيتُ أحداً كان أكثرَ تَبَسُّماً من رسول الله ﷺ[٢].

وكان إذا مرَّ بصبيانٍ سلَّم عليهم، ومسح على وجوههم، قال جابر بن سمُرةَ ﵁: خرج النبيُّ ﷺ، وخرجتُ معه، فاستقبله وِلدَانٌ، فجعلَ يمسحُ خَدَّيْ أحدهم واحداً واحداً، وأما أنا فمسحَ خَدِّي، فوجدتُ ليده برداً وريحاً، كأنما أخرجها من جُؤْنَةِ عطَّار[٣]، فكان الخدُّ الذي مسحه النبيُّ ﷺ أحسنَ من الخدِّ الآخر[٤].

وكان يزورُ الأنصارَ، فإذا جاء إلى دُور الأنصار جاءه صبيان الأنصار، فيدُورونَ حوله، فيدعو لهم، ويمسحُ رؤوسَهم، ويسلِّمُ عليهم[٥].

ومرَّ مرةً بدُور بني النَّجَّار، فتلقَّاه جواري الأنصار، وجعلن يضربن بالدُّفوف ويتغنَّين ويَقُلْنَ:

نحن جَوارٍ من بني النَّجَّارِ ... يا حبَّذا محمدٌ من جارِ

فقال ﷺ: «**اللهُ يَعْلَمُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكُنَّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِنَّ**»[٦].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٧٥)، و«سنن ابن ماجه» (١٥٩)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٧٧٠٤، ١٧٧١٣)، و«جامع الترمذي» (٣٦٤١)، وغيرها.

(٣) جؤنة العطار: سلة صغيرة يحفظ فيها الطيب. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ٤٧٨).

(٤) «صحيح البخاري» (٦٢٤٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٦٨، ٢٣٢٩)، وغيرها.

(٥) «مسند البزار» (٦٨٧٢)، و«شرح مشكل الآثار» (١٥٧٧)، و«الآداب» للبيهقي (٤٧٠).

(٦) «سنن ابن ماجه» (١٨٩٩)، و«مسند البزار» (٧٣٣٤)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٢/ ٥٠٨)، و«البداية والنهاية» (٤/ ٤٩٤)، وغيرها.

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى صِبْيَاناً وَنِسَاءً مُقْبِلِينَ مِنْ عُرْسٍ، فَقَامَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ مُمْثِلاً[(١)]، فَقَالَ: **«اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ»**. يَعْنِي الْأَنْصَارَ[(٢)].

وعن أَنَس بْن مَالِكٍ، قال: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَخَلَا بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»** ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[(٣)].

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: أَتَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنِي سَلِمَةَ يَزُورُهُمْ، فَلَمَّا رَجَعَ اجْتَمَعَ صِبْيَانٌ مِنْ صِبْيَانِهِمْ، وَنِسَاءٌ مِنْ نِسَائِهِمْ، يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَيَتْبَعُونَهُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **«أَمَا وَاللهِ لَئِنْ أَحْبَبْتُمُونِي إِنَّكُمْ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»**[(٤)].

ومرَّ في المسجد يوماً، وعصبةٌ من النساء قُعودٌ، فأَلْوَى[(٥)] بيده إليهنَّ بالسَّلام[(٦)].

وكان إذا لقي الرجلَ من أصحابه بدأه بالسلام وصافحه ودعا له، وكان إذا صافح أحداً لا ينزعُ يده من يده، حتى يكون هو الذي ينزعُ، وإذا لقي الرجلَ فكلَّمه، لم يصرف وجهه، حتى يكون الرجلُ هو الذي يصرفه[(٧)].

وكان يقف لمَن يستوقفه في الطريق، وربما استوقفته الجاريةُ والمرأةُ، فيقف لها؛ حدَّث عَدِيُّ بن حَاتم الطائي رضي الله عنه عن أول لُقياه النبيَّ ﷺ، فقال: بينا أنا أمشي معه، إذ نادتهُ امرأةٌ وَغلامٌ معها: يا رسولَ الله، إنَّ لَنا إليكَ حاجةً. فخَلَوْا به

---

(١) أَيْ مُنْتَصِباً قَائِماً. ينظر: «النهاية» (٤/ ٢٩٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٠٨، ٢٥٠٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٦٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٠٩)، وغيرها.

(٤) «جامع معمر بن راشد» (١٩٩١٦).

(٥) أي: أشار. ينظر: «الفتح» (١١/ ١٤).

(٦) «مسند أحمد» (٢٧٥٨٩)، و«سنن أبي داود» (٥٢٠٤)، و«جامع الترمذي» (٢٦٩٧)، وغيرها.

(٧) «سنن أبي داود» (٤٧٩٤)، و«جامع الترمذي» (٢٤٩٠)، و«سنن ابن ماجه» (٣٧١٦)، وغيرها.

قائماً معهما حتى أَوَيْتُ له[١] من طول القيام، قلتُ في نفسي: أشهدُ أنك بَرِيءٌ من ديني ودين النعمان بن المنذر[٢]، وأنك لو كنتَ مَلِكاً لم يَقُمْ معه صبيٌّ وامرأة طولَ ما أرى، فَقَذَفَ اللهُ في قلبي له حُبّاً[٣].

وكانت الجاريةُ من خدم المدينة، تلقاه فتأخذ بيده ﷺ، فتذهب به حيث شاءت من المدينة في حاجتها، فيدور معها في حوائجها، ولا ينزع يده من يدها حتى ترجع[٤].

وكان يمشي بعفوية وتدفُّق، وقرب ممن يمر بهم، فقد مرَّ مرَّة في طريقه بشاب يَسْلُخُ شاةً، ولم يكن يُحسنُ السَّلْخَ، فحادَ إليه، فقال له: «**تَنَحَّ حَتَّى أُرِيَكَ؛ فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تُحْسِنُ تَسْلَخُ**». فأدخل يده بين الجلد واللَّحم، فدَحَسَ بها[٥] حتى توارت إلى الإِبْط، ثم قال ﷺ: «**هَكَذا يَا غُلامُ فَاسْلَخ**». ثم انطلَقَ[٦].

وبذلك كان ﷺ يقيم جسور التواصل بين الأجيال، وذلك بالاندماج معهم في أحوالهم، وحضوره في تفاصيل حياتهم.

وليت شعري! ما شعور هذا الشاب وهو يرى نبيه ﷺ ينغمس معه في شيء من شأنه الخاص ويعينه عليه؟!

وكان مرةً مع أصحابه في بيت رجل منهم، فأتاه بلالٌ رضي الله عنه يؤذنه بالصلاة، فخرج فمرَّ في طريقه برجل قد وضع بُرْمَتَه[٧] على النار، فقال له: «**أَطَابَتْ**

---

(١) أويت له: رحِمْتُه. ينظر: «لسان العرب» (١٤/ ٥٣).

(٢) هو: النعمان بن المنذر، ملك الحِيْرَة، كان على النصرانية، ثم قتله كِسْرَى. ينظر: «المعارف» لابن قُتيبة (ص ٢٩٣)، و«الفتح» (٦/ ٦١٣).

(٣) ينظر: «الأحاديث الطوال» للطبراني (١).

(٤) «مسند أحمد» (١٢٧٨٠، ١٣٢٥٦)، و«سنن ابن ماجه» (٤١٧٧)، و«مسند البزار» (٧٤٣٧)، وغيرها.

(٥) أي: أدخلها ودسَّها. ينظر: «النهاية» (٢/ ١٠٤).

(٦) «سنن أبي داود» (١٨٥)، و«سنن ابن ماجه» (٣١٧٩)، و«صحيح ابن حبان» (١١٦٣)، وغيرها.

(٧) البرمة: القِدْر من الحجارة أو الفخار. ينظر: «النهاية» (١/ ١٢١).

بُرْمَتُك؟». قال: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، فتناول منها بَضْعَةً، فجعل يَعْلُكُها[١] وهو يسيرُ، حتى أَحْرَمَ بالصلاة[٢].

إنها بساطة الحياة، يعيشها مع أصحابه؛ فهو يتناول بَضْعةً يسيرةً ويظل يمضغها وهو يسير، ما أبعد ذلك عن سنن المتكبِّرين والجبَّارين.

أما صاحب البُرْمة؛ فكأني به يومه ذلك يحدِّث ويتحدَّث عن طلب النبي ﷺ بَضْعةً من طعامه، ثم أكلها أمامه، حتى لكأن الموقِف وسام العمر له.

أيُّ عمق في حياة الناس كان ﷺ يصل إليه بهذه اللفتات الأخَّاذة؟!

وكان تعليمه ودعوته مبثوثة في طرقات سيره إذا لاقت مناسبتها، وتكون وجيزة محدَّدة تليق بحال عبور الطريق، **ومن ذلك** ما رواه أبو طَلْحَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا قُعُوداً بِالْأَفْنِيَةِ نَتَحَدَّثُ، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ عَلَيْنَا، فَقَالَ: «**مَا لَكُمْ وَلِمَجَالِسِ الصُّعُدَاتِ؟ اجْتَنِبُوا مَجَالِسَ الصُّعُدَاتِ**». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ، وَإِنَّمَا قَعَدْنَا لِغَيْرِ مَا بَأسٍ، قَعَدْنَا نَتَذَاكَرُ وَنَتَحَدَّثُ، إِنَّا نَغْتَمُّ فِي الْبُيُوتِ، فَنَبْرُزُ فَنَتَحَدَّثُ، قَالَ: «**فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ**». قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**غَضُّ الْبَصَرِ وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَحُسْنُ الْكَلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَإِرْشَادُ السَّبِيلِ، وَتُغِيثُوا الْمَلْهُوفَ**»[٣].

وانظر إلى فقه الصحابة في تلقي النهي النبوي حيث فقهوا أنه نهي إرشاد وليس نهي تحريم، وأن النهي عن الجلوس ليس مقصوداً لذاته وإنما لغيره، فراجعوا النبي ﷺ حتى يستبينوا منه ما عليهم مراعاته، فأرشدهم إلى آداب الجلوس في الطرقات والتي سماها لهم: حق الطريق.

---

(١) أي: يمضغها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٩٠).

(٢) «مسند أحمد» (١٧٧٠٢ - والتعليق عليه)، و«سنن أبي داود» (١٩٣)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٦٣٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٦١)، و«سنن النسائي» (١١٢٩٨)، و«الفتح» (٥/ ١١٣).

وأتى مرة من بعض نواحي المدينة فاختار أن يكون طريقه على السوق، فلما رآه أهل السوق مقبلاً ترك كلٌ ما في يده وجاؤوا يتلقَّون النبي ﷺ، فصاروا في السوق سِماطَيْن[١] والنبي ﷺ يعبر من بينهما، إجلالاً له ﷺ وشوقاً إلى رؤيته ولقياه، وإذا بالنبي ﷺ يتوجَّه إلى تيسٍ أسكّ[٢] ميت، فيُمسكه بأذنه الصغيرة، ثم يرفعه في السوق ويبدأ مزاداً على هذا التيس الميت، فيقول: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**». فتعجَّب أهل السوق وهم تجَّار؛ كيف يُقيم مزاداً على تيس ميِّت قد هان على أهله حتى تركوه؟! فقالوا: يا رسول الله، وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيّاً كَانَ عَيْباً فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟! وإذا بالنبي ﷺ يُلقيه من يده ويقول لهم: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[٣] وألقاه ومضى.

وكأنما يقول لهم ﷺ: إن هذه الدنيا هيِّنة، إنها أهون على الله من هذا التيس الذي ألقيته وألقاه قبلي أهله، وأنتم ترونه ملقىً ولا أحد منكم رغب فيه من هوانه عليكم، «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**». وإذا كانت الدنيا كلها بهذا الهوان عند الله، فهل تستحق سلعةٌ تبيعها أو بضاعةٌ تُنفِّقها أن تحلف عليها يميناً كاذبة؟! أو تكسب بها كسباً حراماً؟! فانظر بلاغة الموعظة ومناسبتها للسوق.



(١) أي: صفين متقابلين.

(٢) الأسك: هو صغير الأذن، ويعتبر عيباً في خلقته. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٣٥١).

(٣) «مسند أحمد» (١٤٩٣٠)، و«صحيح مسلم» (٢٩٥٧).





الزيارات النبوية

ويذهب النبيُّ ﷺ في بعض ضَحَوات الأيام لزيارة مَن يرغب زيارتَه من قرابته أو أصحابه.

ومن ذلك: ذهابه إلى بيت ابنته فاطمة؛ ليلقى ابنه الحسنَ بن علي عليهم السلام، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: خرج النبيُّ ﷺ يوماً في طائفة من النهار، فوجدني في المسجد، فأخذ بيدي، فانطلقتُ معه، متَّكئاً على يَدِي، لا يكلِّمني ولا أكلِّمه، حتى جئنا سوق بني قَيْنُقاع، فطاف فيه ونظر، ثم انصرف وانصرفتُ معه، فجاء إلى فناء بيت فاطمة فجلس، فنادى الحسنَ فقال: «**أَيْنَ لُكَعُ**[1]، **أَيْنَ لُكَعُ؟ أَيْنَ لُكَعُ؟ ادْعُ الحَسَنَ بْنَ عَلِيّ**». فلم يجبه أحدٌ، فحبسته فاطمة شيئاً، فظننا أنها تغسِّله وتلبسه سِخاباً[2]، فانصرف وانصرفتُ معه، حتى جئنا المسجدَ، فجلس فاحتبى، ثم قال: «**أَيْنَ لَكَاعُ؟ ادْعُ لِي لَكَاعاً**». فلم يلبث أن جاء الحسنُ يشتدُّ وفي عنقه السِّخاب، فقال النبيُّ ﷺ بيده هكذا، ومدَّها، فقال الحسنُ بيده هكذا، حتى وثب في حَبوته، فوقع في حِجره، فاعتنق كلُّ واحد منهما صاحبه، وقبَّله وضمَّهُ إلى صدره، وأدخل الحسنُ يده في لحية النبي ﷺ، ثم جعل النبيُّ ﷺ يفتح فاه، فوضع فمه على فمه، وقال: «**اللّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ، فَأَحِبَّهُ، وَأَحْبِبْ مَنْ يُحِبُّه**». ثلاثَ مراتٍ.

(١) لكع: الصغير. ينظر: «الفتح» (٤/ ٣٤١).

(٢) السِّخاب: قلادة تُتخذ من الخرز ومن أنواع من الطيب. ينظر: «الفتح» (١/ ١٣٠).

فكان أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتذكَّر هذا المشهد، ويقول: ما رأيتُ حسناً قطُّ إِلَّا فاضت عيناي دموعاً[(١)].

وذهب ذات مرة إلى بيت فاطمةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قائلة النهار، فسألها عن زوجها عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قائلاً: «**أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟**». فقالت: كان بيني وبينه شيء، فخرج، فلم يَقِلْ عندي. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لإنسان: «**انْظُرْ أَيْنَ هُو؟**». فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقد، فأَتَى إليه وهو مضطجع في المسجد، وقد سقط رداؤُه عن جنبه، وعَلِقَ به التراب، فجعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يمسح عنه التراب، ويقول: «**قُمْ أَبَا التُّرَاب، قُمْ أَبَا التُّرَاب**»[(٢)].

وهذا من التعاهد النبوي لبناته حتى وهُنَّ في بيت الزوجية، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يفعل مع بنته فاطمة وزوجها علي ما لا يفعله مع أزواج بناته الآخرين كعثمان بن عفان وأبي العاص بن الرَّبيع، وذلك أن علياً نشأ ربيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهو كالابن له لا يحتشم منه أو إليه.

وكان يذهب إلى أم أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والتي كانت حاضنته في طفولته، فيتعاهدها بالزيارة، فذهب إليها مرةً، فقرَّبت إليه طعاماً أو شراباً، فإما كان صائماً، وإما كان لا يريده، فردَّه ولم يأكل، فأقبلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تخاصمه وتَصْخَب وتتذمَّر عليه أَلَّا يكون أَكَلَ[(٣)].

وهذه الجرأة من أمِّ أيمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لسابق حضانتها لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فهي تتذمَّر عليه لشدَّة حبِّها له، كما تفعل الأمُّ مع ولدها، فصلَّى اللهُ على النبي الكريم الذي كان يتلقَّى ذلك بكريم الحفاوة وحُسن التعاهد.

---

(١) «مسند أحمد» (١٠٨٩١)، و«صحيح البخاري» (٥٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٢١)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٤٤١، ٣٧٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٩)، وغيرها.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٤٥٣).

وكان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعودُ مرضاهم، ويجيب دعوتهم على المتيسر وإن قَلَّ، ويقول: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ**[١] **لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ**»[٢].

ومن ذلك: إجابته دعوة مُلَيكة جدَّة أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ فقد دعت رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لطعام صنعته، فأكل منه، ثم قال: «**قُومُوا فَأُصَلِّي لَكُمْ**». قال أنس: فقمت إلى حَصِير لنا قد اسْودَّ من طُول استخدامه، فنضحتُه بماء، فقام عليه رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وصففتُ أنا واليتيم وراءه، والعجوزُ من ورائنا، فصلَّى لنا رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ركعتين، ثم انصرف[٣].

ودعاه مرةً خيَّاطٌ من الموالي لطعام صنعه، قال أنس: فذهبتُ مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلى ذلك الطعام، فقرَّبَ إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خبزاً من شَعِير ومَرَقاً فيه دُبَّاءٌ وقَدِيدٌ[٤] وأقبل على عمله، قال: فجعل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يأكل من ذلك الدُّبَّاء ويعجبه، ورأيته يتتبَّع الدُّبَّاء من حول الصَحْفَة، فلما رأيتُ ذلك جعلتُ أُلْقِيه إليه ولا أطعَمُه، فجعلت أجمع الدباء بين يديه فلم أزل أحبُّ الدُّبَّاءَ من يومئذ[٥].

ودعاه يهودي فقدم له خبز شعير وإهالة سنخة[٦].

وزار سعد بن عبادة فجاءه بخبز وزيت فأكل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ[٧].

(١) الكراع من الدابة: ما دون الكعب، وهو لا قيمة له. ينظر: «الفتح» (٥/ ٢٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥١٧٨)، و«جامع الترمذي» (١٣٣٨)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٨٠)، و«صحيح مسلم» (٦٥٨)، وغيرها.

(٤) الدباء: هو القَرْع. والقَدِيد: هو لحم مجفَّف.

(٥) «صحيح البخاري» (٢٠٩٢، ٥٤٢٠، ٥٤٣٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤١)، وغيرها.

(٦) «صحيح البخاري» (٢٠٦٩). وإهالة سنخة: دهن الشحم الذي تغيرت رائحته. ينظر: «الفتح» (١/ ١٣٤).

(٧) «مصنف عبد الرزاق» (٧٩٠٧)، و«سنن أبي داود» (٣٨٥٤)، وغيرها.

ودعاه عِتبانُ بن مالك ليصلِّي له في بيته، وقال: يا رسولَ الله، قد أَنْكَرْتُ بصري، وأنا أصلِّي لقومي، فإذا كانت الأمطار سال الوادي الذي بيني وبينهم، ولم أستطع أن آتي مسجدهم فأصلِّي بهم، ووددت يا رسولَ الله أنك تأتيني فتصلِّي في بيتي، فأتَّخذه مصلّىً. فقال له رسولُ الله ﷺ: «**سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ الله**». فأتى إليه من الغد ضحىً، ومعه أبو بكر وعمر وبعض أصحابه، فقال له: «**أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ؟**». فأَرَاه ناحية في بيته، وبسط له فيها حَصِيراً، ورشَّ طرفه بالماء، فصلَّى بهم ركعتين، ثم استبقاه عتبانُ؛ ليصيب من خزيرة[(١)] صنعها له، فجلس وطَعِم عنده[(٢)].

وكان يُؤْنِس مَن يزورهم، ويسعهم جميعاً برُّه وحسن خلقه، حتى صِبيتهم وصغارهم؛ قال أنس رضي الله عنه: كان النبيُّ ﷺ أحسنَ الناس خُلقاً، وكان يغشانا ويخالطنا، وكان لي أخٌ فَطِيم[(٣)] يُقالُ له: أبو عُمير، وكان إذا زارنا يمازحه ويضاحكه، فزارنا ذات يوم فوجده حزيناً، فقال: «**يَا أُمَّ سُلَيْم، مَا لِي أَرِى ابْنَكِ أَبَا عُمَير حَزِيناً خَاثِرَ النَّفْسِ**[(٤)]**؟**». قالت: يا رسولَ الله، مات نُغَيْرُه[(٥)] الذي كان يلعب به. فأقبل عليه، وجعل يمسحُ رأسَه، ويقول: «**يَا أَبَا عُمَير، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟ يَا أَبَا عُمَير، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟**»[(٦)].

وقال محمود بن الرَّبِيع رضي الله عنه: عقلتُ من رسول الله ﷺ مَجَّةً مَجَّها[(٧)] في

---

(١) الخزيرة: لحم يقطع صغاراً ويصب عليه ماء كثير، فإذا نضج ذر عليه الدقيق. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٤٢٤، ٤٢٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣)، وغيرها.

(٣) أي الطفل الذي بلغ سن الفطام ودخل الثالثة من عمره. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٤٥٤).

(٤) أي: ثقيل النفس، غير طيب ولا نشيط. ينظر: «النهاية» (٢/ ١١).

(٥) النغير: طائر صغير يشبه العصفور. ينظر: «النهاية» (٥/ ٨٦).

(٦) «صحيح البخاري» (٦١٢٩، ٦٢٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٠)، وغيرها.

(٧) المَجُّ هو إرسال الماء من الفم. وفعله النبي ﷺ مع محمود مداعبة منه. ينظر: «الفتح» (١/ ٢٠٧).

وجهي من دَلْوٍ من بئرٍ كانت في دارنا، وأنا ابنُ خمس سنينَ[١].

فانظر هذه المداعبة المُؤْنِسة كيف رَسَخَتْ في وعي محمود، وتَعْجَبُ كيف تطامن ﷺ بهمّه إلى همِّ طفل يسأله عن نُغَيْره، وإلى طفل يمازحه ويَمُجُّ الماء في وجهه، وهذه المجة لا بد أن تكون مسبوقة بمؤانسة وملاطفة حتى يتلقاها الصبي بأُنْس.

أيُّ قرب يجده هؤلاء الأطفال من رسول الله ﷺ؟ وأيُّ شيء كان يجده أصحابه وهم يرون صبيانهم بهذه المكانة من نبيهم؟!

وكان إذا زار أحداً من أصحابه وطَعِم عنده دعا له ولأهله وصلَّى عليهم؛ فقد زار سعدَ بنَ عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأكل عنده، ثم قال: «**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الْأَبْرَارُ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ**»[٢].

وزار بُسْرَ بنَ أبي بُسْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلمَّا دنا من منزله خرج بُسْرٌ وزوجته، فتلقَّيا رسولَ الله ﷺ ورحَّبا به، ثم وضعوا له قطيفةً كانت عندهم فقعد عليها، ثم قال بُسْرٌ لزوجته: هاتي طعامك. فجاءت بقصعة فيها دَقِيق قد عصدته بماء وملح، فوضعته بين يدي رسول الله ﷺ، فأكل رسولُ الله ﷺ وأكلوا معه، وفضل منها فضلةٌ، ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**اللهمَّ اغْفِرْ لَهُمْ وَارْحَمْهُم، وبَارِكْ علَيْهِم، وَوَسِّعْ علَيهِم في أَرزَاقِهِم**»[٣].

وزار جابرَ بنَ عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في بيته، فقال جابرٌ لامرأته: إن رسولَ الله ﷺ يجيء اليوم وسط النهار، فلا تُؤذِي رسولَ الله ولا تكلِّميه ولا تسأليه. ثم ذبح لرسول الله عَنَاقاً سمينةً عنده، فلما وضعها بين يديه نظر إليه ﷺ وقال: «**يَا جَابِرُ، كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ حُبَّنَا للَّحْمِ؟!**». ثم أكل هو ومَن معه، فلما أراد أن

(١) «صحيح البخاري» (٧٧)، و«صحيح مسلم» (٣٣)، و«سنن ابن ماجه» وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٢١٧٧، ١٣٠٨٦)، و«مصنف عبد الرزاق» (٧٩٠٧)، و«سنن أبي داود» (٣٨٥٤).

(٣) «مسند أحمد» (١٧٦٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٤٢)، و«سنن أبي داود» (٣٧٢٩)، وغيرها.

يخرج من الباب نادته امرأةُ جابر، وكانت مستترة في ناحية البيت، فقالت: يا رسولَ الله، صلِّ عليَّ وعلى زوجي صلَّى اللهُ عليك. فقال ﷺ: «**صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ وَعَلى زَوْجِكَ**». فقال لها جابرٌ بعد ذلك: ألم أكن نهيتُك أن تكلِّمي رسولَ الله ﷺ؟! قالت: أكنتَ تظنُّ أن الله يُورِدُ رسولَ الله ﷺ بيتي، ثم يخرجُ ولا أسأله الصلاةَ عليَّ وعلى زوجي قبل أن يخرجَ؟![1].

فانظر إلى إسعاد النبي ﷺ لجابر حين قال له: «**كَأَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ حُبَّنَا لِلَّحْمِ؟**»[2] ليشعره أن ضيافته لاقت شهوة النبي ﷺ واستحسانه، وهذا من تلطف الضيف مع المضيف.

وإلى فقه زوجة جابر حيث لم تُفَوِّت فرصة زيارة الرسول ﷺ لهم حتى سألته أن يدعو لهم ويصلي عليهم.

لقد كانت حياة الصَّحب الكرام محفوفةً بصلواته وبركاته ودعواته ﷺ، ولقد كان فضل الله عليهم بنبيه عظيماً!

وكما كانت زياراته ﷺ أُنساً لنفوسهم، وإكراماً لكبارهم، وبِرّاً بصغارهم، وصلاةً وبركةً عليهم، فقد كانت عامرةً بالتعليم والتَّوجيه، وبناء القيم النبوية في نفوسهم بذاك الأُسلوب التربوي النبوي العظيم في التعليم.

يقول عبد الله بن عامر بن رَبيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أتانا رسولُ الله ﷺ في بيتنا وأنا صبيٌّ، فذهبتُ أخرج لألعبَ، فقالت أمي: يا عبدَ الله، هاك، تعالَ أُعْطِكَ. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «**وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيه؟**». قالت: أعطيه تمراً. فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي كُتِبَتْ علَيْكِ كِذْبَةٌ**»[3].

---

(١) «مسند أحمد» (١٤٢٤٥، ١٥٢٨١)، و«مسند الدارمي» (٤٦)، و«سنن أبي داود» (١٥٣٣)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٥٢٨١)، و«مسند الدارمي» (٤٦)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٥٧٠٢)، و«سنن أبي داود» (٤٩٩١)، وغيرها.

إن هذا التوجيه للأم، هو حفرٌ عميق لقيمة الصدق في وِجدان الطفل، فانظر كيف وعاها ورواها لأمَّة نبيه بعد ذلك، حتى بلغتني اليوم وإياك؟!

وزار ﷺ سعدَ بنَ عُبادة رضي الله عنه، فلما كان في مجلسه قال له بَشِير بن سعد رضي الله عنه: أمرنا الله أن نصلِّي عليك يا رسولَ الله، فكيف نصلِّي عليك؟ فسكت رسولُ الله ﷺ حتى تَمَنَّوْا أنه لم يسأله، ثم قال: «**قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ فِي العَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، والسَّلامُ كَمَا قَدْ عَلِمْتُم**»(١).

ولك أن تعجب من هذا السكوت من النبي ﷺ بُرهةً، ذهبت فيها الأذهان كلَّ مذهب، وأصبحت في حال تحفُّز لترى ما يكون جوابه، فلما أجابهم وافق تشوُّفاً وتطلُّعاً لا يُنسى الجواب بعده، فصلوات الله وسلامه على خير معلِّم للناس الخير.

وعندما زار عتبانَ بنَ مالك رضي الله عنه اجتمع رجالٌ في بيته كثير، فقال رجلٌ منهم: ما فعل مالك بن الدُّخْشُم، لا أَرَاهُ؟ فقال رجلٌ منهم: ذاك منافقٌ، لا يحبُّ الله ورسوله. فقال رسولُ الله ﷺ: «**لَا تَقُلْ ذَاكَ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ؟**». فقال: الله ورسوله أعلمُ، أما نحن فوالله لا نرى وُدَّهُ ولا حديثه إلَّا إلى المنافقين! قال رسولُ الله ﷺ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»(٢).

فانظر كيف جعل من هذا المجلس تعليماً لحياطة عرض المسلم وحماية جنابه في غيبته، ولفت النظر إلى الجوانب الإيجابية في كل شخص، وأهمها: عبور بوابة التوحيد: «**أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟**».

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٦٩، ٤٧٩٨، ٦٣٥٧)، و«صحيح مسلم» (٤٠٥- ٤٠٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١١٨٥)، و«صحيح مسلم» (٣٣)، وغيرها.

ليتَ شِعري! كيف سيكون نقاء مجالسنا لو كنا لا نُخْفِر فيها غيبة مَن قال: لا إله إلا الله؟!

وكان ﷺ إذا أتى بابَ قوم لم يستقبل البابَ من تلقاء وجهه، ولكن يتجافى إلى ركنه الأيمن أو الأيسر؛ فقد كانت الدُّور صغيرةً، ولم يكن على أبوابها يومئذ سُتورٌ، ويقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**». فإن لم يسمع جواباً، كرَّر السلامَ ثلاثاً، فإن أُذِنَ له، وإلَّا انصرفَ.

ومن ذلك: قصته مع سعد بن عبادة رضي الله عنه، فقد أتاه ﷺ، فسلَّم عليهم، فقال: «**السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**». فسمع سعدٌ فردَّ على رسول الله ﷺ، ولم يُسْمِعِ النبيَّ ﷺ رَدَّهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «**السَّلَامُ عَلَيْكِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ**». فردَّ سعدٌ، ولم يُسْمِعِ النبيَّ ﷺ ثلاث مرات، وكان النبيُّ ﷺ لا يزيد فوق ثلاث تسليمات، فإن أُذِنَ له، وإلَّا انصرفَ، فانصرفَ النبيُّ ﷺ، وجاء سعدٌ مبادراً، قال: يا نبيَّ الله، والذي بعثك بالحقِّ، ما سلَّمتَ تسليمةً إلَّا سمعتُها ورددتُها عليك، ولكن أحببتُ أن تكثرَ علينا من السلام والرحمة[١].

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٠٦، ١٧٦٩٤)، و«سنن أبي داود» (٥١٨٦)، و«مسند البزار» (٦٨٧٢)، وغيرها.



عيادته المرضى

ومن زياراته: **عيادته المرضى**، فللمصطفى ﷺ حضورُه الآسي[١] والمُواسي في لحظات الألم، وكُرَب المرض.

ومن ذلك: أن سعدَ بنَ عبادةَ رضي الله عنه اشتكى شكوى، فأتاه النبيُّ ﷺ يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم، فلما دخل عليه وجده قد غُشِي عليه، وحوله أهله، فقال: «**قَدْ قَضَى؟**». قالوا: لا، يا رسولَ الله. فبكى النبيُّ ﷺ، فلما رأى القومُ بكاءَ النبيِّ ﷺ بَكَوْا، فقال: «**أَلَا تَسْمَعُونَ، إِنَّ اللهَ لَا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلَا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا** ـ وأشار إلى لسانه ـ **أَوْ يَرْحَمُ**»[٢].

ها هي رحمة نبيِّك ﷺ الذي تذرف الدمع عيناه؛ لأن أحد أصحابه قد أغمي عليه!

ليت شعري! ماذا كان حال سعد بن عبادة بعد أن أفاق وأبلَّ[٣]، فعلم أن رسولَ الله قد بكى لحاله تلك؟!

وما وَقْعُ ذلك على بنيه وقرابته ومَن حوله أن يروا رسولَ الله ﷺ يتفاعل معهم هذا التفاعل، ويندمج معهم بشعوره ومشاعره، وكأن آلامهم في جسده، وأحزانهم في قلبه؟

---

(١) أي: المعالج. ينظر: «تاج العروس» (٧٧/ ٣٣).

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٩٢٤)، وغيرها.

(٣) أي: برأ. ينظر: «تاج العروس» (٢٨/ ١١١).

إنها رحمة النبي ﷺ الذي وصفه خالقه العليم بها فقال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

ومن ذلك: عيادته جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال جابر: مَرِضْتُ فعادني رسولُ الله ﷺ ومعه أبو بكر ماشِيَيْن، وأنا في قومي بني سَلِمة، فوجدني قد أُغمي عليَّ، فلا أعقل شيئاً، فتوضأ رسولُ الله ﷺ، ثم رشَّ عليَّ من وَضوئه، فأفقتُ، فإذا رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، كيف أصنع في مالي، وإنما يرثني كلالة؟ أي: لا والد لي ولا ولد. فلم يرد عليَّ شيئاً، حتى نزلت آية المواريث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ...﴾[1].

بقي أن تعلم أن جابراً رضي الله عنه الذي كان يسأل رسولَ الله ﷺ عن قسمة ماله إذا تُوفِّي في مرضه ذلك قد عاش بعد وفاة رسول الله نحواً من سبعين سنة[2]، وبقي هذا المشهد حاضراً في نفسه!

وتأمَّل قوله: فأفقتُ فإذا رسولُ الله ﷺ. كأنه ينظر إليه الساعة ويعيش تلك الفُجاءة.

ليس شيءٌ أوقع في نفوس الناس من أن تكون قريباً منهم لحظة ألمهم وضعفهم، وهكذا كان نبينا ﷺ مع أصحابه، لا يفقدونه ساعة ألمٍ يواسيهم، أو ساعة فرح يؤانسهم، فحَلَّ من قلوبهم بواطنَ شَغافها.

وكانت زياراته وعيادته تعم المسلمين وغيرَهم، **ومن ذلك**: أنه جاء يعود غلاماً يهوديّاً كان يخدمه، فلما جلس إليه وجده مدنفاً قد شارف، فقال له: «**أَسْلِمْ**». فنظر الفتى إلى أبيه ضارعاً بنظراته إليه، فقال أبوه: أطع أبا القاسم.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٤، ٤٥٧٧، ٥٦٥١، ٦٧٢٣)، و«صحيح مسلم» (١٦١٦)، وغيرها.

(٢) ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٣/ ١٨٩- ١٩٤)، و«الإصابة» (٢/ ١٢٠-١٢٢).

فتشهَّد شهادة الحق ثم قضى، فخرج النبي ﷺ مسروراً بإسلامه وهو يقول: «**الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[(١)].

نتساءل: ماذا أفاد رسولُ الله ﷺ وأصحابه من فتى صغير أسلم ثم مات من ساعته؟ فلن يشهد معهم معركة، ولن يُكَثِّر لهم جمعاً، ولن يحوز لهم مالاً، ولن يخدم رسول الله ﷺ كما كان يخدمه من قبل، فبأيِّ شيء يكون الفرح؟!

إن هداية الناس واستنقاذهم من دركات النار كانت قضية النبي ﷺ التي عاش لها، وارتبطت مشاعره بها؛ فرحُه وحزنُه، غضبُه ورضاه، ولذا يفرح هذا الفرح، ويحمد ربه على هذه النعمة أن بَشَراً قد اهتدى بعد ضلال، ونجا بدعوته من النار، وإن كان ذاك فتى أسلم ثم مات بعدُ من ساعته.

إن المؤثِّرين في دعوتهم هم أولئك الذين ارتبطت دعوتهم بمكامن الإحساس في نفوسهم، وظهر أثر تفاعلهم معها في مشاعرهم ووجدانهم، وهكذا كان رسولُ الله ﷺ.

أما ما ظهر في عيادة هذا المريض من سموِّ التواضع، وحسن العهد، ولين الجانب، ولُطْف الترفُّق، فبعض مشاهد العظمة الأخلاقية لذاك النبي الكريم، ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾.

وذهب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يعوده من مرض اشتد به، فلما دخل عليه وجده وجعاً قد أَشْفَى على الموت[(٢)]، فلما رأى النبيَّ ﷺ بكى، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**مَا يُبْكِيكَ؟**». قال: خشيتُ أن أموت بالأرض التي هاجرتُ منها، كما مات سعدُ بنُ خَوْلة. فقال ﷺ: «**لَا إِنْ شَاءَ اللهُ**». قال: يا رسولَ الله، إنه قد بلغ بي من الوجع ما ترى، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنةٌ لي، أفأتصدَّق

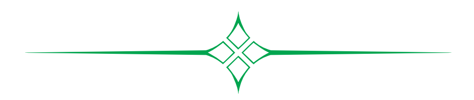
(١) «صحيح البخاري» (١٣٥٦)، و«سنن أبي داود» (٣٠٩٥)، وغيرها.

(٢) أشفى على الموت: اقترب منه، وصار على شفاه أي على حافته. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤٨٩).

بمالي كله؟ قال: «لَا». قال: أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: «لَا». قال: فالشَّطْر. قال: «لَا». قال: فالثلث. قال: «**الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ؛ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ**». قال: يا رسولَ الله، أُخَلَّفُ بعد أصحابي؟ قال: «**عَسَى اللهُ أَنْ يَرْفَعَكَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً صَالِحاً، إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، ثُمَّ لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ**». قال: يا رسولَ الله، فادع الله أن يشفيني. فوضع ﷺ يده على جبهته، ثم مسح وجهه وصدره وبطنه، ثم قال: «**اللّهُمَّ اشْفِ سَعْداً، اللّهُمَّ اشْفِ سَعْداً، اللّهُمَّ اشْفِ سَعْداً وأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ**». قال سعد: فما زلت أجد برد يده ﷺ[1].

فصلوات الله وسلامه وبركاته على هذا النبي الكريم الرؤوف الرحيم، كيف يرعى أصحابه هذه الرعاية، فيمسح بيده الكريمة آلامهم، ويدعو لمرضاهم، ويسكب من سكينة نفسه في نفوسهم؛ فتهدأ وتهنأ.

ثم أعجب أن الصادق المصدوق ﷺ قال لسعد رضي الله عنه: «**لَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ**». فعاش سعدٌ بعدها نصف قرن، وتوفِّي هو ﷺ بعدها بثلاثة أشهر! وأن سعداً الذي كان يقول للنبي ﷺ: ولا يرثني إلا ابنة لي، قد وُلد له بعدها أربعة وثلاثون ابناً وبنتاً[2].



(١) «مسند أحمد» (١٤٤٠)، و«صحيح البخاري» (٢٧٤٢، ٣٩٣٦، ٥٦٥٩)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨)، و«سنن النسائي» (٦٢٨٤).

(٢) ينظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٠٢)، و «سير أعلام النبلاء» (١/ ٩٢).



في بساتين المدينة

وكان ﷺ يذهب إلى بعض بساتين المدينة؛ يُجِمُّ نفسه فيها، ويستظلُّ بظلِّها، ويجلس فيها إلى خاصَّة أصحابه، فكان يذهب إلى بَيْرُحاءَ؛ وهي حديقةٌ لأبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه، فيدخلها ويستظلُّ بها، ويشرب من ماءٍ فيها طيِّبٍ، وكانت مستقبلة المسجد شمالاً منه، وقد دُفنت في زماننا هذا ودخلت الآن في توسعة المسجد النَّبوي الشمالي[١].

ويذهب إلى غيرها من بساتين الأنصار، **ومن ذلك:**

ما حدَّث به أبو هريرةَ رضي الله عنه قال: كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ، معنا أبو بكر وعمر في نفرٍ، فقام رسولُ الله ﷺ من بين أظهرنا، فأَبْطَأَ علينا، وخشينا أن يُقْتَطَع دوننا ـ أي: يصاب بمكروه من عدوٍّ أو غيره ـ ويظهر أن قيامه الفجائي كان لقضاء حاجة الإنسان الطبيعية، وكانت البساتين مكان قضاء الحاجة في النهار لإمكان الاستتار بها، وكان أحب ما يستتر به النبي ﷺ عند حاجته حائش نخل، قال أبو هريرة: وفزعنا، فقمنا، فكنتُ أولَ مَن فزع، فخرجتُ أبتغي رسولَ الله ﷺ، حتى أتيتُ حائطاً للأنصار لبني النَّجَّار، فدرتُ به، هل أجد له باباً؟ فلم أجد، فإذا جدولُ ماء يدخل في جوف الحائط من بئرٍ خارجةٍ فاحْتَفَزْتُ[٢] كما يَحْتَفِزُ الثعلبُ، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، فقال:

---

(١) «مسند أحمد» (١٢٤٣٨)، و«صحيح البخاري» (١٤٦١)، و«صحيح ابن حبان» (٣٣٤٠)، وغيرها.

(٢) أي: تضاممت ليسعني المدخل. ينظر: «إكمال المعلم» (١/ ٢٦٣).

«أَبُو هُرَيْرَةَ؟!». فقلتُ: نعم يا رسولَ الله. فأعطاني نعليه وقال: **«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِناً بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»**[١].

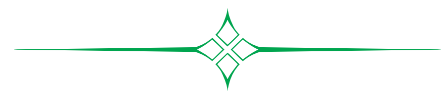
وكان ﷺ إذا ذهب إلى قُباءٍ ذهب إلى بئر أَرِيْسٍ؛ وهي بئر تقع غربي مسجد قُباءٍ، وهي التي وقع فيها خاتم النبي ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه، ولم يمكن إخراجه منها، وقد حفظتها أجيال المسلمين ودول الإسلام، ثم دُفنت في زماننا هذا.

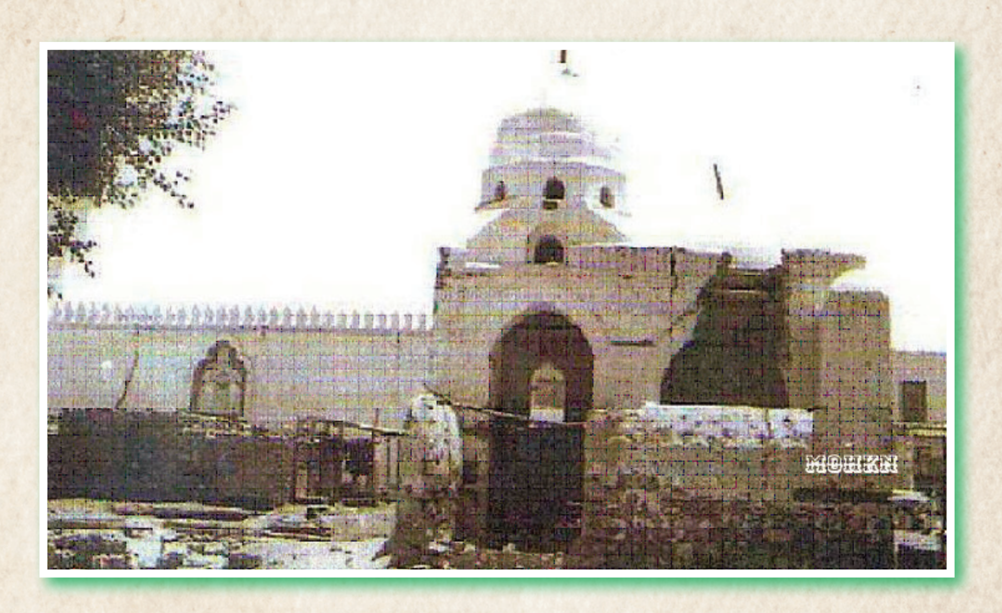
ومن خبرها: ما أخبر به أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه قال: دخل رسولُ الله ﷺ بئرَ أَرِيسٍ، فجلستُ عند الباب، وبابُها من جَرِيدٍ، حتى قضى رسولُ الله ﷺ حاجتَه فتوضَّأ، فقمتُ إليه، فإذا هو جالسٌ على بئر أَرِيسٍ وتوسَّط قُفَّهَا ـ وهي الدَّكَّة المرتفعة حول البئر ـ وكشف ركبتيه ودلَّى ساقيه في البئر، وبيده عودٌ يضربُ به بين الماء والطِّين، فسلَّمتُ عليه ثم انصرفتُ فجلستُ عند الباب، فقلتُ: لأكوننَّ بوابَ رسول الله ﷺ اليوم، ولم يأمُرْني، فجاء أبو بكرٍ رضي الله عنه يستأذنُ، فقال ﷺ: **«ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَةَ»**. فحمِد الله ودخل، وجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه في القُفِّ، ثم جاء عمرُ رضي الله عنه يستأذنُ، فقال ﷺ: **«ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَةَ»**. فحمِد الله ودخل، وجلس مع رسول الله ﷺ في القُفِّ عن يساره، ثم جاء عثمانُ رضي الله عنه يستأذنُ، فقال ﷺ: **«ائْذَنْ لَهُ، وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَةَ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ»**. فجئتُه فقلتُ له: ادْخُل، وبشَّرك رسولُ الله ﷺ بالجنة، على بلوى تصيبك. فحمِد الله، ثم قال: الله المستعان، اللهمَّ صبراً. ودخل فوجد القُفَّ قد مُلِئ فجلس وِجَاهَهُم من الشِّقِّ الآخر، وسوى رسول الله ﷺ ثيابه، وغطَّى ركبتيه[٢].

(١) «صحيح مسلم» (٣١)، و«مسند البزار» (٩٣٨٨)، و«صحيح ابن حبان» (٤٥٤٣)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٦٧٤، ٣٦٩٥)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٣)، و«سنن أبي داود» (٤٢١٨)، وغيرها.

وفي ذهابه ﷺ إلى بساتين المدينة إجمامٌ للنفس واستبراد بظل شجرها عن حر المدينة اللافح، وتطرية للحياة، وتجديد لوتيرة النشاط اليومي، وإيناس لأصحاب هذه البساتين أن يروا رسولَ الله ﷺ يأوي إلى حوائطهم؛ فيصيبها من بركته وطهوره، وهو المبارك حيثما وُجِدَ ﷺ.





صورة قديمة لبئر أريس أو بئر الخاتم قبل إزالتها



راحة القيلولة

يذهبُ رسولُ الله ﷺ إذا تعالى الضحى إلى بيت زوجته التي هو عندها وفي يومها، فإذا دخل بيته كان أول شيء يفعله عند الدخول السِّواك والسَّلام على أهل البيت(١)، ثم يصلِّي صلاة الضُّحى أربع ركعات، وربما زاد فصلَّاها ستّاً أو ثمانياً(٢).

وإن صادف طعاماً أصاب منه، إذا لم يكن طَعِم في الصباح، وقد يُعرض عليه الطعام وهو صائمٌ فيُفطر، فقد قالت له عائشةُ رضي الله عنها يوماً: يا رسولَ الله، أُهديت لنا هديةٌ، أو جاءنا زائرٌ، وقد خبأتُ لك شيئاً. قال: «**وَمَا هُو؟**». قالت: حَيْسٌ(٣). قال: «**هَاتِيه**». فجاءت به فأكل، ثم قال: «**قَدْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ صَائِماً**»(٤).

وقالت: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَبُرْمَةٌ عَلَى النَّارِ، فَقُرِّبَ إِلَيْهِ خُبْزٌ وَأُدْمٌ مِنْ أُدْمِ البَيْتِ، فَقَالَ: «**أَلَمْ أَرَ البُرْمَةَ؟**». فَقِيلَ: لَحْمٌ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ، وَأَنْتَ لَا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، قَالَ: «**هُوَ عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، وَلَنَا هَدِيَّةٌ**»(٥).

---

(١) ينظر: ما تقدم في دخوله ﷺ على نسائه أول النهار في «الصباح النبوي».

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٤٥٦، ٢٥٣٤٨)، و«صحيح البخاري» (١١٧٦)، و«صحيح مسلم» (٣٣٦)، و«الفتح» (٣/ ٥٤).

(٣) سبق شرحه.

(٤) ينظر ما تقدم في دخوله ﷺ بيوته أول النهار في «**الصباح النبوي**».

(٥) «صحيح البخاري» (٥٠٩٧)، «صحيح مسلم» (١٠٧٥)، وغيرها.

ويا لله ما وقع هذا الاستهداء في نفس بريرة وهي المولاة الخادمة في البيت فإذا رسول الله ﷺ يأكل من طعامها، ويتقبله هدية منها.

وفي دخوله هذا رأى زوجته جُويرية رضي الله عنها في مصلَّاها تذكرُ الله، وكان قد دخل عليها في الصباح وهي على حالها تلك، فقال: «**مَا زِلْتِ عَلى حَالِكِ الّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْها؟**». قالت: نعم. قال: «**لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ**»[(١)].

وكانت هذه ساعة خلوته في بيته مع أهله.

ولأنه في هذا الوقت غالباً يكون في بيته وعند أهله تأتيه بعض نساء المؤمنات يسألنه عن أمور دينهن، مما لا يجرُؤْنَ على السؤال عنه أمام الرجال، ويكون السؤال بمحضر أمهات المؤمنين، فحفظن للأمة هذه الفتاوى النبوية في خاصة أمور النساء.

ومن ذلك: أن إحدى نساء الأنصار أتته عند عائشة رضي الله عنها، فسألته عن غسل المحيض، فقال: «**تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا، فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهُ دَلْكاً شَدِيداً حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً**[(٢)] **فَتَطَهَّرُ بِهَا**». فقالت المرأة: وكيف تطَهَّرُ بها؟ فقال: «**سُبْحَانَ اللهِ! تَطَهَّرِينَ بِهَا**». واستحى وأعرض، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما رأيتُه استحى جذبتها إليَّ، فقلتُ: تتبَّعي بها أثر الدم، وهو يسمع ولا ينكر[(٣)].

وأتته أم سُليم وهو عند زوجته أم سَلَمة رضي الله عنها، فقالت: يا رسولَ الله، أرأيتَ إذا رأتِ المرأةُ أن زوجَها يجامعها في المنام، أتغتسل؟ فقالت أم سَلَمة: تَرِبَتْ يداك

---

(١) ينظر: ما تقدم في دخوله ﷺ على جويرية رضي الله عنها أول النهار في «**الصباح النبوي**».

(٢) أي: قطعة قطن تُطيَّب بالمسك. ينظر: «معالم السنن» (١/ ٩٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٣١٤)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢)، و«سنن أبي داود» (٣١٤)، وغيرها.

يا أم سُليم، فَضَحْتِ النساءَ عند رسول الله ﷺ! وذلك أن النساء يتظاهرن بأن هذا الأمر لا يعنيهن. فقالت أم سُليم: إن الله لا يستحي من الحق، وإنا إن نسأل النبيَّ ﷺ عمَّا أَشْكَلَ علينا، خيرٌ من أن نكون منه على عَمْيَاء! فقال النبيُّ ﷺ لأُمِّ سَلَمَةَ منتصراً لأمِّ سُليم: «**بَلْ أَنْتِ تَرِبَتْ يَدَاكِ، إِنَّ خَيْرَكُنَّ الَّتِي تَسْأَلُ عَمَّا يَعْنِيهَا، نَعَمْ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، عَلَيْهَا الْغُسْلُ إِذَا وَجَدَتِ الْمَاءَ**». فقالت أم سلمة: يا رسولَ الله، وهل للمرأة ماء؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**فَأَنَّى يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟ هُنَّ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»[١].

وقد كان لنساء الأنصار رضي الله عنهن جرأة في السؤال والاستيضاح، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: نِعْمَ النساءُ نساءُ الأنصار؛ لم يمنعهنَّ الحياءُ أن يتفقهن في الدين[٢].

ولا تكون هذه الزيارات إلا لأمر خاص لا يحسن عرضه على النبي ﷺ في مجلسه العام في المسجد، أو لأمر طارئ لا يحتمل التأجيل، وعادة أن من أتى لذلك لا يستأنس ولا يطيل الجلوس.

فحتى وقت راحته وقيلولته وخلوته بأهله هي ساعة تعليم ودعوة وإجابة سؤال، إنها حياة أوقفت لله، فصلى الله على هذا النبي الكريم.

وربما زاره في هذا الوقت بعض خاصة أصحابه؛ لأمر يعرض لهم:

ومن ذلك: أن رسولَ الله ﷺ كان في بيته مضْطَجِعاً على فراشه، لابساً مِرْطاً لعائشة[٣]، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فاستأذن، فأَذِن له، وهو على تلك الحال، فقَضَى إليه حاجته ثم انصرف، قالت عائشة: وهو معي في المِرْط، ثم جاء عمرُ رضي الله عنه، فاستأذن، فأَذِن له، وهو على تلك الحال،

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٠٩١، ٦١٢١)، و«صحيح مسلم» (٣١٠-٣١٤)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٠)، و«صحيح مسلم» (٣٣٢)، وغيرها.

(٣) المِرْط: ثوب يلبسه الرجال والنساء، يكون إزاراً، ويكون رداءً. ينظر: «النهاية» (٤/ ٣١٩).

فقَضَى إليه حاجته ثم انصرف، ثم جاء عثمانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فاستأذن، فجلس صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وسوَّى عليه ثيابه، ثم أَذِن له فدخل، وتحدَّث إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وقضى إليه حاجته، ثم انصرف، فقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يا رسولَ الله، دخل أبو بكر، فلم تهتشَّ له[1] ولم تُبَالِه، ثم دخل عمرُ فلم تَهْتَشَّ له ولم تُبَالِهِ، ثم دخل عثمانُ فجلست وسوَّيت عليك ثيابك؟! فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **«أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ؟! إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ»**[2].

أَمَّا إذا خلا مع زوجته في بيته، فقد وصفت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حاله تلك، فقالت: كان إذا خلا في بيته مع أهله ألينَ الناس، وأكرمَ الناس، كان رجلاً من رجالكم، إِلَّا أنه كان ضَحَّاكاً بَسَّاماً، وما كان إِلَّا بشراً من البشر، كان يكون في مِهْنة أهله ـ أي: خدمة أهله ـ يخصف نعلَه، ويخيط ثوبَه، ويحلُب شاته، ويخدُم نفسه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته[3].

ومن ذلك: ما ذكرته عَائِشَة قَالَتْ: أُهْدِيَ لَنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ رِجْلُ شَاةٍ مِنْ بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ: وَاللهِ إِنِّي لَأُمْسِكُهَا عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحُزُّهَا أَوْ أَمْسَكَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَحُزُّهَا، فقيل لها: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، عَلَى مِصْبَاحٍ ذَاكَ؟ قَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا دُهْنُ مِصْبَاحٍ لَأَكَلْنَاهُ، إِنْ كَانَ لَيَأْتِي عَلَى آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الشَّهْرُ مَا يَخْتَبِزُونَ فِيهِ خُبْزاً، وَلَا يَطْبُخُونَ فِيهِ[4].

(١) الهشاشة والبشاشة بمعنى طلاقة الوجه وحسن اللقاء، والمراد: لم تهتم لدخوله فتُغَيِّر من هيئتك. ينظر: «النهاية» (٥/ ٢٦٤).

(٢) «مسند أحمد» (٥١٤، ٢٥٢١٦، ٢٥٣٣٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠١، ٢٤٠٢)، وغيرها.

(٣) «مسند إسحاق بن راهويه» (١٧٥٠)، و«مسند أحمد» (٢٥٣٤١)، و«صحيح البخاري» (٦٧٦، ٥٣٦٣)، و«جامع الترمذي» (٢٤٨٩)، وغيرها.

(٤) «المعجم الأوسط» للطبراني (٨٨٧٢).

إن هذا مشهد من مشاهد التمازج الزوجي في حياة النبي ﷺ، فلم يكن في بيته الذي كان غُرفةً واحدة متقاربة الجُدُر ما يُحْوِجُ أهلَه إلى معونة، حتى يكون في مِهْنة أهله، ولكنها العظمة الأخلاقية، حيث يشارك أهلَه مهنتَهُم؛ ليشعرهم أن البيتَ بيتُهم جميعاً، كما أن الحياةَ حياتُهم جميعاً.

كم في هذه اللفتة النبوية من رسائل الاهتمام الزوجي والحفاوة بالحياة الزوجية! فصلَّى الله على مَن كان **خيرَ الناس للناس، وخيرَ الناس لأهله.**

وكما كان في بيته ومع أهله مساحة واسعة للوُدِّ والرحمة، ففيه مساحة واسعة للأنس والبهجة، وعفوية الحياة ولهوها، فها هي سَوْدة تزور عائشة رضي الله عنهما يوماً في حُجرتها، فجلسَ رسولُ الله بينها وبين عائشة، ووضع إحدى رجليه في حِجر عائشة ورجله الأخرى في حِجر سَوْدة، وكانت عائشةُ قد عملت حَرِيرةً[1] فقالت لسَوْدَةَ: كُلي. فأبت وقالت: لا أشتهي ولا آكُلُ. قالت: لتأكلي أو لأُلَطِّخَنَّ وجهك. فأبت، فأخذت بكفِّها شيئاً من القصعة، فلطَّخت به وجهها، فضحك رسولُ الله ﷺ، ورفع رجله من حِجْر سَوْدة؛ كي تَسْتَقِيدَ منها[2]، ووضعَ بيده لها، وقال: «**الْطَخِي وَجْهَهَا**». فأخذت من القصعة شيئاً، فلطَّخت به وجهَ عائشةَ ـ وكانت بينهما ملاطفة ـ ورسولُ الله ﷺ يضحك من صنيعهما، وبينما هم يضحكون جميعاً، وانفعالات الفرح الصاخب تُدَوِّي في الحجرة النبوية، إذ سمعوا صوت عمر رضي الله عنه ينادي في المسجد: يا عبدَ الله ابن عمر، يا عبدَ الله بن عمر. فقال ﷺ: «**قُومَا فَاغْسِلَا وُجُوهَكُمَا؛ فَلَا أَحْسبُ عُمَرَ إِلَّا دَاخِلاً**». فجاء عمرُ فقال: السلامُ عليك أيها النبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُهُ،

(١) أي: حساء الدقيق. ينظر: «غريب الحديث» للخطابي (٢/ ٥٣).

(٢) أي: تنتصر لنفسها منها. ينظر: «لسان العرب» (١٢/ ٢١٥).

السلامُ عليكم، أَأَدْخُلُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «**ادْخُلْ ادْخُلْ**»[١].

لقد كان هذا التآنس والتهازل حَرَاكاً في مساحة السَّعة الواسعة التي جعلها رسولُ الله ﷺ ميداناً للحياة؛ «**إِنَّ فِي دِينِنا فُسْحَةً**»[٢].

ومن اللهو الجميل في بيت النبوة ما حدَّثَتْ به عائشة رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي أَيَّامِ مِنىً وَعِنْدِي جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تَضْرِبَانِ بِدُفَّيْنِ، وَتُغَنِّيَانِ بِمَا تَقَاوَلَتْ بِه الْأَنْصَارُ يَوْمَ بُعَاثَ، فَاضْطَجَعَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ وَتَسَجَّى بِثَوْبِهِ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَانْتَهَرَهُمَا وَقَالَ: أَمَزَامِيرُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ الله ﷺ؟ فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ عَنْ وَجْهِهِ وَقَالَ: «**دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامُ عِيدٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً، وَهَذَا عِيدُنَا**»[٣].

وكان ينام القَيْلولةَ إلى قريب صلاة الظهر، وكانت قَيْلُولته في بيوته وعند أزواجه، ولم يكن يدخل على أحد من النساء إلَّا على أزواجه، عدا أُمَّ سُليم وأختها أم حرام؛ فإنه كان يدخل عليهما ويَقِيل عندهما، وهما من محارمه[٤]، فقيل له في ذلك عن أم سليم، فقال: «**إِنِّي أَرْحَمُهَا؛ قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي**»[٥].

وربما دخل ونام على فراشها، وليست في بيتها، فأُتيت يوماً، فقيل لها: هذا النبيُّ ﷺ نائمٌ على فراشك. فجاءت، وذاك في الصيف، وقد عَرِقَ النبيُّ

---

(١) «مسند أبي يعلى» (٤٤٧٦)، و«سنن النسائي» (٨٨٦٨)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (٢٤٨٥٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٤٩، ٩٥٢)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، وغيرها.

(٤) اتفق العلماء على أن دخوله ﷺ عليهما كان للمحرمية بين أم سليم وأختها ورسول الله ﷺ، واختلفوا في سبب المحرمية، من نسب أو رضاع، أم هي خصوصية له ﷺ. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٣/ ٥٧-٥٨)، (١٦/ ١٠)، و«الفتح» (٩/ ٢٠٣)، (١١/ ٧٨-٨٠).

(٥) «صحيح البخاري» (٢٨٤٤)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٥)، و«مسند البزار» (٦٤٣٢)، وغيرها.

ﷺ، حتى استنقع عَرَقُه على قطعة أَدِيم[١] على الفراش، فجعلت تُنَشِّف ذلك العرق وتعصِرُه في قارورةٍ، فاستيقظ وهي تصنع ذلك، فقال: «**مَا تَصْنَعِينَ يَا أُمَّ سُلَيْم؟**». قالت: يا رسولَ الله، عرقك أجعله في طِيْبي، وأرجو بركتَه لصبياننا، قال: «**أَصَبْتِ**». ودعا لها بدعاء حسن[٢].

ونوم القيلولة لتجديد الراحة والنشاط بقية النهار، ومعونة على قيام الليل.

(١) الأديم هو: جلد مدبوغ. ينظر: «النهاية» (١/ ٣٢).

(٢) «مسند أحمد» (١٣٣١٠، ١٣٣٦٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٣١، ٢٣٣٢)، وغيرها.



رسم تخيلي آخر للبيت النبوي، يظهر فيه الستر بينه وبين المسجد



إلى قُباءٍ

وكان يذهب ضحى كل سبت راكباً وماشياً إلى قُبَاءٍ، فيصلِّي في المسجد، وربما أتى إليه أهلُ قُباءٍ ـ وهم بنو عوف بن الحارث ـ فيسلِّمون عليه وهو يصلِّي، فيشيرُ إليهم[(١)].

وهذا التعاهد الأسبوعي لقُباءٍ وأهل قُباءٍ هو من حسن العهد منه ﷺ، فهو يزور المكان الذي أوى إليه أول ما قدم المدينة، فيزور أول أناس نزل عندهم ويصلي في أول مسجد بناه وصلى فيه، ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾.

فإذا ذهب إلى قُباءٍ فإنه ينام القيلولة عند أم حَرَام بنت مِلْحَان أخت أم سُليم وزوجة عبادةَ بن الصامت رضي الله عنهم، وهي من محارمه ﷺ[(٢)].

فدخل عليها يوماً، فأطعمته وجعلت تَفْلِي رأسه، وكان أوفى الناس جمة وأكثرهم شَعراً، وكان أنظف الناس وأبعدهم عن ما يستقذر ولكن لخلطته للأعراب ومن يسأله ويدنو منه ربما علق به مما فيهم ما يحتاج إلى تنظيفه بعناية، ولذلك كانت أم حرام وأم سليم تفليان رأسه. فنام رسولُ الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: وما يضحكك يا رسولَ الله؟ قال: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ**[(٣)] **مُلُوكاً عَلَى الْأَسِرَّةِ**». قالت:

(١) «صحيح البخاري» (١١٩٣)، و«صحيح مسلم» (١٣٩٩)، و«سنن أبي داود» (٩٢٧، ٢٠٤٠)، وغيرها.

(٢) ينظر: ما تقدم في دخوله ﷺ على أم سليم رضي الله عنها في «الزيارات النبوية».

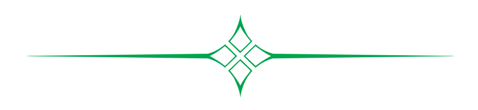
(٣) أي: وسط البحر، أو ظهر البحر. ينظر: «النهاية» (١/ ٢٠٦).

يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم. فقال لها: «**أَنْتِ مِنْهُمْ**». ثم وضع رأسه، ثم استيقظ وهو يضحك، فقالت: وما يضحكك يا رسولَ الله؟ قال: «**نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ**». كما قال في الأول، قالت: يا رسولَ الله، ادْعُ اللهَ أن يجعلَني منهم. قال: «**أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ**». فَتَزَوَّجَهَا عُبَادَةُ بن الصَّامِتِ بَعْدُ، فَغَزَا في الْبَحْرِ فَحَمَلَهَا معه، فلما قفلت قُرِّبَتْ لَهَا بَغْلَةٌ فَرَكِبَتْهَا فَصَرَعَتْهَا، فَانْدَقَّتْ عُنُقُهَا[١]، فتُوفِّيت شهيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في زمان معاويةَ بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ودفنت في قبرص[٢].

ويا لله لهذه البشائر النبوية.. يلقيها النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وهو في بُليدة في حاشية الجزيرة، على حالٍ من القِلَّة والعَيْلة، فيُبَشِّر بأنَّ أمته ستركب بحر الرومَ (البحر الأبيض المتوسط)، وهو البحر الأبعد عن المدينة، في حال قوة واعتزاز، كالملوك على الأَسِرَّة.

وما كان العرب أهل ركوب للبحر، فضلاً عن أن يكونوا من المحاربين فيه!

لا تدري ممَّ تعجب: أمن هذه البُشرى النبوية التي تجاوزت حدود الإمكانات والتوقعات والظروف المحيطة؟! أم من هذا اليقين في تلقِّي البشرى من أم حَرَام رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؟! فهي لم تسأل: كيف ذلك ونحن كذلك؟ ومتى سيكون ذلك؟ وإنما بادرت قائلة: ادْعُ الله أن يجعلني منهم. وكأنَّ المشهد منها رأي العين.



(١) ينظر: «مسند أحمد» (١٣٥٢٠)، و«صحيح البخاري» (٢٧٨٨، ٧٠٠١)، و«صحيح مسلم» (١٩١٢).

(٢) ينظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٦/ ٣٤٧٩).



صورة قديمة لمسجد قباء تحفه بساتين النخيل



صورة حديثة لمسجد قباء بعد تجديده





أُمسيات[١] الرسول ﷺ

فإذا زالت الشمس أَذَّن بلالٌ للظهر، فيستيقظ ﷺ من قيلولته إن كان لا يزال نائماً، ويُجيب المؤذِّنَ بمثل ما يقول[٢]، ويتوضَّأ إن كان به حاجة إلى وُضوء، ثم يصلِّي في بيته أربع ركعات[٣]، وكان يقول: «**إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَأُحِبُّ أَنْ يَصْعَدَ لِي فِيهَا عَمَلٌ صَالِحٌ**»[٤].

ثم ينتظر الصلاةَ في بيته، وربما كان عنده بعض بنيه، كالحسن والحسين، ابني فاطمة، أو أُمامةَ ابنة ابنته زينب؛ فيلاعبهم حتى يؤذنَه بلالٌ رضي الله عنه بالصلاة فيخرج[٥].

وربما قبَّل إحدى زوجاته وهو خارج إلى الصلاة[٦]، فإذا كان وهو متوضئ وخارج للصلاة يقبِّل زوجته فكيف به معها في حال أُنسه وسعة وقته؟

فإذا خرج أقام بلالٌ رضي الله عنه الصلاةَ، وقام الصحابةُ رضي الله عنهم إذا رَأَوْهُ[٧].

---

(١) المساء من بعد الظهر إلى غروب الشمس، وقيل إلى نصف الليل. ينظر: «لسان العرب» (١٥/ ٢٨١).

(٢) ينظر: ما تقدم في استيقاظه ﷺ بعد الفجر في «أنوار الفجر».

(٣) «مسند أحمد» (٢٤٠١٩)، و«صحيح مسلم» (٧٣٠)، و«سنن أبي داود» (١٢٥١)، وغيرها.

وقد ورد أنه كان يصلِّي ركعتين، ولم يُذكر أنه صلاهما في بيته.

ينظر: «صحيح البخاري» (٩٣٧، ١١٧٢)، و«صحيح مسلم» (٧٢٣، ٧٢٩)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (٢٣٥٥١)، و«جامع الترمذي» (٤٧٨)، وغيرها.

(٥) ينظر: «قصص نبوية» للمؤلِّف (ص٢١٧ - ٢٢٠/ «أمامة»).

(٦) «مسند أحمد» (٢٥٧٦٦)، و«سنن أبي داود» (١٧٩)، و«جامع الترمذي» (٨٦)، وغيرها.

(٧) ينظر: ما تقدم في صلاة الصبح في «أنوار الفجر».

وربما فَجَأهُم منظرُه خارجاً إليهم حاملاً الحسن أو الحسين عليهما السلام، أو حاملاً ابنته أُمامةَ على رقبته، وربما وضع الصبيَّ وصلَّى وهو إلى جانبه.

ومن ذلك: أنه خرج مرة، وهو حامل الحسن أو الحسين، فتقدَّم فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلَّى، فسجد في أثناء صلاته سجدة أطالها، فرفع شدادُ بن الهاد رضي الله عنه رأسَه، فإذا الصبيُّ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو ساجد، فلما قضى رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاتَه قال الناسُ: يا رسولَ الله، إنك سجدتَ سجدةً أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمرٌ، أو أنه يُوحَى إليك! قال: «**كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ**»[1].

وإنما صعد الصبي ظهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سجوده لأنه اعتاد ذلك، فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ساجداً حسب أن هذه من أحوال اللهو معه فارتحل ظهر أبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وثبت له النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأطال سجوده حتى لا يعجله.

وخرج مرة وأُمامة ابنة بنته زينب على عاتقه فصلى والطفلة على حالها، إذا ركع وضعها، وإذا قام رفعها[2].

إن انشغال النبي صلى الله عليه وآله وسلم بابنه وابنته في صلاته جمع لعبادتين في آن واحد، فرحمة العيال عبادة، والصلاة عبادة، كما هو تعليم لأمته الرحمة بالطفولة، وإغداق الحب والحنان على الذرية.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يصلِّي الظهرَ في أول وقتها، ويقرأ في الركعتين الأُوليين منها في كل ركعة بنحو ثلاثينَ آيةً، ويطوِّل الركعة الأُولى ويُقصِّر في الثانية، ويقرأ في الأُخريين قدرَ النصف من ذلك[3].

---

(١) «مسند أحمد» (١٦٠٣٣، ٢٧٦٤٧)، و«سنن النسائي» (٧٣١)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٥١٦)، و«صحيح مسلم» (٥٤٣)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٧٥٩، ٥٦٥)، و«صحيح مسلم» (٤٥٢، ٦١٨)، وغيرها.

وربما أطالها أحياناً حتى إن الصلاةَ تُقامُ، فيذهبُ الذاهبُ إلى البَقِيع، فيقضي حاجته، ثم يذهبُ إلى أهله فيتوضَّأ، ثم يأتي ورسولُ الله ﷺ في الركعة الأولى؛ مما يطوِّلُها[١]، وذلك لما يعلم من نشاط أصحابه ورغبتهم في إطالة الصلاة معه.

وكان يُسِرُّ القراءةَ في صلاته، فيَعرفون قراءتَه باضطراب لحيته، وربما سمعوا منه الآيةَ والآيتين أحياناً[٢].

فَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ النَّغَمَةَ فِي الظُّهْرِ بِـ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾[٣].

فإذا فرغ من صلاته أقبل على أصحابه، فإن كان قد نزل أمرٌ أو عَرَضَ عارضٌ خطَبَ الناسَ بعد صلاة الظهر؛ لأنها وقت اجتماع الناس ونشاطهم؛ إذ هم قد نهضوا من قيلولتهم، فالاجتماع فيها أكثر، والنفوس جامَّة مستريحة واعية لما يقال.

ومن ذلك: خطبته عندما قدم عليه وفدُ المُضَريِّين، فرأى ما بهم من الجوع والفاقة، فتأثر لحالهم، وصعد المنبر، وخطب بعد صلاة الظهر، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ». حتى قال: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ». فحثَّ الناسَ على الصدقة ورغَّبهم فيها[٤].

(١) «مسند أحمد» (١١٣٠٧)، و«صحيح مسلم» (٤٥٤)، و«سنن ابن ماجه» (٨٢٥)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٧٤٦)، و«صحيح مسلم» (٤٥١)، و«سنن أبي داود» (٨٠١)، وغيرها.

(٣) «صحيح ابن خزيمة» (٥١٢).

(٤) ينظر: ما تقدم في مجلسه ﷺ بعد صلاة الصبح في «المجلس النبوي».

ومن ذلك: خطبته يوم قدم عليه ابن اللُّتْبِيَّةِ من سِعاية كان قد ولّاه عليها، فقال: يا رسولَ الله، هذا لكم، وهذا أُهْدِي لي. فخطب الناسَ بعد صلاة الظهر، فتشهَّدَ وحَمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ؟! وَالذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَأَعْرِفَنَّ أَحَداً مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيراً لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**[١] **يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَقُولُ: قَدْ بَلَّغْتُكَ**». ثم رفع يدَيه حتى رُؤي بياضُ إبطيه، يقول: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغتُ؟ اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**»[٢].

وصلَّى الظهرَ مرَّةً، فلما سلَّم قام على المنبر، فذكر الساعةَ، وذكر أن قبلها أموراً عظاماً، ثم قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَسْأَلَنِي عَنْ شَيْءٍ فَلْيَسْأَلْنِي عَنْهُ، فَوَاللهِ لَا تَسْأَلُونَنِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ مَا دُمْتُ فِي مَقَامِي هَذَا**». فأكثَرَ الناسُ البكاءَ، وأكثَرَ رسولُ الله ﷺ أن يقول: «**سَلُونِي**». فقام عبدُ الله بنُ حُذَافةَ السَّهْميُّ رضي الله عنه، فقال: يا رسولَ الله، مَن أبي؟ وكان إذا خاصم يُدعى إلى غير أبيه، قال: «**أَبُوكَ حُذَافَةُ**». ثم أكثر أن يقول: «**سَلُونِي**».

فبرك عمر على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً، نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، فسكت رسولُ الله ﷺ حين قال عمرُ ذلك، ثم قال: «**أَوْلَى**[٣]**، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَقَدْ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ**

(١) الرغاء: صوت صياح الإبل. والخوار: صوت البقر والغنم. وتيعر: تصيح بشدة. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٤٠)، (٢/ ٨٧)، (٥/ ٢٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٥٩٧، ٦٦٣٦)، و«صحيح مسلم» (١٨٣٢)، وغيرها.

(٣) هي كلمة تهديد ووعيد، ومعناها: قرب منكم ما تكرهونه. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/ ٥٠٢-٥٠٣).

وَالنَّارُ آنِفاً فِي عُرْضِ هَذَا الْحَائِطِ، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً». فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أَشَدُّ منه، غَطَّوْا رؤوسَهُم ولهم خَنِين[١].

وخطب بعد الظهر في اليوم الذي رُجِم فيه ماعزٌ رضي الله عنه، فصَعِدَ المنبرَ، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه، ثم قال: «**أَوَ كُلَّمَا نَفَرْنَا غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ تَخَلَّفَ رَجُلٌ فِي عِيَالِنَا، لَهُ نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ**[٢]**، يَمْنَحُ إِحْدَاهُنَّ الْكُثْبَةَ مِنَ اللَّبَنِ؟**[٣]**، وَاللهِ وَاللهِ، لَا أُوتَى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِهِ**». ولم يستغفر له ولم يَسُبَّه[٤].

وكأنَّ هذه الخطب في هذا الوقت تكون في الأمر العارض والشأن العاجل الذي لا يحتمل التأخير إلى يوم الجمعة.

ثم يعود ﷺ إلى بيته، فيصلِّي ركعتين، هي راتبة الظهر[٥].

ثم يخرج ﷺ إلى أصحابه، وربما جلس لهم إلى العصر، كما حبس نفسه لوفد عبد القَيْس من صلاة الظهر إلى صلاة العصر[٦].

وكان هذا الوقت وقت استئناف العمل وليس وقت نوم لأن الحرارة تنكسر بعد الزوال، ولذا يذهب أحياناً في هذا الوقت لقضاء بعض حاجات المسلمين؛ فقد بلغه مرةً أن أهل قُباءٍ؛ بني عَمرو بن عوف كان بينهم شرٌّ، وأنهم اقتتلوا، حتى ترامَوْا بالحجارة، فصلَّى الظهر، ثم قال لأصحابه: «**اذْهَبُوا بِنَا حَتَّى نُصْلِحَ بَيْنَهُمْ**». وقال لبلال رضي الله عنه: «**إِذَا حَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ وَلَمْ آتِ، فَمُرْ أَبَا بَكْرٍ**

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٢، ٩٣، ٥٤٠، ٧٠٨٩، ٧٢٩١)، و«صحيح مسلم» (٢٣٥٩)، وغيرها.

والخنين: رفع الصوت بالبكاء والنحيب. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٥).

(٢) النبيب: صوت التيس عند الجماع. ينظر: «النهاية» (٥/ ٤).

(٣) أي: القليل منه. ينظر: «النهاية» (٤/ ١٥١).

(٤) «مسند أحمد» (٢٠٨٠٣)، و«صحيح مسلم» (١٦٩٢، ١٦٩٤)، و«سنن أبي داود» (٤٤٢٢)، وغيرها.

(٥) ينظر: ما تقدم في صلاته ﷺ أربع ركعات قبل الظهر في «أمسيات الرسول ﷺ».

(٦) ينظر: ما سيأتي في صلاته ﷺ ركعتين بعد العصر في «والعصر».

فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ». فلما حضرت العصرُ أَذَّنَ بلالٌ، فلما حانت الصلاةُ، ولم يأت النبيُّ ﷺ جاء إلى أبي بكر، فقال: يا أبا بكر، إن رسولَ الله ﷺ قد حُبِس وحانت الصلاةُ، فهل لك أن تَؤُمَّ الناس؟ قال: نعم، إن شئتَ. فأقام بلالٌ، وتقدَّم أبو بكر، فكبَّر وكبَّر الناسُ، وجاء رسولُ الله ﷺ يمشي في الصفوف، حتى قام في الصفِّ، فأخذَ الناسُ في التصفيق، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثرَ الناسُ التصفيقَ التفت، فإذا رسولُ الله ﷺ، فذهب يتأخَّر، فأشار إليه رسولُ الله ﷺ، أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر يديه إلى السماء، فحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه على ما أمره به رسولُ الله ﷺ، ثم استأخر حتى قام في الصف، فتقدَّم رسولُ الله ﷺ، فصلَّى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «**مَا لَكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيْءٌ فِي الصَّلَاةِ أَخَذْتُمْ فِي التَّصْفِيقِ، إِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ، مَنْ نَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلَاتِهِ فَلْيَقُلْ: سُبْحَانَ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ حِينَ يَقُولُ سُبْحَانَ اللهِ إِلَّا الْتَفَتَ. يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ لِلنَّاسِ حِينَ أَشَرْتُ إِلَيْكَ؟**». فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قُحافَةَ أن يصلِّي بين يدي رسول الله ﷺ[(١)].

ومن ذلك: ذهابه إلى الأَسْواف شمال البَقِيع، عند بنات سَعد بن الرَّبيع رضي الله عنهم، يَقْسِم بينهن ميراثهن من أبيهن، وكُنَّ أولَ نسوة وَرِثنَ من أبيهن في الإسلام، فذهب إليهم ضحىً، فأُتِي بغَداء من خبز ولحم قد صُنع له، فأكل رسولُ الله ﷺ وأكل القومُ معه، ثم توضَّأ للظهر وتوضَّأ القوم معه، ثم صلَّى بهم الظهر، ثم قعد في ما بقي من قسمته لهنَّ حتى حضرت صلاة العصر وفرغ من أمره منهن، فردوا إليه فضل غَدائه من الخبز واللحم، فأكل وأكل القوم معه، ثم نهض فصلَّى بهم، ولم يتوضأ، ولا أحد من القوم[(٢)].

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٤، ١٢١٨)، و«صحيح مسلم» (٤٢١)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٥٠٢٠)، و«سنن أبي داود» (٢٨٩١)، و«جامع الترمذي» (٢٠٩٢)، وغيرها.



والعصـر

وكان إذا أُذِّنَ لصلاة العصر، انتظر حتى يجتمع الناسُ لها، فإذا اجتمعوا خرج فصلَّى العصرَ، وكان يصلِّيها في أول وقتها والشمسُ حيَّة، حتى قال أنسٌ رضي الله عنه: ما كان أحدٌ أشدَّ تعجُّلاً لصلاة العصر من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1]. وكان يجعل قراءته فيها على النصف من صلاة الظهر[2].

فإذا فرغ من صلاته أقبل على أصحابه، فإن كان ثَمَّ حديثٌ يريد أن يحدِّثهم حدَّثهم، فقد أقبل عليهم مرةً بعد انصرافه من صلاة العصر، فقال: «**مَا أَدْرِي أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ أَوْ أَسْكُتُ؟!**». فقالوا: يا رسولَ الله، إن كان خيراً فحدِّثنا، وإن كان غير ذلك، فاللهُ ورسولُه أعلم. قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كُتِبَ عَلَيْهِ، فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهُنَّ**»[3].

وكان حديثُه إلى أصحابه بعد صلاة العصر قليلاً ومختصراً بالنسبة لحديثه بعد صلاة الظهر؛ وذلك لكَلَالِ الناس، وحاجتهم إلى الانصراف لإكمال أعمالهم، وإعداد عَشائهم.

---

(١) «مسند أحمد» (١٣٤٨٢)، و«صحيح البخاري» (٥٤١، ٥٦٥)، و«صحيح مسلم» (٦٤٦، ٦٤٧).

(٢) ينظر: ما تقدم في قراءته صلى الله عليه وآله وسلم في صلاة الظهر في «أمسيات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم».

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٧٦٤٨)، و«صحيح مسلم» (٢٣١)، وغيرها.

فإذا انصرف من صلاة العصر دخل على نسائه، فيطوفُ عليهنَّ جميعاً، فيدنو من كل امرأة منهن في مجلسه، فيُقبِّل ويمس ما دون الوقاع، حتى ينتهي إلى التي هو يومها، فيبيت عندها[١].

وكان ﷺ إذا دخل بيته بعد صلاة العصر صلَّى ركعتين، مع أنه كان يَنْهَى عن الصلاة بعد العصر، وذلك أن وفد عبد القَيْس أَتَوْا إليه ﷺ بالإسلام من قومهم، فشغلوه عن الركعتين اللتين بعد الظهر، فقضاهما بعد العصر، ثم أثبتهما، وكان إذا صلَّى صلاةً أثبتها، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: وَالَّذِي ذَهَبَ بِهِ، مَا تَرَكَهُمَا ـ تَعْنِي الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ العَصْرِ ـ حَتَّى لَقِيَ اللهَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّيهِمَا فِي بَيْتِهِ وَلَا يُصَلِّيهِمَا فِي الْمَسْجِدِ مَخَافَةَ أَنْ يُثَقِّلَ عَلَى أُمَّتِهِ، وَكَانَ يُحِبُّ مَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ[٢].

وكان يقضي فترة بعد العصر غالباً في بيته ومع نسائه.

وكان يجري في مجلسه مع زوجاته الأُنس الزوجي، وحديث الإمتاع والسلوة، **ومن ذلك**: حديث أم زرع الذي حدَّثت به عائشةُ رسولَ الله ﷺ، قَالَتْ: جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، فَتَعَاهَدْنَ وَتَعَاقَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمْنَ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئاً ـ أي اجتمعن في مجلس نسوي، واتفقن أن يتحدثن عن أزواجهن، فيصفنهم مدحاً أو ذماً بأسلوب وصفي بليغ ـ.

فقَالَتِ الأُولَى: زَوْجِي لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ، عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ: لَا سَهْلٍ فَيُرْتَقَى وَلَا سَمِينٍ فَيُنْتَقَلُ[٣].

قَالَتِ الثَّانِيَةُ: زَوْجِي لَا أَبُثُّ خَبَرَهُ، إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَذَرَهُ، إِنْ أَذْكُرْهُ أَذْكُرْ عُجَرَهُ وَبُجَرَهُ[٤].

---

(١) «مسند أحمد» (٢٤٧٦٥)، و«سنن أبي داود» (٢١٣٥)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٨٦، ٥٩٣، ١٢٣٣)، و«صحيح مسلم» (٨٢٥، ٨٣٤، ٨٣٥).

(٣) الأولى شكت زوجها بالبخل وشراسة الخلق.

(٤) الثانية شكت زوجها وقالت بأنها لا تريد نشر مساوئه لكثرتها.

قَالَتِ الثَّالِثَةُ: زَوْجِيَ العَشَنَّقُ، إِنْ أَنْطِقْ أُطَلَّقْ وَإِنْ أَسْكُتْ أُعَلَّقْ[١].

قَالَتِ الرَّابِعَةُ: زَوْجِي كَلَيْلِ تِهَامَةَ، لَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ، وَلَا مَخَافَةَ وَلَا سَآمَةَ[٢].

قَالَتِ الخَامِسَةُ: زَوْجِي إِنْ دَخَلَ فَهِدَ، وَإِنْ خَرَجَ أَسِدَ، وَلَا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ[٣].

قَالَتِ السَّادِسَةُ: زَوْجِي إِنْ أَكَلَ لَفَّ، وَإِنْ شَرِبَ اشْتَفَّ، وَإِنِ اضْطَجَعَ التَفَّ، وَلَا يُولِجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البَثَّ[٤].

قَالَتِ السَّابِعَةُ: زَوْجِي غَيَايَاءُ ـ أَوْ عَيَايَاءُ ـ طَبَاقَاءُ، كُلُّ دَاءٍ لَهُ دَاءٌ، شَجَّكِ أَوْ فَلَّكِ أَوْ جَمَعَ كُلاً لَكِ[٥].

قَالَتِ الثَّامِنَةُ: زَوْجِي المَسُّ مَسُّ أَرْنَبٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ زَرْنَبٍ[٦].

قَالَتِ التَّاسِعَةُ: زَوْجِي رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، عَظِيمُ الرَّمَادِ، قَرِيبُ البَيْتِ مِنَ النَّادِ[٧].

قَالَتِ العَاشِرَةُ: زَوْجِي مَالِكٌ وَمَا مَالِكٌ، مَالِكٌ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكِ، لَهُ إِبِلٌ كَثِيرَاتُ المَبَارِكِ، قَلِيلَاتُ المَسَارِحِ، وَإِذَا سَمِعْنَ صَوْتَ المِزْهَرِ، أَيْقَنَّ أَنَّهُنَّ هَوَالِكُ[٨].

قَالَتِ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ، وَمَا أَبُو زَرْعٍ، أَنَاسَ مِنْ حُلِيٍّ أُذُنَيَّ، وَمَلَأَ مِنْ شَحْمٍ عَضُدَيَّ، وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غُنَيْمَةٍ

---

(١) الثالثة شكت زوجها بأنه طويل مذموم سيء الخلق، فإذا نطقت بذلك يطلقها، وإن سكتت يعلّقها.

(٢) الرابعة مدحت زوجها بأن أخلاقه كريمة فلا تخافه، ولا يستثقلها، فعيشتها معه لذيذة كلذة أهل تهامة بليلهم المعتدل.

(٣) الخامسة مدحت زوجها بالمسامحة في العشرة والتغافل عن معايب البيت، وكذلك مدحته بالشجاعة.

(٤) السادسة شكت زوجها بأنه يأكل ويشرب وينام كثيراً، وأنها لا تحظى منه بحق الزوجة.

(٥) السابعة شكت زوجها بالحمق وسوء العشرة والعجز عن قضاء وطرها، وإذا حدّثته سبها، وإذا مازحته شجّها.

(٦) الثامنة مدحت زوجها بحسن خلقه ولين جانبه، ونظافته واستعماله الطيب.

(٧) التاسعة مدحت زوجها بطول قامته وشجاعته وكرمه.

(٨) العاشرة مدحت زوجها مالك بأنه شديد الكرم وله مال كثير.

بِشِقٍّ، فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ، وَدَائِسٍ وَمُنَقٍّ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أُقَبَّحُ، وَأَرْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ، وَأَشْرَبُ فَأَتَقَنَّحُ، أُمُّ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ، ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ، مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ، وَيُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ، بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ أُمِّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارَتِهَا، جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ، فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ؟ لَا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثاً، وَلَا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثاً، وَلَا تَمْلَأُ بَيْتَنَا تَعْشِيشاً[١].

قَالَتْ: خَرَجَ أَبُو زَرْعٍ وَالأَوْطَابُ تُمْخَضُ، فَلَقِيَ امْرَأَةً مَعَهَا وَلَدَانِ لَهَا كَالفَهْدَيْنِ، يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ، فَطَلَّقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ بَعْدَهُ رَجُلاً سَرِياً، رَكِبَ شَرِياً، وَأَخَذَ خَطِّيّاً، وَأَرَاحَ عَلَيَّ نَعَماً ثَرِياً، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ رَائِحَةٍ زَوْجاً، وَقَالَ: كُلِي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي أَهْلَكِ، قَالَتْ: فَلَوْ جَمَعْتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ، مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آنِيَةِ أَبِي زَرْعٍ[٢].

قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُنْتُ لَكِ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ، إِلَّا أَنَّ أَبَا زَرْعٍ طَلَّقَ، وَأَنَا لَا أُطَلِّقُ**». فقالت عائشة: بِأبي أَنْت وَأمي، بل أَنْت خير لي من أبي زرع[٣].

وما أعجب هذا الإنصات من النبي ﷺ وحسن الاستماع لأقصوصة عائشة وتفاعله معها، وحسن تعليقه عليها، وكيف جعل مع تعليقه الأمان المطمئن: «**إِلَّا أَنَّ أَبَا زَرْعٍ طَلَّقَ، وَأَنَا لَا أُطَلِّقُ**»! ثم حُسنُ تعليق عائشة وفطنتها حيث بادرت قائلة: بل أنت خير من أبي زرع، وصدقت وبرت فيما قالت رضي الله عنها.

---

(١) الحادية عشرة مدحت زوجها أبا زرع بأنه أحسن إليها، وصارت غنية معه، وأنه لا يرد قولها لكرامتها عليه.

(٢) بعد أن طلقها أبو زرع تزوجت من رجل آخر شجاعٍ وكريم، أكرمَها وأهلها، لكنه مع كرمه لم يبلغ شأو زوجها السابق أبي زرع. ينظر فيما سبق: «إرشاد الساري» للقسطلاني (٨/ ٨٠-٩١).

(٣) «صحيح البخاري» (٥١٨٩)، و«المعجم الكبير للطبراني» (٢٧٠)، و«عمدة القاري» (٢٠/ ١٧٨).

ويجتمع أزواجه أحياناً بعد العصر في بيت التي هو عندها، وذلك لشوقهن إلى النبي ﷺ، وللتباعد بين لياليهن منه، قال أنس: كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ تِسْعُ نِسْوَةٍ، فَكَانَ إِذَا قَسَمَ بَيْنَهُنَّ، لَا يَنْتَهِي إِلَى الْمَرْأَةِ الْأُولَى إِلَّا فِي تِسْعٍ، فَكُنَّ يَجْتَمِعْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِ الَّتِي يَأْتِيهَا، فَكَانَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ، فَجَاءَتْ زَيْنَبُ، فَمَدَّ يَدَهُ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: هَذِهِ زَيْنَبُ، فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ، فَتَقَاوَلَتَا حَتَّى اسْتَخَبَتَا[1]، وَأُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَمَرَّ أَبُو بَكْرٍ عَلَى ذَلِكَ، فَسَمِعَ أَصْوَاتَهُمَا، فَقَالَ: اخْرُجْ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَى الصَّلَاةِ، وَاحْثُ فِي أَفْوَاهِهِنَّ التُّرَابَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: الْآنَ يَقْضِي النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، فَيَجِيءُ أَبُو بَكْرٍ فَيَفْعَلُ بِي وَيَفْعَلُ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاتَهُ، أَتَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهَا قَوْلاً شَدِيداً، وَقَالَ: أَتَصْنَعِينَ هَذَا؟[2].

وكانت تجري في بيت النبوة المذاكرة العلمية والأسئلة والاستشكال، ويتلقَّى ذلك رسولُ الله ﷺ برحابة صدر وحُسن تلقٍّ.

فيحدِّث مرَّةً زوجته عائشةَ رضي الله عنها قائلاً: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**». وكانت لا تسمع شيئاً لا تعرفه إلَّا راجعت فيه حتى تعرفه، فأوردت تساؤلاً واستشكالاً قائلة: أليس قد قال الله عز وجل: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾؟ فقال: «**لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**»[3].

---

(١) أي: تراجعتا القول حتى ارتفعت أصواتهما. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٠/ ٣٨).

(٢) «صحيح مسلم» (١٤٦٢)، و«إكمال المعلم بفوائد مسلم» (٤/ ٦٤٦).

ذهب بعض الشراح إلى أن هذا الاجتماع كان في الليل استدلالاً بمد النبي ﷺ يده إلى زينب يظنها عائشة، والذي يظهر – والله أعلم– أن هذا الاجتماع يكون في بعض الأيام وبخاصة في أيام الصيف حيث يكون فيها العصر طويلاً والليل قصيراً، وأما الليل فوقت الخصوصية الزوجية التي تستأثر فيه الزوجة بزوجها.

وأما مده ﷺ يده إلى زينب يظنها عائشة فإن الداخل من مكان الضوء إلى مكان معتم لا يرى جيداً لأول وهلة، ولعل هذا ما جرى له ﷺ.

(٣) «صحيح البخاري» (١٠٣)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧٦)، وغيرها.

وحدَّث مرةً زوجته حفصة رضي الله عنها قائلاً: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى مِمَّنْ شَهِدَ بَدْراً وَالْحُدَيْبِيَةَ**». قالت: بلى يا رسولَ الله! فانتهرها! فقالت: أليس قد قال الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾؟! فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾؟!»[1].

وما كانت هذه المراجعة بين المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وزوجاته رضي الله عنهن لتتمَّ لولا أنه استثار اليقظة العقلية، وفتح آفاق التفكير، وجعل المراجعة والتفاعل العقلي طريق القناعة واليقين.

وربما دعاه بعضُ أصحابه بعد صلاة العصر إلى الأمر يحبُّون أن يشهده معهم، فيجيبهم لذلك؛ فقد دعاه رجلٌ من بني سَلِمة بعد صلاة العصر، فقال: يا رسولَ الله، إنا نريد أن ننحرَ جَزُوراً لنا، ونحبُّ أن تحضرها. وهذه من مناسبات السرور؛ لقلة اللحم عندهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**نَعَمْ**». فانطلق، وانطلق معه بعض أصحابه، فوجدوا الجَزُورَ لم تنحر فنُحرت، ثم قُطِّعت، ثم طُبخ منها، فأكلوا قبل أن تغيب الشمسُ[2].

يا لله! أن يذهب النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم في يومٍ صائفٍ حارٍّ إلى منازل بني سَلِمةَ، وهي في أقصى المدينة شمالاً، وأبعدها عن مسجده، ولا أحسبه إِلَّا ذهب ماشياً؛ حتى يشاركهم هذه الاحتفالية والابتهاج بنحر جَزور، فيتَّسع سرورهم بحضوره، ويكبر فرحهم بمشاركته، وليتحوَّل الحدث من نحر جَزور وأكلها إلى حضور النبي صلى الله عليه وآله وسلم نحر الجزور ومشاركتهم أكلها.

كم بقي بنو سَلِمةَ بعد هذا الحدث يتحدَّثون عنه؟!

---

(١) «مسند أحمد» (٢٧٠٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٩٦)، و«سنن ابن ماجه» (٤٢٨١)، وغيرها.

(٢) «صحيح مسلم» (٦٢٤)، و«صحيح ابن حبان» (١٥١٦)، وغيرها.

ما أرق هذه النفس، وأشف تلك المشاعر، كأنما يسابق النبيُّ ﷺ كلَّ فرصة فرح ليزيدها فرحاً، وكل لحظة بهجة ليزيدها إبهاجاً!

أَلَا ما أعمق حضور هذا النبي ﷺ في حياة أصحابه!

ويظهر أن ما بعد العصر هو وقت أذكار المساء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾.

فكما يتلقى أنفاس الصباح بذكر الله والثناء عليه، يودع آصال النهار بذكر الله والثناء عليه، فبداية يومه وختامه مناجاة الله وذكره.







بعد الغروب

فإذا أُذِّنَ للمغربِ، لم يلبث رسولُ الله ﷺ إلَّا قليلاً، ثم يخرج إلى الصلاة، ويظهر أنه كان يصلي ركعتين خفيفتين قبل المغرب يبدأ بها ليله كما كان يصلي ركعتين خفيفتين قبل الفجر يبتدئ بهما نهاره، فإذا خرج وجد أصحابَه قد ابتدروا السَّواري يصلُّون ركعتين قبل المغرب؛ حيث كان يرغِّب فيها ويقول: «**صَلُّوا قَبْلَ الْمَغرِبِ رَكْعَتَيْنِ، صَلُّوا قَبْلَ الْمَغْرِبِ رَكْعَتَيْنِ**». ثم قال في الثالثة: «**لِمَنْ شَاءَ**». وهما ركعتان خفيفتان؛ حيث لم يكن بين أذان المغرب وإقامتها إلَّا وقت قليل[١]، وكان الصحابة يحافظون عليها حتى إن الغريب يدخل المسجد فيظن أن الصلاة قد قضيت.

فإذا خرج ﷺ أُقيمت الصلاة فصلَّى المغربَ، وكان يصلِّي المغربَ في أول وقتها، وينصرف منها قبل حلول الظلام، بحيث يخرج الرجلُ ولو رمى لرأى مواقع نبله؛ لانتشار الضياء[٢].

وكانت صلاته وقراءته فيها قصيرة غالباً، وربما أطال القراءةَ أحياناً على نُدْرة؛ فقد قرأ مرةً: سورة «الأعراف»، وقرأ مرة: سورة «الطور»، وكانت صلاة المغرب هي آخر صلاة صلَّاها بأصحابه، فقرأ فيها: سورة «المرسلات»[٣].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٢٥، ١١٨٣)، و«صحيح مسلم» (٨٣٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٥٩)، و«صحيح مسلم» (٦٣٧)، و«سنن أبي داود» (٤١٦)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٧٦٣-٧٦٥، ٤٤٢٩)، و«صحيح مسلم» (٤٦٢، ٤٦٣)، وغيرها.

ولم يكن يتحدَّث بعدها كما يتحدَّث في أعقاب الصلوات؛ وذلك لحاجة الناس إلى الانصراف إلى عَشائهم وراحتهم.

فإذا صلَّى المغرب عاد إلى بيته فصلَّى فيه ركعتين، سنةَ المغرب[١]، يقرأ فيها بسورتي «الكافرون» و«الإخلاص»، كما يقرأ في سنة الفجر، ثم يتعشَّى، وهذا هو وقت العَشاء غالباً، وهي وجبة المساء، وربما قدَّموه قبل صلاة المغرب إذا كانوا صياماً؛ أو عند طول النهار في الصيف، ولذا قال ﷺ: «**إِذَا قُدِّمَ الْعَشَاءُ فَابْدَءُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَلُّوا صَلَاةَ الْمَغْرِبِ، وَلَا تَعْجَلُوا عَنْ عَشَائِكُمْ**»[٢].

وكان يأمر أصحابَه أن يأخذوا معهم إلى عَشائهم فقراء المسلمين، فيقول: «**مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَيْنِ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعَةٍ فَلْيَذْهَبْ بِخَامِسٍ.. بِسَادِسٍ**»[٣].

وربما أخذ ﷺ عشرةً فذهب بهم إلى بيته، ليتعشَّى معهم، إذا كان عنده وَفْر طعام، وربما انقلب إلى بيته فلا يجد فيه ما يأكله إلَّا التمر والماء، وربما مرَّت به أيام لا يكون في بيته ما يأكله ذو كبد رَطْبة[٤].

فقد جاءه مرةً رجلٌ مُنْهَكٌ ساغِبٌ[٥]، على وجهه شحوب الجوع، وقَتَرة الإعياء، فقال بلسان حاله ومقاله: يا رسولَ الله، أصابني الجَهْدُ. فأرسل رسولُ الله ﷺ من فَوْره إلى إحدى نسائه يسألها هل عندها ما يُطعِم هذا الضيف المجهود؟ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلَّا ماء. فأرسل إلى أخرى

---

(١) ينظر: ما تقدم في أربع ركعات قبل الظهر في «أمسيات الرسول ﷺ».

(٢) «مسند أحمد» (٥٨٠٦، ٢٤٢٤٦)، و«صحيح البخاري» (٦٧٢)، و«صحيح مسلم» (٥٥٧-٥٥٩).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٠٢، ٣٥٨١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٧)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧، ٣٠٩٧، ٥٣٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧٢-٢٩٧٥)، و«تاريخ دمشق» (٣٥/ ٣٤٦)، وغيرها.

(٥) أي: جائع. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٧١).

من نسائه، فقالت مثل ذلك؛ حتى أرسل إليهن كلهن؛ فكان حالهن وجوابهن واحداً: والذي بعثك بالحق ما عندنا إِلَّا الماء. فأقبل النبيُّ ﷺ على أصحابه وقال: «**مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ؟ رَحِمَهُ اللهُ**». فقال أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه: أنا يا رسولَ الله. ثم انطلق به أبو طلحة إلى بيته فأضافه[١].

وكان أكله يتفاوت قلة وكثرة، والغالب القلة، ولذا قالت عائشة: مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّى قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ، فَدَعَوْهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ، وَقَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[٣].

والغالب أنهم لا يطبخون إلا مرة واحدة في اليوم، غداء أو عشاء، وربما مرت الأيام لا يطبخون فيها، وإنما يتبلغون بالتمر واللبن كما قالت عائشة: إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الهِلَالِ، ثُمَّ الهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ، فقيل لها: مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الأَسْوَدَانِ: التَّمْرُ وَالمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الأَنْصَارِ، كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهِمْ، فَيَسْقِينَا[٤].

وكانت أطعمة النبي ﷺ وأهل المدينة بسيطة غير مركبة، أفخرها الثريد؛ وذلك أن بيئة المدينة ونجد ونحوها همهم من الطعام الشبع منه لقلته وليس التفنن في طعمه، ولذا قال ﷺ لأهل الصفة: «**لَوْ وَجَدْتُ خُبْزاً وَلَحْماً لَأَطْعَمْتُكُمْ**».

وقالت عائشة: مَا أَكَلَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَكْلَتَيْنِ فِي يَوْمٍ إِلَّا إِحْدَاهُمَا تَمْرٌ[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٧٩٨، ٤٨٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٤)، وغيرها.

(٢) «صحيح مسلم» (٢٩٧٠)، و«جامع الترمذي» (٢٣٥٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٤١٤) و «صحيح ابن حبان» (٦٣٤٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٢٥٦٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٤٥٥).

وكان طعامُه ﷺ يوضع على الأرض في السُّفْرة، وما أكل ﷺ على خِوانٍ[١] قطُّ[٢].

وهذا جرياً على عادة العرب فقد كانوا يأكلون على الأرض، فهي عادة عربية وليست سنة نبوية، ولذا فإن الصحابة اتخذوا الخوان بعد ذلك.

وكان الصحابة إذا حضروا مع النبي ﷺ طعاماً لم يضعوا أيديهم حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده[٣].

فإذا قُرِّب إليه طعامُه قال: «**بِسْمِ اللهِ**». وأَكَلَ مما يليه، ولم تَعْدُ أصابعه ما بين يديه، فيأكل بثلاثة أصابع، ويأمر بالأكل من جوانب الصَّحْفة، وأن تُترك ذِرْوتها، ويقول: «**إِنَّ الْبَرَكَةَ فِيهَا**»[٤].

ولم يكن ﷺ يتكلَّف في طعامه، وإنما يأكل ما تيسَّر، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الْإِدَامَ، قَالُوا: مَا عِنْدَنَا إِلَّا الْخَلُّ، قَالَ: فَدَعَا بِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَقُولُ: «**نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ، نِعْمَ الْإِدَامُ الْخَلُّ**». وما عاب طعاماً قطُّ؛ إن اشتهاه أكله، وإلَّا تركه[٥].

ويتجنب من الطعام ما له رائحة كالبقول والثوم والبصل، وما تعافه نفسه كالضَّبِّ[٦]، فقد أُكل على مائدته ولم يأكل منه وقال: «**إنه لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي،**

(١) والخوان: ما يُؤكل عليه الطعام من منضدة ونحوها، والسفرة: ما يُبسط على الأرض، ثم يوضع عليه الطعام، وتكون غالباً من سعف النخيل، كالحصير المدور. ينظر: «النهاية» (٢/ ٨٩).

(٢) «مسند أحمد» (١٢٣٢٥)، و«صحيح البخاري» (٥٣٨٦)، و«جامع الترمذي» (١٧٨٨)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٢٣٢٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٠١٧).

(٤) «مسند أحمد» (١٦٥٩٥، ١٧٦٧٨)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣١-٢٠٣٥)، و«سنن أبي داود» (٣٧٧٣)، وغيرها.

(٥) «مسند أحمد» (١٥١٩١)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٢، ٢٠٦٤)، و«سنن أبي داود» (٣٨٢٠)، وغيرها.

(٦) هو من الزواحف في صحراء نجد يشبه التمساح الصغير، وذَنَبُه كَذَنَبِه، يصطاده أهل الصحراء ويأكلونه، وينفر منه غيرهم. ينظر: «تاج العروس» (٣/ ٢٢٧).

فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ، فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَأْكُلَهُ فَلْيَأْكُلْهُ». وكان خَالِد بن الوليد عنده، قال: فَاجْتَرَرْتُهُ فَأَكَلْتُهُ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَيَّ[١].

وإذا جلس على الطعام مع أصحابه لم يخل جلوسه من حديث يُؤنِس به، أو أَدَبٍ يُربِّي، أو عِلْمٍ ينشره.

ومن ذلك: أن عُمر بن أبي سَلَمة رضي الله عنهما كان صبيّاً يتربَّى في حِجر الرسول ﷺ؛ فهو ابن زوجته أم سلمة رضي الله عنها، وكان يأكل مع رسول الله ﷺ، فكانت يده تَطِيش في الصَّحْفَة؛ يأخذُ من لحمٍ حول الصَّحْفَةِ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**». قال عُمر رضي الله عنه: فما زالت تلك طِعْمَتي بعدُ[٢].

وقال: «**إذا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا، فَلْيُمِطْ ما كان بها من أَذىً وَلْيَأْكُلْهَا، ولا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، ولا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حتى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ؛ فإنه لَا يَدْرِي في أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ**»[٣].

ووُضعت بين يدي رسول الله ﷺ قَصْعَةٌ من ثَرِيد ولَحْم، فتناولَ الذِّراعَ، وكانت أحبَّ الشَّاة إليه، فنَهَسَ نَهْسَةً[٤]، فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». ثم نَهَسَ أخرى، فقال: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». فلما رأى أصحابَه لا يسألونه قال: «**أَلَا تَقُولُونَ كَيْفَهْ؟**». قالوا: كَيْفَهْ يا رسولَ الله. قال: «**يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ مِنْ رُءُوسِهِمْ، فَيَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ حَرُّهَا، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ دُنُوُّهَا مِنْهُمْ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ**

(١) «مسند أحمد» (٢٣٥٤)، و«صحيح البخاري» (٥٣٩١). «صحيح مسلم» (١٩٤٥)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٥٣٧٦)، و«صحيح مسلم» (٢٠٢٢)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٤٥٥٢)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٣)، وغيرها.

(٤) النَّهْس: أخذ اللحم بأطراف الأسنان. والنَّهْش: الأخذ بجميعها. ينظر: «النهاية» (٥/ ١٣٦).

مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ...» فذكر حديث الشفاعة الطويل[١].

وقد كان هذا الحديث الطويل بهذه المعاني العظيمة على مائدة الطعام، وكانت اللقمة لا تزال في يده، وذلك أنه وجد في هذا الاجتماع فرصة، وأحس منهم التشوف للحديث فاسترسل فيه، وفي حفظهم لحديثه دليل على تشوفهم له، ووعيهم بما حدثهم وتأثرهم به.

وكان إذا فرغ من طعامه لَعَقَ أصابعه، وكان يأمر بلَعْق الصَّحْفَة، ويقول: «**إِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ الْبَرَكَةُ**»[٢].

فإذا رُفعت مائدتُه قال: «**الْحَمْدُ للهِ حَمْداً كثِيراً طَيِّباً مُبَارَكاً فِيهِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَفَانَا وَآوَانَا، غَيْرُ مَكْفِيٍّ، وَلَا مَكْفُورٍ، وَلَا مُوَدَّعٍ، وَلَا مُسْتَغْنىً عَنْهُ ربَّنَا، اللَّهمَّ إِنَّكَ أَطْعَمْتَ وأَسْقَيْتَ، وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ، وَهَدَيْتَ وَأَحْيَيْتَ، اللَّهُمَّ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ**»[٣].

وإن أكل معه بعضُ زوجاته آنسها على الطعام، فهو القائل: «**حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُها إِلَى فَمِ امْرَأَتِكَ صَدَقَة**»[٤]. فلم يقل: تطعمها امرأتك، وإنما قال: «**تَرْفَعُها إِلَى فَمِ امْرَأَتِكَ**» ليكون الإشباع وجدانياً وجسديّاً في آن واحد.

ومن ذلك: ما أخبرت به عائشةُ رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعوني فآكل معه وأنا حائضٌ، وكان يأخذ العَرْقَ[٥] فيُقْسِمُ عليَّ فيه، فأَعْتَرِقُ منه، ثم

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٤٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٤)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (١٢٨١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٠٣٤)، و«جامع الترمذي» (١٨٠٣)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٦٥٩٥، ١٨٠٧١، ١٨٩٧٠)، و«صحيح البخاري» (٥٤٥٨، ٥٤٥٩)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٢٨)، و«سنن أبي داود» (٢٨٦٤)، وغيرها.

(٥) هو العظم عليه شيء من اللحم. ينظر: «أعلام الحديث» للخطابي (١/ ٤٦٩).

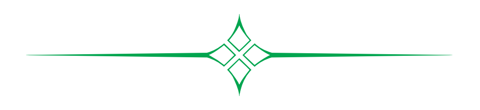
أضعه، فيأخذُه فيعترقُ منه، ويضعُ فمه حيث وضعتُ فمي من العَرْق، ويدعُو بالشَّراب، فيُقْسِمُ عليَّ فيه من قبل أن يشرب منه، فآخذه فأشرب منه، ثم أضعه، فيأخذه فيشربُ منه، ويضعُ فمه حيث وضعتُ فمي من القدَح(١).

ويا لله! كم من رسالة حب معطرة تصل إلى قلب الزوجة المحبوبة من الزوج المُحِبِّ بمثل هذا الإيناس المُبْهِج؟! وكيف سيتحوَّل الطعام بذلك إلى غذاء للقلب، كما هو غذاء للجسد؟!

وكان يغسل فمه بعد الطعام، وإذا شرب لبناً غسل فمه، وقال: «**إِنَّ لَهُ دَسَماً**»(٢).

وكان إذا تعشَّى شرب على عَشائه من نَبيذ نُبذ له من الصباح، كما أنه إذا تغدَّى في الصباح شرب على غَدائه من نَبيذ نُبِذَ له من العِشاء(٣).

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّهَا كَانَتْ تَنْبِذُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غُدْوَةً، فَإِذَا كَانَ مِنَ العَشِيِّ فَتَعَشَّى شَرِبَ عَلَى عَشَائِهِ، وَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ صَبَبْتُهُ، أَوْ فَرَّغْتُهُ، ثُمَّ تَنْبِذُ لَهُ بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ تَغَدَّى فَشَرِبَ عَلَى غَدَائِهِ، يُغْسَلُ السِّقَاءُ غُدْوَةً وَعَشِيَّةً، مَرَّتَيْنِ فِي يَوْمٍ(٤).



(١) «مسند أحمد» (٢٤٣٢٨، ٢٤٩٥٤)، و«صحيح مسلم» (٣٠٠)، و«سنن أبي داود» (٢٥٩)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٢١١، ٥٤٥٤)، و«صحيح مسلم» (٣٥٨)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٢٠٦٨، ٢١٤٣)، و«صحيح مسلم» (٢٠٠٤، ٢٠٠٥)، وغيرها.

(٤) «سنن أبي داود» (٣٧١٢).



رسم تخيلي يبين مكان الصفة شمالي المسجد



صورة الصحفة وهي صحن خشبي



صورة للقربة، وهي وعاء من الجلد يُحفظ ويُبرد فيها الماء





صلاة العِشاء

ويبقى رسولُ الله ﷺ في بيته إلى أذان العِشاء، وكان يكره النوم قبل صلاة العشاء، وذلك حتى لا يستغرق الإنسان في نومه فيفوته وقت الصلاة، ولم يكن يُعَجِّل بصلاة العِشاء، وإنما ينتظر؛ فإن رآهم اجتمعوا عَجَّل، وإن رآهم تأخروا أَخَّر، وكان يحب تأخيرها، لولا خوف المشقة على الناس[١].

وقد أَخَّرها مرةً، فجاء عمرُ رضي الله عنه إليه، فناداه: يا رسولَ الله، رقد النساءُ والولدان. فخرج ورأسُه يقطرُ، وهو يمسحُ الماءَ عن شقِّه، ويقول: «**إِنَّهُ لَلْوَقْتُ، لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالصَّلَاةِ هَذِهِ السَّاعَةَ**»[٢].

وأُقيمت صلاةُ العشاء ذاتَ ليلةٍ، فقام رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، إنَّ لي إليكَ حاجةً. فقامَ معه رسولُ الله ﷺ يُناجيه، حتى نَعَسَ بعضُ القوم[٣].

وكان ﷺ أخفَّ الناس صلاةً في تَمَام، قال أنس رضي الله عنه: ما صليتُ وراء إمام قطُّ أخفَّ صلاةً، ولا أتمَّ صلاةً من رسول الله ﷺ[٤].

وَيَقْرَأُ فِي الْأُولَيَيْنِ مِنَ الْعِشَاءِ مِنْ وَسَطِ الْمُفَصَّلِ ﴿**وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا**﴾ وَمَا يُشْبِهُهَا، وقال لمعاذ: اقْرَأْ ﴿**وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا**﴾ و﴿**سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى**﴾.

---

(١) «صحيح البخاري» (٥٦٠، ٥٦٥)، و«صحيح مسلم» (٦٤٦)، و«سنن أبي داود» (٤٦)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٧٢٣٩)، و«صحيح مسلم» (٦٣٩)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (١٢٨٨١)، و«صحيح مسلم» (٣٧٦)، و«سنن أبي داود» (٢٠١)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (١٢٧٣٤)، و«صحيح مسلم» (٤٦٩)، و«جامع الترمذي» (٢٣٧)، وغيرها.

وكان يسمع بكاء الصبي مع أمه، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة القصيرة؛ كراهية أن يشقَّ على أُمِّه، ويقول: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي الصَّلَاةِ؛ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»[(١)].

فإذا قضى صلاةَ العِشاء فقلما يتحدَّث بعدها إلى أصحابه، فقد كان يكره الحديث بعدها إلا أن كان ثَمَّةَ عارض يريد أن يحدِّثهم به حديثاً وجيزاً.

ومن ذلك: أنه صلَّى ذات ليلة العِشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّ عَلَى رَأْسِ مِئَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ**»[(٢)].

أي أنه سيموت كل الأحياء الموجودين وقت خطاب النبي ﷺ ذلك خلال مئة سنة، ولا يشمل ذلك من وُلد بعد تلك الليلة، وهكذا كان، فآخر من مات من الصحابة هو أبو الطُّفيل عامر بن واثلة توفي بعد كلمة النبي ﷺ هذه بمئة سنة، عام (١١٠هـ)، وكان يقول: ما بقي على وجه الأرض أحد يقدر أن يقول: إنه رأى رسول الله ﷺ غيري[(٣)].

وأخَّر مرةً صلاة العِشاء، ثم صلَّى بأصحابه، ثم خطبهم، فقال: «**أَلَا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا ثُمَّ رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَمْ تَزَالُوا فِي صَلَاةٍ مَا انْتَظَرْتُمُ الصَّلَاةَ**»[(٤)].

وأَعْتَم مرة بصلاة العِشاء، حتى ابْهَارَّ الليلُ[(٥)]، ثم خرج ﷺ فصلَّى بهم، فلما قضى صلاته قال لمَن حضره: «**عَلَى رِسْلِكُمْ، أَبْشِرُوا، إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ**

(١) «صحيح البخاري» (٧٠٧-٧١٠)، و«صحيح مسلم» (٤٧٠)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١١٦، ٥٦٤)، و«صحيح مسلم» (٢٥٣٧)، وغيرها.

(٣) «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٥/ ٢٩٤٣)، و«مختصر تاريخ دمشق» (١١/ ٢٩٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٨٤٧)، و«صحيح مسلم» (٦٤٠)، وغيرها.

(٥) أعتم: أي: دخل في ظلمة الليل، والمراد أخرها عن وقتها المعتاد. وابهار: أي انتصف. ينظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (١/ ٤٤٣)، و«النهاية» (١/ ١٦٥).

عَلَيْكُمْ، أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ». فانقلب أصحابُه إلى دورهم فرحين ببشرى رسول الله ﷺ لهم[١].

وكان حديثُه بعد صلاة العِشاء نادراً وقصيراً؛ لتعب الناس وحاجتهم للنوم.

وكان إذا سلَّم مكث في مكانه حتى ينصرف النساءُ، فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف رسولُ الله ﷺ، فإذا قام رسولُ الله ﷺ قام الرجال[٢].

قال ابن شهاب: فَأُرَى وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّ مُكْثَهُ لِكَيْ يَنْفُذَ النِّسَاءُ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُنَّ مَنِ انْصَرَفَ مِنَ القَوْمِ[٣]. وذلك حتى لا يزدحم الرجال والنساء في الطريق، وكانت طرق المدينة ضيقة، فتُخلى للنساء ينفُذْنَ فيها ثم يتبعهن الرجال.

وكان ينهى عن السمر إلا في ثلاث، لمصلٍّ، أو مسافر، أو عروس[٤]، ومثل ذلك السمر لمذاكرة العلم، أو قضاء حوائج المسلمين[٥]، كما سيأتي.

وكانت عائشة تنهى مَن يتحدَّثون بعد العشاء، فعن عُرْوَةَ بن الزبير قَالَ: سَمِعَتْنِي عَائِشَةُ وَأَنَا أَتَكَلَّمُ بَعْدَ الْعِشَاءِ، فَقَالَتْ: مَا هَذَا السَّمَرُ يَا عُرْوَةُ؟! مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَائِماً قَبْلَهَا، وَلَا مُتَحِدِّثاً بَعْدَهَا، إِمَّا نَائِماً فَيَسْلَمُ، وَإِمَّا مُصلِّياً فَيَغْنَمُ[٦].



(١) «صحيح البخاري» (٥٦٧، ٥٧٠)، و«صحيح مسلم» (٦٣٩، ٦٤١)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٨٤٩، ٨٥٠، ٨٧٠)، و«سنن أبي داود» (١٠٤٠)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٨٣٧).

(٤) ينظر: «السنن والأحكام» للضياء المقدسي (١/ ٢٦٨)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٥/ ٥٦٣).

(٥) «شرح معاني الآثار» للطحاوي (٤/ ٣٣٠).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» (٢١٣٧)، و«شعب الإيمان» (٤٥٨٦).





ليالي الرسول ﷺ

ثم يرجع ﷺ إلى بيته، فيصلِّي ركعتين راتبة العشاء[١]، ثم يجلس سُوَيْعَةً يتحدَّثُ مع أهله، يؤانسهم ويسمُرُ معهم قبل أن ينام، وربما ذهب يسمُرُ عند بعض أصحابه، فيسمُرُ عند الأنصار في بعض الليالي، ويسمُرُ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في بيت أبي بكر، فيتحدَّثون في أمر المسلمين، فإذا خرج سارا معه يتمتَّعان بصحبته ﷺ في الطريق حتى يدخلا معه المسجدَ[٢].

وربما مرَّ في طريقه بقارئ حسن الصوت من أصحابه يقومُ بالقرآن، فيقفُ مستَمِعاً لهذه القراءة الحسنة، كما مرَّ بأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ليلةً، فوقف يَستَمِع إليه، فلما أصبح لقيه، فقال له: «**يَا أَبَا مُوسَى، لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ الْبَارِحَةَ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِيرِ**[٣] **آلِ دَاوُدَ**»[٤].

ودخل المسجدَ ليلةً، فإذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قائم يصلِّي، يرتِّل سورةَ النساء، فقام ﷺ يستَمِع لقراءته، ثم قال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَطْباً كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ**»[٥].

---

(١) ينظر: ما تقدم في أربع ركعات قبل الظهر في «أمسيات الرسول ﷺ».

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٦٦٨٩)، و«مسند أحمد» (١٧٥، ١٧٨)، و«صحيح البخاري» (٤٥٦٩)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣)، وغيرها.

(٣) والمقصود بتشبيه صوته بالمزامير: أنه أُتي صوتاً حسناً كصوت آل داود. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣١٢).

(٤) «مسند أحمد» (٢٣٠٣٣)، و«صحيح البخاري» (٥٠٤٨)، و«صحيح مسلم» (٧٩٣)، وغيرها.

(٥) «مسند أحمد» (٣٥، ١٧٥، ٤٣٤٠، ١٨٤٥٧)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٨)، وغيرها.

فإذا دخل المسجدَ سلَّم تسليماً يُسْمِعُ اليقظانَ، ولا يُوقِظُ النائمَ؛ حيث لا يخلو المسجد من فقراء المسلمين الذين ينامون فيه، ثم يصلِّي في المسجد قبل أن يدخل بيته[١].

فإذا دخل بيته، وأراد أن ينام تخفَّف من ثيابه، فأخذ خِرْقَة توضع عند رأس فراشه، فاتَّزر بها، وخلع ثوبيه فعلَّقهما، ثم دخل مع زوجته في لحافها، وكان فراشه من جلد حشوه لِيف، وله وسادة من جلد حشوها لِيف يتوسَّدها هو وزوجته[٢].

وكان سريره في زاوية بيته الجنوبية الغربية، وهو مكان قبره المقدس فهذا المكان مرقده حياً وميتاً.

فإذا أراد أن ينامَ وضعَ سِواكه عند رأسه؛ ليستاكَ به إذا استيقظَ، وكان لا يرقد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلَّا بدأ بالسِّواك[٣].

وكان إذا استاك أَعْطَى سواكه عائشةَ رضي الله عنها لتغسله، فتبدأ به فتستاك؛ لتصيب أثر ريقه الطيب المبارك، ثم تغسله وتدفعه إليه[٤].

فكان سواكه نظيفاً وقريباً منه، يتعاهد به فمه الطَّيِّب المُطَيَّب تعاهداً شديداً، حتى خَشِي على أسنانه أن تقع لشدة ما أَحْفاها بالسِّواك[٥]، فيبدأ به كلَّما استيقظ، ويقرِّبه عند رأسه إذا أراد أن ينام.

ثم يؤانسُ زوجتَه بالحديث معها سُويعة، ولك أن تتخيَّل هذه النجوى بين زوج كريم محبٍّ وزوجة مُحِبَّة مَشُوقَة في هَدْأَة الليل وسكون المدينة الجميل،

(١) «مسند أحمد» (٢٣٨٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٠٥٥)، و«جامع الترمذي» (٢٧١٩)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٧٢، ٣٤٩٠)، و«صحيح مسلم» (١٤٧٩، ٢٠٨٢)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٥٩٧٩، ٢٤٩٠٠)، و«صحيح البخاري» (٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥)، وغيرها.

(٤) «سنن أبي داود» (٥٢)، و«سنن البيهقي» (١٦٩)، و«شرح السنة» (٢٠٤)، وغيرها.

(٥) «مسند أحمد» (١٦٠٠٧، ٢٢٢٦٩)، و«سنن ابن ماجه» (٢٨٩)، وغيرها.

إنها عطاء وِجداني يفيض على النفس بأنواع المَسَرَّة والإبهاج، ويُعطي العلاقة الزوجية عُمْقاً وِجدانيّاً راسخاً في النفس.

وكما كان حديثه أول ما تسمعه زوجته عند صحوها فإنه كان آخر ما تسمعه قبل إغفائها، وللحديث والنجوى في لحظة القرب الزوجي هذه لذته وذواقه، وأثره في حيوية الحياة الزوجية، فهو أكثر حميمية وخصوصية، فتبقى نشوته وذكراه بهجةً لليوم كله، إنها سويعة الصفو في كَبَدِ الحياة.

ولذا كان استثناءً من كراهة السمر بعد العشاء، وكانت عائشة أعرف الناس بأهميته وأثره في حياة الأهل؛ فقد روي عنها أنها رأت قوماً يسمرون فقالت لهم: انصرفوا إلى أهليكم فإن لهم فيكم نصيباً[١].

وبعد هذه المناجاة الجميلة، فإن كان به حاجة الرجل إلى زوجته قضى الرغبة الزوجية الخاصة، وربما وافق زوجتَه أيام حيضها، فلا ينقطع عنها الإسعاد الزوجي، فكان يباشر زوجته وهي حائض، ويأمرها أن تَأْتزر، فيصيبُ منها ما يصيبُ الزوج من زوجته، غير الجماع[٢].

وفي ذلك إشعار بالرغبة في الزوجة، وأن هذا العارض الطبيعي لا يقطع ألواناً من التواصل الزوجي البَهيج.

ومن ذلك: حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: كنتُ مع رسول الله ﷺ في لحافه، مضطجعة في خَمِيلة، فوجدتُ ما تجدُ النساءُ من الحيضة، فانْسَلَلْتُ من اللِّحاف، فأخذتُ ثيابَ حِيضتي فلبستها فقال لي رسولُ الله ﷺ: «**مَا لَكِ؟ أَنُفِسْتِ؟ ذَلِكَ مَا كَتَبَ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**». ثم قال: «**تَعَالَيْ فَادْخُلِي مَعِي فِي اللِّحاف**». قالت: فأدخلني معه في لحافه[٣].

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٦٦٩٧)، و«فتح الباري» لابن رجب (٥/ ١٧٣).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٠٢)، و«صحيح مسلم» (٢٩٣)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٢، ١٩٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦)، و«سنن ابن ماجه» (٦٣٧)، وغيرها.

وكان يغتسلُ من الجنابة قبل أن ينام، وربما توضَّأ ونام وأخَّر الغسل لحين استيقاظه[١].

وكان يغتسل أحياناً هو وزوجته من إناء واحد، تختلف أيديهما فيه، تقول: دَعْ لي، دَعْ لي. ويقول: «**دَعِي لِي، دَعِي لِي**»[٢]. وهذا من المؤانسة وامتداد اللهو الجميل بين الزوجين.

وكان إذا أوى إلى فراشه قال: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا، وَسَقَانَا، وَكَفَانَا، وَآوَانَا فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ، وَلَا مُؤْوِيَ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، اللَّهُمَّ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَالِكَ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِلَهَ كُلِّ شَيْءٍ، لَكَ كُلُّ شَيْءٍ، أَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ**»[٣].

ثم يجمع كفيه المباركتين، فينفُث فيهما، ويقرأ: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ**﴾، ثم يمسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ثلاث مرات[٤].

فإذا اضطجعَ اضطجعَ على شِقِّه الأيمن، ووضع يده اليمنى تحت خَدِّه الأيمن، وقال: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ، وَبِاسْمِكَ أَحْيَا، اللَّهُمَّ رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ**»[٥].

ويقول: «**بِسْمِ اللهِ وَضَعْتُ جَنْبِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبِي، وَاخْسَأْ شَيْطَانِي، وَفُكَّ رِهَانِي، وَثَقِّلْ مِيزَانِي، وَاجْعَلْنِي فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**»[٦].

---

(١) «مسند أحمد» (١٨٠٤، ٢٤٤٥٣)، و«صحيح مسلم» (٣٠٧)، و«جامع الترمذي» (٢٩٢٤)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٦١)، و«صحيح مسلم» (٣٢١)، و«سنن النسائي» (٢٣٦)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٥٩٨٣)، و«صحيح مسلم» (٢٧١٥)، و«سنن أبي داود» (٥٠٥٨)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (٢٤٨٥٣)، و«صحيح البخاري» (٥٠١٧)، و«صحيح مسلم» (٢١٩٢)، وغيرها.

(٥) «صحيح البخاري» (٦٣١٤، ٦٣١٥)، و«صحيح مسلم» (٢٧١١)، و«سنن أبي داود» (٥٠٤٥).

(٦) «سنن أبي داود» (٥٠٥٤)، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (١١٢)، وغيرها.

وله ﷺ أذكار يقولها عند نومه، فيقول هذه أحياناً، وهذه أحياناً[(١)]، **ومنها:**

- «**اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْأَرْضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، ربَّنا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ**[(٢)]**، اللهمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ**»[(٣)].
- «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**»[(٤)].

ويقرأ سوراً من القرآن، فيقرأ أحياناً: ﴿**الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ...**﴾ السجدة، و﴿**تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ**﴾، وأحياناً سورة «الزمر»، و«الإسراء»[(٥)].

ثم ينام، فإذا نام واستغرق في نومه نفخ ـ وهو صوت نَفَس النائم المرتفع ـ فإذا تقلَّب في فراشه من الليل قال: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ**»[(٦)].

وكان ﷺ يقول: «**مَنْ تَعَارَّ مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الحَمْدُ للهِ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَلَا**

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٨٨).

(٢) الناصية: الشعر في مقدم الرأس. والمقصود: أعوذ بك من شر كل شيء من المخلوقات؛ لأنها كلها في سلطانه، وهو آخذ بنواصيها. «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٧/ ١٩٩)، و«تاج العروس» (٤٠/ ٩٠).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧١٣)، و«سنن أبي داود» (٥٠٥١)، و«سنن ابن ماجه» (٣٨٧٣)، وغيرها.

(٤) «صحيح البخاري» (٦٣١٥)، و«سنن النسائي» (١٠٥٤١)، وغيرها.

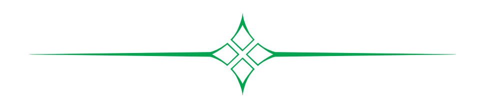
(٥) «مسند أحمد» (١٤٦٥٩، ٢٤٣٨٨)، و«جامع الترمذي» (٢٨٩٢، ٣٤٠٥)، وغيرها.

(٦) «صحيح البخاري» (٦٩٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣)، و«سنن النسائي» (٧٦٤١).

إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، أَوْ دَعَا، اسْتُجِيبَ لَهُ، فَإِنْ تَوَضَّأَ وَصَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»[١].

وكان لا يتقلَّب من الليل إِلَّا أجرى السواك على فمه، ثم يعود إلى نومه، إلى أن ينتصف الليلُ[٢].

ويبدو أن هذه أطول فترة نوم ينامها النبي ﷺ.



(١) «صحيح البخاري» (١١٥٤).

(٢) «مسند أحمد» (٣٥٤١، ٥٩٧٩)، و«صحيح البخاري» (٢٤٥)، و«صحيح مسلم» (٢٥٥، ٢٥٦).



ناشئة الليل

فإذا انتصَفَ الليلُ، أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظَ رسولُ الله ﷺ، ثم جلس يمسحُ النومَ عن وجهه بيده، ثم تناولَ سواكه فدلك به فمه الطَّيِّب المبارك(١)، ثم رفع بصره إلى السماء، ينظر بتفكُّر في هدوء الليل وسكونه إلى عظمة الله في خلقه، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ...﴾ إلى نهاية الآيات العشر من آخر سورة آل عمران، ثم يقوم إلى قِربة معلَّقة، فيُطلق رباطها، ويسكب الماءَ منها في قَدَحٍ عنده، ثم يتوضَّأ وُضوءاً مقتصِداً سَابغاً، ثم يلبس إزاره ورداءه ويخلع الخرقة التي كان يتَّزر بها، ثم يصلِّي صلاةَ الليل(٢).

ويلهج لربه بالذكر والتسبيح والتعظيم قبل أن يبدأ صلاة التهجد، وكأن ذلك لمزيد التهيُّؤ والاستفتاح لقيام الليل، قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسولُ الله ﷺ إذا هَبَّ منَ اللَّيل، كَبَّرَ عشراً، وحَمِدَ عَشْراً، وقال: «**سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**» عشراً، وقال: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**» عشراً، واستغفَرَ عشراً، وهلَّلَ عشراً، ثم

(١) ينظر: ما تقدم في سواك النبي ﷺ إذا قام من النوم في «أنوار الفجر».

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٣، ٩٩٢)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣). وينظر: ما تقدم في خلعه ﷺ إزاره ورداءه ولبسه الخرقة عند النوم، وسواكه كلما قام من الليل في «ليالي الرسول ﷺ».

قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ضِيقِ الدُّنْيَا، وَضِيقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» عَشْراً، ثم يفتتحُ الصلاةَ[١].

وكان يبتدئُ قيامَه بركعتين خفيفتين، وكما كان ﷺ أخفَّ الناس صلاةً إذا صلَّى بالناس، فقد كان أطولَهم صلاةً إذا صلَّى لنفسه، فصلاتُه في الليل أطول صلاته استفتاحاً وقراءة ودعاءً؛ امتثالاً لقول ربه: ﴿**قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا**﴾[٢].

والمتأمِّل لحاله ﷺ في تهجُّده، يستشعر أن صلاته بالليل صلاة مستغرقة، قد اجتمعت فيها كل مشاعره وأحاسيسه ونجواه، وكأنما عَرَجت روحه إلى الملأ الأعلى، وغشيته أنوار حجاب النور الإلهي؛ فهو ينظرُ إلى عرش ربه بارزاً، ويناجيه خالياً به، فحَمْدُه لربه أبلغ الحمد، وثناؤُه عليه أعظم الثناء، ودعاؤُه له أجمع الدعاء، ولا عجب؛ فهو الذي أُسري به حتى خُرِقت له السَّبع الطِّباق، وارتفع إلى مستوىً يسمعُ فيه صَرِيف[٣] الأقلام[٤].

فكان أعلم الخلق بالله، وأكملهم إيماناً، وأصدقهم يقيناً، وقال، وصدَقَ وبرَّ: «**إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ لَأَنَا**»[٥].

فإذا قام إلى صلاته استفتحها استفتاحَ المعظِّمِ لربه، المُحبِّ له والمُشتاق إليه، فاستفتاحُه جوامع التعظيم والحمد والثناء.

فمن فواتح صلواته إذا قام من الليل: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ**

---

(١) «مسند أحمد» (٢٥١٠٢)، و«سنن أبي داود» (٥٠٨٥)، و«سنن ابن ماجه» (١٣٥٦)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (٧٧٤٨، ٢١٩٠٨)، و«صحيح البخاري» (٧٠٨)، و«صحيح مسلم» (٤٦٩، ٧٦٥).

(٣) وصريف الأقلام: صوتها عند الكتابة بها. ينظر: «النهاية» (٣/ ٢٥).

(٤) «صحيح البخاري» (٣٤٩، ٣٣٤٢)، و«صحيح مسلم» (١٦٣)، وغيرها.

(٥) «مسند أحمد» (٢٣٦٨٢)، و«صحيح البخاري» (٢٠)، و«سنن أبي داود» (٢٣٨٩)، وغيرها.

تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[١].

ومنها: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»[٢].

ومنها: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ، ظَلَمْتُ نَفْسِي، وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[٣].

ثم إذا قرأ فإنه يقرأ قراءة مترسِّلة مرتَّلة، لا يمرُّ بآية رحمة إِلَّا سأل، ولا آية عذاب إلا استعاذ، ولا آية تسبيح إلا سبَّح[٤].

(١) «صحيح مسلم» (٧٧٠)، و«سنن أبي داود» (٧٦٧)، و«جامع الترمذي» (٣٤٢٠)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١١٢٠، ٧٤٩٩)، و«صحيح مسلم» (٧٦٩)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٧٢٩)، و«صحيح مسلم» (٧٧١)، و«سنن أبي داود» (٧٦٠)، وغيرها.

(٤) «مسند أحمد» (٢٣٣١١)، و«صحيح مسلم» (٧٧٢)، و«سنن أبي داود» (٨٧٣)، وغيرها.

وكان يرفع صوته بقدر ما يسمع من حوله، عملاً بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾، فكان يقرأ في داخل البيت فيسمعه مَن في الحجرة ـ وهي فناء البيت ـ أي أنه لا يرفع صوته كثيراً، ولا يُسِرُّه كثيراً بحيث لا يسمعه أحد[١].

وكان إذا قام أطال قيامه؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: صليتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلةً، فلم يزل قائماً حتى هممتُ بأمر سوء. قيل: وما هممتَ به؟ قال: هممتُ أن أقعد وأَذَرَ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم[٢].

وقد يطيلُ القراءة ويقلِّل الركعات، وقد يقتصد في القراءة، فيزيد في الركعات، ولم تزد صلاته بالليل على ثلاث عشرة ركعة[٣].

وكان يطيل ركوعه، فكان ركوعه قريباً من قيامه[٤].

وكان يقول في ركوعه: «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، وعليك توكلتُ، أنت ربي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَلَحْمِي وَدَمِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْكِبْرِيَاءَ وَالعَظَمَةِ، سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[٥].

وكان يكثرُ أن يقولَ في آخر حياته في ركوعه وسجوده: «**سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**». فسألته عائشة رضي الله عنها عن ذلك؟ فقال: «**أَخْبَرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلامَةً في أُمَّتِي فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**

(١) «مسند أحمد» (٢٤٤٦)، و«سنن أبي داود» (١٣٢٧)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١١٣٥)، و«صحيح مسلم» (٧٧٣)، وغيرها.

(٣) «صحيح البخاري» (١١٧٠)، و«صحيح مسلم» (٧٣٧، ٧٣٨)، و«الفتح» (٣/ ٢١).

(٤) «مسند أحمد» (٢٣٣٦٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٢)، وما تقدم في قراءته صلى الله عليه وآله وسلم مترسِّلة مرتَّلة في «أنوار الفجر».

(٥) «مسند أحمد» (٩٦٠، ٢٤٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (٤٨٧، ٧٧١)، و«سنن أبي داود» (٨٧٣)، وغيرها.

أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ، فَقَدْ رَأَيتُهَا: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾»[١]. وكان هذا إيذاناً بدنو أجله، وقرب لحوقه بالرَّفيق الأَعْلَى.

وكان يطيل سجوده قريباً من ركوعه، ويبتهل فيه إلى ربه بأنواع المسألة، فهو الذي قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[٢].

وكان يقول في سجوده: «**اللهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، اللهمَّ اغفر لي ذِنْبي كُلِّهِ، دِقَّهُ وَجِلَّه، وَأَوَّله وآخِرَه، وَعَلانِيَتِهِ وَسِرَّه، اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ، سُبُّوحٌ قدُّوسٌ، ربُّ الملائِكَةِ وَالرُّوح**»[٣].

ويا لله لهذا النبي الكريم وهو يخافت ربه في سكون الليل بهذه النجوى، ويذكر ربه هذا الذكر المفعم بالتقديس والتعظيم والتألُّه والاستكانة، أي أفق علوي تعرُج إليه روح هذا النبي وتسمُو إليه أشواقه وهو يذكر هذا الذكر ويتبتَّل لربه هذا التبتُّل؟! لكأن جبال الأرض تُصْغِي إليه، ونجوم السماء تومض له، ثم تتناجى وتقول: هذا الذي أنزل عليه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

ولا يزال نبيُّك ﷺ يقطع آناء الليل بين قراءةٍ خاشعة ومسألةٍ ضارعة وتسبيحٍ قدسي، إلى أن يبقى سدس الليل.

(١) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (٩٤٦١)، و«صحيح مسلم» (٤٨٢)، و«سنن النسائي» (٧٢٢)، وغيرها.

(٣) «صحيح مسلم» (٤٨٣، ٤٨٦، ٤٨٧، ٧٧١)، و«سنن ابن ماجه» (١٠٥٤، ٣٨٤١)، وغيرها.

يبيـتُ يجافـي جنبَـه عـنْ فِرَاشِـه ... إذا استثقلَتْ بالمشركينَ المضاجعُ[(١)]

فإذا أتم قيامه وأراد أن يُوتر أيقظ زوجته لتُوتر معه[(٢)]، وهذا من رفقه بهن وحسن تعليمه لهن، فعائشة فتاة حديثة السن لا تطيق ما يطيق من طول القيام، فيعرض عليها ما تطيقه، وتدرك به بركة الصلاة معه، وهو الوتر آخر الليل.

وكان يُوتر بثلاث ركعات، يقرأ في الأولى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكان يضيف إليها أحياناً: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[(٣)].

وكان يقول في آخر وتره: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي نِعَمَكَ وَلَا ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٤)].

فإذا فرغ من وتره قال: «**سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ، سُبْحَانَ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ**». يطيلُ الثالثةَ ويمد بها صوته[(٥)].

وقد كان يقوم في صلاته قياماً طويلاً حتى تفطرت قدماه، وذلك أن بيئة المدينة الجافة تتشقق أقدام الناس فيها وبخاصة في فصل الشتاء، ويكثر ذلك لدى أصحاب الأعمال التي تحتاج إلى طول قيام كالفلاحين والبنائين.

وكان عمل النبي ﷺ الذي تفطرت منه قدماه طول قيامه في صلاة الليل.

قالت عائشة رضي الله عنها: كان النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فقلت:

---

(١) «صحيح البخاري» (١١٥٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٥١٢، ٩٩٧)، و«صحيح مسلم» (٥١٢، ٧٤٤)، وغيرها.

(٣) «مسند أحمد» (٢٧٢٠)، و«سنن أبي داود» (١٤٢٣)، و«جامع الترمذي» (٤٦٢)، وغيرها.

(٤) «مسند الطيالسي» (١٢٥)، و«مسند أحمد» (٧٥١، ٩٥٧)، و«سنن أبي داود» (١٤٢٧)، وغيرها.

(٥) «مسند أحمد» (١٥٣٥٤-١٥٣٦٢)، و«سنن النسائي» (١٤٣٣)، وغيرها.

لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: «**أَفَلَا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً؟**»[١].

وعندما ثَقُل ﷺ في آخر عمره وبَدَّن جسمه لم يعد يطيق من القيام ما كان يطيق، فكان يصلي قيام الليل جالساً كما أخبرت عائشة: أَنَّهَا لَمْ تَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُصَلِّي صَلَاةَ اللَّيْلِ قَاعِداً قَطُّ حَتَّى أَسَنَّ، فَكَانَ يَقْرَأُ قَاعِداً، حَتَّى إِذَا أَرَادَ أَنْ يَرْكَعَ قَامَ، فَقَرَأَ نَحْواً مِنْ ثَلَاثِينَ آيَةً ـ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً ـ ثُمَّ رَكَعَ[٢].

وعنها قَالَتْ: لَمَّا بَدَّنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَثَقُلَ، كَانَ أَكْثَرُ صَلَاتِهِ جَالِساً[٣].

وعن أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: مَا قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى كَانَ أَكْثَرَ صَلَاتِهِ جَالِساً[٤].

وقد كان نبيُّك ﷺ يصلِّي في حجرته التي زوى عنها ترف العيش ونَعِيم الدنيا، فربَّما صلَّى على الخُمْرة، وهي حَصِير صغير بقدر ما يسجد عليه، قَالَتْ مَيْمُونَةَ رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُصَلِّي عَلَى الْخُمْرَةِ، فَيَسْجُدُ، فَيُصِيبُنِي ثَوْبُهُ وَأَنَا إِلَى جَنْبِهِ وَأَنَا حَائِضٌ[٥]، وقد صلَّى ولا فراش له إلَّا فراش زوجته التي تنام عليه، فيصلِّي وهي معترضة أمامه، ولم يكن في بيوتهم مصابيح، فإذا أراد أن يسجد غمزها، فتكف رجليها عن موضع سجوده، فإذا قام بسطتها[٦].

ويخرج أحياناً فيصلَّى في المسجد، وكأنما يفعل ذلك لأمر عارض، أحسبه خشية أن يوقظ زوجته بصلاته إذا صلَّى عندها وهي نائمة، فيصلِّي في المسجد، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: فقدتُ النبيَّ ﷺ ليلةً في الفراش، فالتمستُه، فوقعتْ

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠)، وغيرها.

(٢) «صحيح البخاري» (١١١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٧٣٢).

(٤) «مسند أحمد» (٢٦٥٤٤)، و«سنن ابن ماجه» (١٢٢٥).

(٥) «مسند أحمد» (٢٦٨٠٨)، و«صحيح البخاري» (٣٧٩).

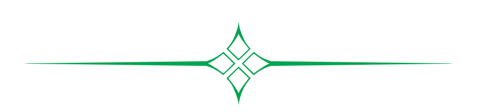
(٦) «صحيح البخاري» (٣٨١، ٣٨٢، ١٢٠٩)، و«صحيح مسلم» (٥١٢).

يدي على بطن قدميه وهما منصوبتان في المسجد، وهو يقول: «**اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(١)].

وقالت أيضاً: فقدتُه ذاتَ ليلةٍ، فظننتُ أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسَّستُ، ثم رجعتُ، فإذا هو راكع أو ساجد، يقول: «**سُبْحَانَكَ وَبِحَمْدِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**». قالت: فقلتُ في نفسي: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، أنا في شأن، وأنت في شأن آخر![(٢)]

إن هذه المناجاة الخفية تبين كيف يتلذذ هذا النبي بمناجاته ربه، ويستغرق في خلوته بصلاته حتى لم تشعر به زوجته حين قام، ولم يشعر بها حين أتت.

كما أن صلاته الخفية التي لم تعلم بها زوجته إلا بعد أن بحثت عنه وتحسَّست مكانه لتسمع هذه المناجاة النبوية تعد من دلائل نبوته، فعبادة السر لا تكون إلا من إيمان عميق، ويقين راسخ، ولا يمكن أن يتكلَّفها مدَّعٍ ولا متقول.



(١) «مسند أحمد» (٢٥٦٥٥)، و«صحيح مسلم» (٤٨٦)، و«سنن أبي داود» (٨٧٩)، وغيرها.

(٢) «مسند أحمد» (٢٥١٧٨)، و«صحيح مسلم» (٤٨٥)، و«سنن النسائي» (٨٨٥٩)، وغيرها.



صورة للحصير، وهو فراش ينسج من سعف النخل
فإن كان صغيراً بقدر سجادة الصلاة سُمي: خُمرة





خطوات في سكون الليل

ويخرج أحياناً في آخر الليل وقت التهجد إلى بيت ابنته فاطمة وزوجها علي عليهما السلام، وكان بيتها لِصْقَ بيته فيطرقهما ويناديهما: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟**». قال عليٌّ رضي الله عنه: فقلتُ: يا رسولَ الله، والله ما نصلِّي إِلَّا ما كُتب لنا، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين قلتُ له ذلك، ولم يَرْجِع إليَّ شيئاً، ثم سمعتُه وهو مُدْبِر يضرب على فخذه، ويقول: «**مَا نُصَلِّي إِلَّا مَا كُتِبَ لَنَا! ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾**»[1].

وهنا نلاحظ الرفق في الموعظة.. فقد جاءت على طريقة العرض والإغراء، لا الأمر المباشر: «**أَلَا تَقُومَانِ فَتُصَلِّيَانِ؟!**». ثم نلحظ ترك الإلحاح في ذلك، مراعاة لحال الشباب، وهي حال عليٍّ وفاطمة، وهذا من حكمة الدعوة وحسن الموعظة، حيث تَفَهَّمَ النبي صلى الله عليه وسلم رغائب الشباب وظروفهم، فعلي وفاطمة شَبَبَةٌ حديثو عهد بعرس ولذا لم يراجعهم النبي صلى الله عليه وسلم فيما قال علي ولمَ يجادل، وإنما اكتفى بالإيقاظ، وانصرف مرسلاً هذا العتاب اللطيف: **﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾**.

وكان في آخر حياته يخرج في الليل إلى البَقِيع، فيدعو لهم، وكان أول ذلك ما أخبرت به عائشةُ رضي الله عنها قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيها

(١) «صحيح البخاري» (١١٢٧، ٧٣٤٧)، و«صحيح مسلم» (٧٧٥)، وغيرها.

عندي، انقلبَ فوضعَ رداءَه، وخلع نعليه فوضعَهُما عند رجليه، وبَسَطَ طَرَف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبثْ إلا رَيْثَما ظنَّ أن قد رقدتُ، فأخذ رداءَه رُويداً، وانتعل رُويداً، وفتح الباب فخرج، ثم أَجَافَه رُويداً[١]، فجعلتُ دِرْعِي في رأسي، واختمرتُ وتقنَّعتُ إزاري[٢]، ثم انطلقتُ على إِثْرِه.

حتى جاء البَقِيعَ، فقام فأطالَ القيامَ، ثم رفع يديه ثلاثَ مراتٍ، ثم انحرف فانحرفتُ، فأسرعَ فأسرعتُ، فهَرْوَلَ فهَرْوَلْتُ، فأَحْضَرَ فَأَحْضَرْتُ[٣]، فسبقتُه فدخلتُ، فليس إلا أن اضطجعتُ فدخل، فقال: «**مَا لَكِ يَا عَائِشُ؟ حَشْيَا رَابِيَةً**[٤]**؟**». قالت: قلتُ: لا شيء. قال: «**لَتُخْبِرِينِي، أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**». قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمي.. فأخبرتُه، قال: «**فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي؟**». قلتُ: نعم. فلَهَدَني في صدري لهدةً أوجعتني[٥]، ثم قال: «**أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ**[٦] **اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟**». قالت: مَهْما يكتُمِ الناسُ يعلَمْه اللهُ، نعم. قال: «**فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ فَنَادَانِي، فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ، وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ، فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**».

---

(١) أي: أغلقه برفق. ينظر: «النهاية» (١/ ٣١٧) (٢/ ٢٧٦).

(٢) أي: لبسته. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/ ٣٧).

(٣) الهرولة بين المشي والعدْو، وهي فوق الإسراع. والإحضار فوق الهرولة. ينظر: «إكمال المعلم» للقاضي عياض (٣/ ٤٤٩).

(٤) أي: ثائرة النَّفَس. ينظر: «المعلم بفوائد مسلم» (١/ ٤٩٣).

(٥) اللَّهْد: الدفع الشديد في الصدر. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٧/ ٣٨).

(٦) الحيف: الجور والظلم. ينظر: «المفهم» للقرطبي (٢/ ٦٣٥).

قالت: قلتُ: كيف أقولُ لهم يا رسولَ الله؟ قال: «**قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا، وَالْمُسْتَأْخِرِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَلَاحِقُونَ**».

ثم كان بعد ذلك يخرج كل ليلة من آخر الليل إلى البَقِيع، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كلما كانت ليلتها من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَانَا وَإِيَّاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَداً مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ**»[1].

ويا لله لهذا النبيِّ الذي يَسْرُبُ في سكون الليل ليقف أمامَ قبور أصحابه الذين قَضَوْا نحبهم قبل أن يروا نصرَ الله والفتح ودخولَ الأفواج في دين الله، مَضَوْا إلى ربهم في وقت القِلَّة والشِّدَّة والصبر واللَّأْوَاءِ والمصابرة، فأَفْضَوا إلى ربهم، ولم يتعجَّلوا شيئاً من أجورهم.

ثم ها هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم تشغله أفواجُ الوافدين عليه، ولا مشاغلُ انفساح رُقعة الإسلام بين يديه، فإذا هو يقتص من وقت راحته وسكونه وقتاً يقف فيه أمام قبورهم، يستعيد ذِكْرى أطيافهم المباركة، باسطاً يديه في موقِف دعاء ووفاء.

كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُوشكُ أن يودِّعَ الدنيا، فجعلَ يودِّعُ الأمواتَ والأحياءَ قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى والمَحَلِّ الأَسْنَى.



(١) «مسند أحمد» (٨٨٧٨، ٢٤٨٠١، ٢٥٨٥٥)، و«صحيح مسلم» (٩٧٤)، و«سنن أبي داود» (٣٢٣٧)، و«صحيح ابن حبان» (٣١٧٢، ٤٥٢٣).

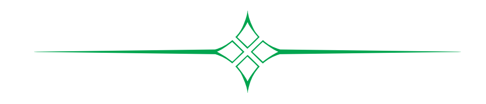




إغفاءة السَّحَر

فإذا تدافعت ساعاتُ الليل، ولم يبقَ منه إلا صُبابَتُه الأخيرةُ، وسُدُسُه الأخيرُ، أَوَى رسولُ الله ﷺ إلى فراشه؛ ليريح البدنَ الشريفَ بعد سَبْحِ ليلٍ طويلٍ؛ ذِكْراً وصلاةً ودعاءً وتعاهداً للأقارب الأحياء، وللأصحاب الأموات، فيَهْجَعُ هجعةً يُجِمُّ بها بدَنَه بعد القيام، ويهيِّئه لاستقبال صلاة الصبح وعمل النهار بنشاط وإقبال، فتتقصَّف سُويعةُ السَّحَر ونبيُّك ﷺ مستغرق في نومه، تقولُ أُمُّنا عائشةُ رضي الله عنها: ما أَلْفَى رسولَ الله ﷺ السَّحَر عندي إلا نائماً(١).

ويظلُّ ﷺ في نومته تلك حتى يَصْدَعَ نورُ الفجر ظلمةَ الليل؛ ويَصْدَعَ أذانُ بلالٍ سكونَ المدينة، فيستيقظُ رسولُ الله ﷺ، ويبتدئُ يومٌ نبويٌّ جديدٌ، معطَّرٌ بأنفاس النبوَّة، مُنَوَّر بأنوار الرِّسالة.



(١) «صحيح البخاري» (١١٣٣)، و«صحيح مسلم» (٧٤٢)، وغيرها.





أيام الأسبوع

لبعض أيام الأسبوع خصوصية في الفضل، واختصاص بصالح العمل، وبأحكام ليست في غيرها من الأيام، وللنبي ﷺ فيها هديه وسُنَنُه، **ومنها:**

يوم الجمعة

كان للنبي ﷺ حفاوة بيوم الجمعة وتعظيم له، فكان يذكر فضل الله به على أمته وهدايتهم له، وتميزهم به على غيرهم من الأمم، فقال ﷺ: «**أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ**»(١).

ويذكر ما فيه من الخير، وما قدر الله فيه من أحداث الكون فيقول: «**خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا**»(٢).

وهو عيد الأسبوع؛ فله بهاؤه وزينته، واجتماعه وهيئته، ولذا نهى عن صيامه فقال: «**إِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ يَوْمُ عِيدٍ، فَلَا تَجْعَلُوا يَوْمَ عِيدِكُمْ يَوْمَ صِيَامِكُمْ**»(٣)، وقال:

(١) «صحيح مسلم» (٨٥٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٥٤).

(٣) «مسند أحمد» (٨١٤٠).

«**لَا يَصُومَنَّ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَّا يَوْماً قَبْلَهُ أَوْ بَعْدَهُ**»[١]. وهو بهذا يشبه يوم العيد الذي يحرم صيامه، وذلك أن تخصيصه بالصيام يضعف الإنسان عما فيه من الشعائر، ولا يناسب صيامه مع حال الزينة والاجتماع فيه.

وكان ﷺ يعظِّم هذا اليوم ويخصه بعبادات فيه دون غيره من الأيام؛ فمن ذلك أنه كان يقرأ في فجر الجمعة سورتي «السجدة» و«الإنسان»؛ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون في ذلك اليوم، فإنهما اشتملتا على ذكر خَلْق آدم، وذكر المعاد وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وفيهما تذكير بأحوال الآخرة، وحال أهل الجنة ونعيمهم، وحال أهل النار وعذابهم، ففيهما موعظة وذكرى.

وأَمر بالتهيؤ لصلاة الجمعة والاستعداد لحضورها بالنظافة وجمال الملبس وطيب الرائحة، وحسن الأدب في المسجد.

فأمر بالاغتسال لحضورها فقال: «**الْغُسْلُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُحْتَلِمٍ**»[٢]، وعن طَاوُس قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: ذَكَرُوا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اغْتَسِلُوا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَاغْسِلُوا رُؤُوسَكُمْ، وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا جُنُباً، وَأَصِيبُوا مِنَ الطِّيبِ**». قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا الْغُسْلُ فَنَعَمْ، وَأَمَّا الطِّيبُ فَلَا أَدْرِي[٣].

وعن عبد الله بن سلَام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر يوم الجمعة: «**مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوِ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبَيْ مِهْنَتِهِ؟**»[٤].

وكان ﷺ يلبس ليوم الجمعة أجمل ثيابه، وهذا من الحفاوة بالشعيرة وباجتماع الناس لها، ويدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما رَأَى عُطَارِداً[٥] يَبِيعُ

(١) «صحيح البخاري» (١٩٨٥)، و«صحيح مسلم» (١١٤٤)، وغيرها.
(٢) «صحيح البخاري» (٨٥٨)، و«صحيح مسلم» (٨٤٦).
(٣) «صحيح البخاري» (٨٨٤)، و«صحيح مسلم» (٨٤٨).
(٤) «سنن أبي داود» (١٠٧٨).
(٥) عطارد هو صاحب الحلة. ينظر: «الفتح» (٢/ ٤٣٥).

حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَأَيْتُ عُطَارِداً يَبِيعُ حُلَّةً مِنْ دِيبَاجٍ، فَلَوِ اشْتَرَيْتَهَا فَلَبِسْتَهَا لِلْوُفُودِ وَلِلْعِيدِ وَلِلْجُمُعَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّمَا يَلْبَسُ الْحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ**»[١].

وإنما قال عمر: لو اشتريتها فلبستها للوفود وللعيد وللجمعة؛ لِما علم من عادته ﷺ في التجمل باللباس للعيد والجمعة.

ومن كمال الاحتفاء بيوم الجمعة التطيب له بما يجد الإنسان من الطيب حتى يكون لاجتماع الناس في المسجد عبق ورائحة زكية، ولذا حث ﷺ على التطيب لشهود الجمعة فقال: «**لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى**»[٢].

ومن ثَمَّ كان الصحابة بعد أن وسَّع اللهُ عليهم يُبخِّرون المسجد بروائح البخور الزكية يوم الجمعة قبل الصلاة، فعن نُعيم بن عبد الله المُجْمِر، أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أن يبخر مسجد المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار، وكان نُعيم بن عبد الله هو الذي يتولَّى ذلك فيهيِّئ الجمر للبخور ويبخر به المسجد فسُمِّي: نُعيم المُجْمِر[٣].

ومن آداب يوم الجمعة التي أكد عليها ﷺ وأمر أصحابه بها السكينة حين السعي إليها، والنهي عن أذية الناس بتخطي رقابهم، والإنصات للخطيب حين يخطب فلا يعبث ولا يتكلم مع أحد، وقد جمع هذه الآداب في قوله ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَمَسَّ مِنْ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ، وَلَبِسَ مِنْ أَحْسَنِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ خَرَجَ**

---

(١) «مسند أحمد» (٦٤٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» (٨٨٣).

(٣) ينظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥/ ٢٢٧)، و«تهذيب الكمال» للمزي (٣/ ١٤٢١).

وَعَلَيْهِ السَّكِينَةُ حَتَّى يَأْتِيَ الْمَسْجِدَ فَيَرْكَعَ إِنْ بَدَا لَهُ، وَلَمْ يُؤْذِ أَحَداً، ثُمَّ أَنْصَتَ إِذَا خَرَجَ إِمَامُهُ حَتَّى يُصَلِّيَ، كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى»[(١)].

وفي هذه الآداب من النظافة، وحسن الهيئة، وطيب الرائحة، وأدب المعاشرة، تعظيمٌ للشعيرة ولليوم المبارك، كما أنها تربية للناس على آداب السلوك في المجامع العامة.

وقد كان ذلك في بيئة فقيرة صحراوية لم تكن تتعاهد ذلك أو توليه هذه العناية، فكان في هذا الأدب النبوي تأهيلٌ للأمة لرعاية الذوق العام في الهيئة والتعامل.

وكان أهل المدينة يقصدون مسجد النبي ﷺ ويشهدون معه الجمعة، فيأتون من نواحي المدينة المتفرقة عاليتها وسافلتها فكان يوم الجمعة يوم اجتماع أهل المدينة من أحيائهم المتفرقة المتباعدة ليلتقوا بالنبي ﷺ ويستمعوا إليه، ويَلْقى بعضهم بعضاً، فهي الجمعة الجامعة.

فإذا اجتمع الناس وزالت الشمس خرج ﷺ بعد الزوال مباشرة فإذا دخل المسجد سلَّم عليهم، ثم يصعد المنبر ويستقبل الناس بوجهه ويسلِّم عليهم ثم يجلس، فيأخذ بلال في الأذان، فإذا فرغ قام ﷺ فخطب خطبتين يجلس بينهما جلسة خفيفة.

وكان منبره ثلاث درجات، يقف على الثانية ويجلس على الثالثة، وكان غربي المسجد وهو مكان المنبر اليوم.

وكان قبل اتخاذ المنبر يخطب مستنداً إلى جذع في قبلة المسجد، فلما وضع المنبر وقام عليه أول مرة حن الجذع حنيناً كصوت العِشار[(٢)] حتى سمع صوتَه

(١) «مسند أحمد» (٢٤٠٥٥).

(٢) العِشار: جمع عُشَراء وهي الناقة الحامل التي مضت لها عشرة أشهر. ولا يزال ذلك اسمها إلى أن تلد، مثّل صوت الجذع بحنين العشار عند فراق أولادها. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢١٧).

أهلُ المسجد، فنزل ﷺ وضمه فسُمِع صوتُه كالصبي الذي يُسكَّت حتى سكت، فَقَالَ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ تَرَكْتُهَا لَحَنَّتْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[(١)].

وكان ﷺ إذا خطب أقبل على الصحابة بوجهه وأقبلوا إليه بوجوههم، وكان يأمرهم بالدنو منه والإنصات له، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه: أنصت، فقد لغا، وإذا مس الحصا فقد لغا، ومَن لغا فلا جمعة له[(٢)].

وكانت خُطب النبي ﷺ تجمع صدق اللهجة، وحرارة الانفعال، وقوة التأثير، مع وجازة الخطاب.

قام ﷺ يوماً خطيباً فجعل يقول في خطبته: «**أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمْ النَّارَ**». حتى علا صوته، فسمعه مَن في السوق، وحتى سقطت بردة كانت على عاتقه عند رجليه[(٣)].

إن هذا المشهد في مقام النبي ﷺ ذلك يبين مدى الانفعال والتفاعل منه ﷺ في خطبه مع ما يقول، وهذا الانفعال دليل من دلائل النبوة، فإنه يبين تشبعه بما يقول، وعظيم يقينه به، حتى يظهر منه هذا التأثر والانفعال.

وقد لاحظ الصحابة هذا التأثر منه في خُطَبِهِ فوصفوه بأنه كان إذا خطب علا صوته، واحمرت عيناه، واشتد غضبه، كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»[(٤)].

وكما يدل ذلك على خطر الأمر الذي يتكلم فيه، حتى تأثر هذا التأثر وانفعل هذا الانفعال.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٥٨٤).

(٢) «مسند أحمد» (٧١٩)، و«صحيح البخاري» (٩٣٤)، و«صحيح مسلم» (٨٥١).

(٣) «مسند أحمد» (١٨٣٩٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٦٧).

وإذا خطبت فللمنابر هزة تعرو النَّدِيَّ وللقلوب بكاء[١]

وكان من عادته إذا خطب أن يعتمد على عصا[٢] أو قوس[٣]، واعتماد الخطيب على قوس أو عصا عادة عربية جرى فيها النبي ﷺ على عادة قومه[٤]، كما كان من عادته أن يحمل في يده عصا أو عسيب نخل يتوكأ عليه إذا مشى[٥] على عادة العرب في ذلك، ولذا فإن حمل العصا في الخطبة من سنن العادة لا العبادة[٦].

وكان ﷺ إذا خطب بدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله، ثم يتشهد الشهادتين، وكان يقول: «**كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشَهُّدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَذْمَاءِ**»[٧].

وكان كثيراً ما يخطب بآيات القرآن، وسوره الواعظة، قال جابر بن سمرة: كان رسول الله ﷺ يخطب قائماً[٨]... ويقرأ آيات من القرآن ويذكُر الله، وقالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان: ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا من فِيِّ رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٩].

وذلك لما في سورة «ق» من المواعظ والتذكير بالموت والبعث وأحوال الآخرة.

وكانت خُطَبه في الجمعة مواعظ يؤكد فيها على قضايا الدين الكبرى، وتقرير أصول الإيمان، وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته، وما توعد به أعداءه وأهل معصيته.

---

(١) من قصيدة الهمزية النبوية لشوقي. «الشوقيات» (ص: ٤٢).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (٥٤٠٠).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٥٣٣٠).

(٤) ينظر: «البيان والتبيين» (٣/ ٨٠)، و«تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف (٤١٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٤٧٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٤).

(٦) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٠).

(٧) «مسند أحمد» (٨٠١٨).

(٨) «صحيح مسلم» (٨٦٢).

(٩) «صحيح مسلم» (٨٧٣).

فيملأ القلوب إيماناً بالله وتعظيماً وإجلالاً له، ومهابة للقائه والمنقلب إليه، حتى كأنما الجنة والنار رأي عين، فتوجل القلوب وتذرف العيون، حتى يُكب الصحابة رؤوسهم ولهم خنين من البكاء.

ولعل هذا هو ما يفسر عدم نقل خطب الجمعة التي خطبها النبي ﷺ في المدينة مع أنها نحو من خمسمئة خطبة، وذلك لأنها مواعظ عامة تؤكد على قضايا كبرى تكررت مضامينها في آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ.

وكان يوجز الخطبة ويطيل الصلاة ويقول: «**إِنَّ طُولَ صَلَاةِ الرَّجُلِ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ، مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ. فَأَطِيلُوا الصَّلَاةَ وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْراً**»[١].

ومع إقباله على خطبته، وإقبال الناس عليه فيها فإنه لم يكن صارماً في خطبته إلى حد الزماتة والوقار الشديد المتكلف، ولم تكن مهابته تمنع أحداً أن يكلمه وهو يخطب، ولم يكن وقاره يمنعه أن يكلم أحداً وهو يخطب، أو يقطع خطبته لعارض يعرض له ثم يرجع فيتمها، فقد كان ﷺ يخطب يوم الجمعة فجاء سُليك الغَطَفاني فجلس فقال له: «**يَا سُلَيْكُ قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ وَتَجَوَّزْ فِيهِمَا**»[٢]، وكان يخطب يوماً على المنبر، فدخل الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ فأخذهما فصعد بهما المنبر، ثم قال: «**صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، فَنَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا**»[٣]. ثم أخذ في خطبته فأتمها.

وكان ﷺ يخطب مرة يوم الجمعة فدخل أعرابي فاستقبل رسول الله ﷺ

(١) «صحيح مسلم» (٨٦٩).
(٢) «صحيح مسلم» (٨٧٥).
(٣) «سنن أبي داود» (١١٠٩).

قائماً ثم قال: يا رسول الله هلكت الأموال، وجاع العيال، وانقطعت السبل، فادع الله تعالى أن يسقينا.

وبأبي وأمي رسول الله ﷺ وهو يسمع هذا الأعرابي الذي لم يجلس فيستمع ثم يكلم النبي ﷺ بعد أن ينهي خطبته وصلاته، وإنما بادر بحاجته وقطع على النبي ﷺ خطبته، فما أغضب ذلك النبي ﷺ ولا أَحْفَظَهُ وإنما بادر بالاستجابة لهذا الأعرابي، واستشعر حاجته التي ألجأته لذلك، ورفع يديه يدعو ويستغيث حتى نزل المطر قبل أن ينزل هو عن منبره ﷺ[(١)].

ودخل تَمِيم بن أَسَد المسجد ورسول الله ﷺ يخطب فتوجه إليه وقال: يا رسول الله رجل غريب يسأل عن دينه ولا يدري ما دينه، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليه، فأُتي بكرسي قوائمه من حديد، فقعد عليه وجعل يعلمه مما علمه الله، فلما فرغ أتى خطبته فأتم آخرها[(٢)].

إن أشق شيء على الخطيب أن يقاطعه أحد أو يقطع عليه خطبته، ولكن نبينا ﷺ يتلقى هذا السائل الغريب بهذا الاهتمام والحفاوة، فيقطع الخطبة ويأتي هو إليه ولم يستدعه نحوه، ثم يجلس على كرسي حتى يسمع الناس حوله حوارهما فيتعلموا جميعاً، فيستمع إليه ويعلمه حتى إذا فرغ عاد إلى خطبته فأتمها.

إنه مشهد من مشاهد عظمةِ خُلقِه ﷺ، وعظيم رأفته ورحمته بالمؤمنين.

إن هذا النبي الكريم لم يكن يخطب كما يخطب الجبارون والمتكبرون، والذين يهمهم الحفاظ على رسومهم ومراسم هيبتهم، ولكنه كان يخطب داعياً وهادياً، حتى في هذا المقام يَظْهر حسنُ تعامله وتواضعُه ولينُ جانبه واستيعابهُ

---

(١) «صحيح البخاري» (١٠١٣)، و«صحيح مسلم» (٨٩٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٧٦).

لحاجات الناس وتفهمُه لظروفهم وطبائعهم، ولذا يقطع الخطبة لعثرات صبي جاء يمشي إليه، ولغريب جاء يسأله، ولمجهود جاء يطلب دعاءه.. فيسعهم جميعاً خلقه وبره، بل إنه ﷺ كان يخطب أصحابه يوم جمعة فجاءت قافلة من الشام تحمل طعاماً فانفض الناس إليها حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً: فنزلت: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾[١].

ومع ذلك لم ينقل أن النبي ﷺ عاتبهم أو لامهم أو دعا أحداً منهم فساءله أو وبخه، وإنما اكتفى بالعتاب القرآني اللطيف: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

إنه ﷺ الداعية الذي يحمل في قلبه محبة الخلق، والرحمة بهم، والحرص على هدايتهم، وتفهّم ما يعرض للنفوس البشرية من ضعف ونقص يسدد بالتربية الحكيمة والتوجيه الهادي الرفيق.

فإذا فرغ من خطبته الثانية أقام بلال الصلاة فصلى ﷺ بالناس، وكان يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و«الغاشية»، وتارةً بسورة «الجمعة»؛ لما تضمَّنته من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها، وترك العمل العائق عنها. ويقرأ في الثانية بسورة ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾؛ تحذيراً للأمة من النفاق المُرْدي، وتحذيراً لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكر الله عزوجل، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بدَّ، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالةٍ يطلبونَ الإقالة ويتمنَّون الرَّجعة فلا يُجابون إليها[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٩٩)، و«صحيح مسلم» (٨٦٣).

(٢) «زاد المعاد» لابن القيم (١/ ٥٢٩-٥٣٠).

وكان إذا صلَّى الجمعة دخل إلى منزله فصلَّى سنتها ركعتين، فعن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلِّي بعد الجمعة ركعتين في بيته[(١)].

وأمر مَن صلَّى الجمعة أن يصلِّي بعدها أربع ركعات فقال: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمُ الْجُمُعَةَ، فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ**»[(٢)].

وجمع بعض العلماء بينها أن مَن صلَّاها في المسجد صلَّاها أربعاً ومَن صلَّاها في بيته صلَّاها ركعتين[(٣)].

وكان ﷺ يبادر إلى صلاة الجمعة في أول وقتها فينصرف الناس منها يتتبعون الظل. قال سلمة بن الأكوع: كنا نُجَمِّع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس ثم نرجع نتتبع الفيء[(٤)]، أي: نتتبعه لقلته حيث لم يمتد بعد. وفي رواية: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ وليس للحيطان ظل يستظل به[(٥)]. أي: ليس ظلاً واسعاً يُستظل به، وإنما ظل قليل، ولذا فهم يتتبعونه.

وفي يوم الجمعة ينشغل ﷺ وينشغل الناس معه بالاستعداد للصلاة وشهود الجمعة، ولذا يتغير نظام اليوم عن بقية الأيام بسبب ذلك، **ومن ذلك:** تأخيرهم للغداء وهو الطعام الذي يؤكل غُدوةً في أول النهار فيؤخرونه بعد الجمعة لانشغالهم قبلها بالاستعداد لها والسعي إليها، وكذا يؤخرون القيلولة وهي النوم قبل الظهر فيجعلونها بعد الجمعة لانشغالهم قبلها. قال سهل بن سعد: ما كنا نقيل ولا نتغدَّى في عهد رسول الله ﷺ إلا بعد الجمعة[(٦)]،

---

(١) «صحيح البخاري» (٩٣٧)، و«صحيح مسلم» (٨٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٨١).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (١/ ٥٥٢).

(٤) «صحيح مسلم» (٨٦٠).

(٥) «صحيح البخاري» (٤١٦٨)، و«صحيح مسلم» (٨٦٠).

(٦) «صحيح البخاري» (٩٣٩)، و«صحيح مسلم» (٨٥٩).

أي أنهم ينشغلون عن الغداء والقيلولة بالتهيؤ للجمعة، ثم يتداركون طعامهم ونومهم وراحتهم بعدها، وقال جابر: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ثم نرجع إلى نواضحنا فنريحها[١]، أي أنهم يريحون جمالهم التي يستقون عليها بعد صلاة الجمعة لأنهم سيتغدون وينامون بعد الصلاة.

ومما ذكره ﷺ من فضائل يوم الجمعة وخصائصه أن فيه ساعة لا يوافقها عبد يسأل الله شيئاً من خيري الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة فقال: «**فِيهَا سَاعَةٌ لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهْوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأشار بيده يقلّلها[٢].

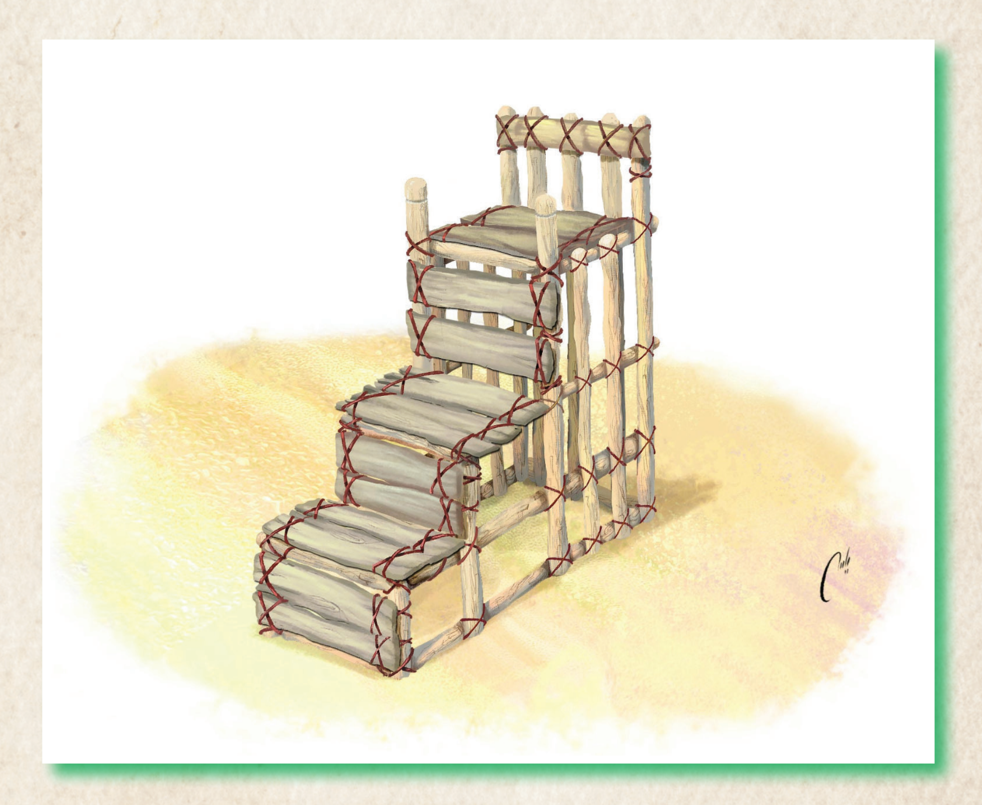
وقد اختُلِف في تحديد وقتها، وأقرب الأقوال في ذلك أنها في صلاة الجمعة في مواطن الدعاء منها كالسجود ودبر الصلاة، لحديث: «**لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهْوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئاً إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**». وأفضل الصلاة يوم الجمعة صلاة الجمعة، ولحديث أبي موسى قال عن ساعة الجمعة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هِيَ مَا بَيْنَ أَنْ يَجْلِسَ الْإِمَامُ إِلَى أَنْ تُقْضَى الصَّلَاةُ**»[٣].

ولم أقف في الأحاديث على ما يدل أن النبي ﷺ كان يخص عشية الجمعة بعمل خاص، ولا أن نمط حياته يتغير آخر يوم الجمعة عن بقية الأيام، ولم أجد فيما روي عن الصحابة رضي الله عنهم ما يدل على ذلك، والله أعلم.

(١) «صحيح مسلم» (٨٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٣٥)، و«صحيح مسلم» (٨٥٢). وقد ذكر ابن القيم من خصائص يوم الجمعة ثلاثاً وثلاثين، ثم أوصلها السيوطي إلى مئة. ينظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٦٣-٤٢٥)، و«نور اللمعة في خصائص الجمعة» للسيوطي.

(٣) «صحيح مسلم» (٨٥٣).



رسم تخيلي للمنبر النبوي

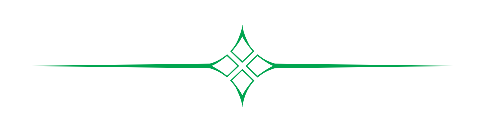
صنع من أشجار غابة المدينة، وكان بسيطاً وصغيراً بقدر الحاجة، وارتفاع المنبر من الأرض إلى مكان جلوس النبي ﷺ (متر تقريباً)، وله درجتان، وكل درجة عرضها (ربع متر تقريبا) وارتفاعها مثل ذلك، ودرجة ثالثة هي البسطة التي كان يجلس عليها النبي ﷺ وهي الدرجة العليا من المنبر عرضها (نصف متر في نصف متر)، وقد بقي المنبر في المسجد النبوي إلى أن احترق المسجد سنة (٦٥٤هـ). «وفاء الوفاء» (١٢/٢).

يوم الاثنين

كان للنبي ﷺ تعظيم ليوم الاثنين بالصيام، وحفاوة بما فيه من ذكريات، وما جرى فيه من الخير والفضل.

فعن أبي قتادة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَيَوْمٌ بُعِثْتُ فِيهِ**»(١).

وقد وُلد رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ونُبِّئ يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الإثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وفتح مكة يوم الإثنين، وتوفي يوم الاثنين(٢).



(١) «صحيح مسلم» (١١٦٢).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي (٧/ ٢٣٣)، و«التمهيد» لابن عبد البر (٢١/ ٢٦٣).

يوم الخميس

وكان ﷺ يعظم يوم الخميس بالصيام، ويذكر ما يشترك فيه مع يوم الاثنين من الفضائل، وما يتكرر فيه من مواسم الفضل، وعرْضِ الأعمال على الله عز وجل، وأنهما يومان يغفر الله فيهما ذنوب عباده، وتُفتح فيهما أبواب الجنة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَحَرَّى صَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالخَمِيسِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[(٢)].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تَصُومُ حَتَّى لَا تَكَادَ تُفْطِرُ، وَتُفْطِرُ حَتَّى لَا تَكَادَ أَنْ تَصُومَ، إِلَّا يَوْمَيْنِ إِنْ دَخَلَا فِي صِيَامِكَ وَإِلَّا صُمْتَهُمَا، قَالَ: «**أَيُّ يَوْمَيْنِ؟**». قُلْتُ: يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، قَالَ: «**ذَانِكَ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الْأَعْمَالُ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً، إِلَّا رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا**»[(٤)].

---

(١) «جامع الترمذي» (٧٤٥)، و«سنن النسائي» (٢٣٥٩)، و«سنن ابن ماجه» (١٧٢٩).

(٢) «جامع الترمذي» (٧٤٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٢٤٣٦)، «سنن النسائي» (٢٣٥٨).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٥٦٥)، و«سنن ابن ماجه» (١٧٤٠).

وفتْحُ أبواب الجنة في هذين اليومين محمولٌ على ظاهره، ويكون فتحها تأهلاً وانتظاراً من الخزنة لروح من يموت في ذينك اليومين ممن غفرت ذنوبه، أو يكون فتحها علامة للملائكة على أن الله تعالى غفر في ذينك اليومين للموحدين، والله تعالى أعلم[(١)].



(١) «المفهم» للقرطبي (٦/ ٥٤٠).





أيام العام

لبعض أيام العام خصوصية في الفضل، واختصاص بصالح العمل، وبأحكام ليست في غيرها من الأيام، وللنبي ﷺ فيها هديه وسُنَنُه، **ومنها:**

يوم العيد

قدم ﷺ المدينة ولهم يوما عيد يلعبون فيهما، وكانت أعياداً وثنية جاهلية، فأبدلهما بهما يومين شريفين عظيمين مرتبطين بشعيرتين هما من أركان الإسلام، فعيد الفطر فَرَحٌ بإكمال العدَّة وإتمام صوم شهر رمضان، وعيد الأضحى فَرَحٌ بإكمال شعائر الحج للحجاج، وأعمال العشر لغيرهم، وليس لأهل الإسلام أعياد دينية غير هذين العيدين.

وكان للعيد مع النبي ﷺ شعائر ومظاهر تدل على الفرح بفضل الله ورحمته، وتعظيمه والامتنان له، وذلك في الاجتماع الحاشد، والمظهر الجميل، والفرح المعلن.

فكان ﷺ يلبس للخروج إلى العيدين أجمل ثيابه، وكان له حلةٌ جميلة يلبسها للعيدين والجمعة، ومرةً يلبس بُردين أخضرين(١)، ومرةً بُرداً أحمر(٢).

(١) «سنن أبي داود» (٢٠٢١).

(٢) «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١/ ٣٨٨).

وكان يأكل قبل خروجه لعيد الفطر تمراتٍ، ويأكلهن وتراً[١]، وأما في عيد الأضحى فكان لا يطعم حتى يرجع من المصلى فيأكل من أضحيته[٢].

وكان يغتسل للعيدين، ويدل على ذلك ثبوته عن الصحابة[٣]، ولأنه مشهد عام كمشهد الجمعة.

ويتطيَّب لخروجه، ويدل عليه ثبوته عن بعض الصحابة[٤]، ولثبوت الأمر به لمشهد الجمعة.

وفي هذا تعظيم للشعيرة، وتجاوب مع ما في الفطرة السوية من حب الزينة والجمال، وحسن المظهر في المجامع العامة.

ومكان مصلَّى العيد والاستسقاء في عهد النبي ﷺ هو موضع مسجد الغمامة الآن، ويبعد اليوم عن المسجد النبوي نحو خمسمئة مترٍ في الجهة الجنوبية الغربية منه.

ولم يكن المصلَّى في حياة النبي ﷺ مسجداً، بل كان فضاءً خارج المدينة لا بناء فيه، والمسجد اليوم إنما هو في بعضه، وهو المحل الذي كان يقوم فيه النبي ﷺ، فكان يخرج بالناس، فيصلِّي بهم صلاة العيد في هذا الفضاء؛ لأن مسجد النبي ﷺ لا يتسع لأهل المدينة إذا اجتمعوا كلهم في صلاة العيد، فإن صلاة العيد يهبط إليها أهل العوالي والنواحي المتباعدة عن الحرم، ومعهم النساء حيث أكد ﷺ عليهن الخروج إلى صلاة العيد، قالت أم عطية رضي الله عنها: أُمرنا أن نُخرج الحُيَّض يوم العيدين وذوات الخدور، فيشهدن جماعة المسلمين

(١) «صحيح البخاري» (٩٥٣).

(٢) «مسند أحمد» (٢٢٩٨٤).

(٣) ينظر: «البدر المنير» لابن الملقن (٥/ ٤١).

(٤) ينظر: «البدر المنير» (٥/ ٤٥).

ودعوتهم، ويعتزل الحُيَّض عن مصلاهن، قالت امرأةٌ: يا رسول الله، إحدانا ليس لها جلبابٌ؟! قال: «**لِتُلْبِسْهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا**»[١].

وهذا الاجتماع الحاشد الذي يجتمع فيه أهل النواحي المتباعدة في مكان فضاء يستوعبهم رجالاً ونساء هو نوع من تعميق الانتماء إلى الجماعة وتقوية لحمتها، فبعد الاجتماع اليومي في الأحياء لصلاة الجماعة، والاجتماع الأسبوعي لصلاة الجمعة، يأتي هذا الاجتماع السنوي الحاشد ليجمع من لم يجتمعوا لتفرق نواحيهم وتباعدها، ولذا أمر ﷺ النساء أن يخرجن لصلاة العيد وقال: «**يَشْهَدْنَ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ**». فهو اجتماع جماعة المسلمين الجامعُ لهم.

فإذا خرج ﷺ حُملت العنَزة[٢] بين يديه حتى تنصب أمامه؛ لأنه يصلي في الفضاء إلى غير سترة، فتكون سترة له، وهذه العنَزة كانت للزبير رضي الله عنه، أعطاها إياه النجاشي، فوهبها للنبي ﷺ فكان يخرج بها بين يديه يوم العيد[٣].

ويظهر من فعل الصحابة أنه ﷺ كان يَجْهر ويكثر من التكبير في الطريق إلى صلاة العيد[٤]، امتثالًا وإشهاراً لقوله تعالى: ﴿**وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾.

فإذا وصل إلى المصلَّى بدأ بالصلاة قبل الخطبة من غير أذان ولا إقامة[٥] فيصلِّي ركعتين، يكبِّر في الأولى سبع تكبيراتٍ متواليةٍ بتكبيرة الافتتاح[٦]، يسكت بين كل تكبيرتين سكتةً يسيرةً.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٤)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).

(٢) العنَزة: هي الرمح القصير. ينظر: «النهاية» (٣/ ٣٠٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٧٣)، و«صحيح مسلم» (٥٠١).

(٤) «صحيح البخاري» (٩٧١)، و«صحيح مسلم» (٨٩٠).

(٥) «سنن أبي داود» (١١٤٦).

(٦) «سنن أبي داود» (١١٤٩).

فإذا أتم التكبير أخذ في القراءة، فقرأ فاتحة الكتاب، ثم قرأ بعدها: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ في إحدى الركعتين، وفي الأخرى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾[(١)].

وربما قرأ فيهما: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ وفي الأخرى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[(٢)].

فإذا فرغ من القراءة كبر وركع، ثم إذا أكمل الركعة وقام من السجود كبر خمساً متواليةً، فإذا أكمل التكبير أخذ في القراءة.

فإذا أكمل الصلاة انصرف فقام مقابل الناس، والناس جلوسٌ على صفوفهم، ولم يكن هناك منبرٌ يرقى عليه، وإنما كان يخطبهم قائماً على الأرض، وكان يفتتح خطبته بالحمد لله، ويكثر التكبير في أضعاف الخطبة، ويعظ الناس ويذكرهم.

قال أبو سعيدٍ الخدري: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الفِطْرِ وَالأَضْحَى إِلَى المُصَلَّى، فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلاَةُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ فَيَعِظُهُمْ، وَيُوصِيهِمْ، وَيَأْمُرُهُمْ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثاً قَطَعَهُ، أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ[(٣)].

وقال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أشهد على رسول الله ﷺ لصلى قبل الخطبة ثم خطب فرأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن فذكرهن ووعظهن، وأمرهن بالصدقة، وبلالٌ قائلٌ[(٤)] بثوبه، فجعلت المرأة تلقى الخاتم والخرص والشيء[(٥)].

---

(١) «صحيح مسلم» (٨٩١).

(٢) «صحيح مسلم» (٨٧٨).

(٣) «صحيح البخاري» (٩٥٦).

(٤) أي: فاتح ثوبه للأخذ فيه، وفي الرواية الأخرى: «وبلال باسط ثوبه»، معناه أنه بسطه ليجمع الصدقة فيه. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (٦/ ٤٨١).

(٥) «صحيح البخاري» (١٤٣١)، و«صحيح مسلم» (٨٨٤). والْخِرْصُ الحلْقة الصَّغِيرَةُ مِنَ الحلى، وَهُوَ مِنْ حلى الأذُن. ينظر: «النهاية» (٢/ ٢٢).

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: شهدت مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الصلاة يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، بغير أذانٍ ولا إقامةٍ، ثم قام متوكئاً على بلالٍ، فأمر بتقوى الله، وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، فوعظهن وذكرهن، فقال: «**تَصَدَّقْنَ، فَإِنَّ أَكْثَرَكُنَّ حَطَبُ جَهَنَّمَ**». فقامت امرأةٌ من سِطة النساء سفعاء الخدين، فقالت: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «**لِأَنَّكُنَّ تُكْثِرْنَ الشَّكَاةَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ**». قال: فجعلن يتصدقن من حليهن، يلقين في ثوب بلالٍ من أقرطتهن وخواتمهن(١).

وأما في عيد الأضحى فإنه يذكر لهم في خطبته بعض أحكام الأضاحي في خطبته، **ومن ذلك**: ما رواه البراء بن عازب قال: خطبنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّي، ثُمَّ نَرْجِعُ فَنَنْحَرُ، مَنْ فَعَلَهُ فَقَدْ أَصَابَ سُنَّتَنَا، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ لَيْسَ مِنَ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ**». فَقَامَ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ نِيَارٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ لَقَدْ نَسَكْتُ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ، فَتَعَجَّلْتُ وَأَكَلْتُ، وَأَطْعَمْتُ أَهْلِي وَجِيرَانِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**تِلْكَ شَاةُ لَحْمٍ**». قَالَ: عَنَاقُ لَبَنٍ جَذَعٌ هِيَ خَيْرٌ مِنْ شَاتَيْ لَحْمٍ، آذْبَحُهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَلَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ**»(٢).

وعنه قال: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ، وَأَصَابِعِي أَقْصَرُ مِنْ أَصَابِعِهِ، وَأَنَامِلِي أَقْصَرُ مِنْ أَنَامِلِهِ، فَيُشِيرُ بِأُصْبُعِهِ يَقُولُ: «**أَرْبَعٌ لَا تَجُوزُ فِي**

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٠٤)، و«صحيح مسلم» (٨٨٥). وامرأة من سِطة النساء: أي من أوساطهن حسباً ونسباً، وسفعاء الخدين؛ السفعةُ: نوعٌ مِنَ السَّوَادِ لَيْسَ بِالْكَثِيرِ. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٦٦، ٣٧٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٩٨٣، ٥٥٦٣، ٦٦٧٣)، و«صحيح مسلم» (١٩٦١).

وقوله: «وَلَنْ تُجْزِئَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ»، لأن الْجذع من الْمعز لا يجزئ إلا إذا تمت لَهُ سنة، وعناق أبي بردة عناق لَبَنٍ أصغر من ذلك، ولذا أجزأت عنه ولا تُجزئ عن غيره، وهذا من خصائصه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٧٨) و(٢١/ ١٤٥).

الْأَضَاحِيِّ: الْعَوْرَاءُ بَيِّنٌ عَوَرُهَا، وَالْمَرِيضَةُ بَيِّنٌ مَرَضُهَا، وَالْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلْعُهَا، وَالْكَسِيرُ الَّتِي لَا تَنْقَى»[(١)].

وكان ﷺ يذبح أضحيته أحياناً بالمصلَّى، وذلك لإشهار هذه الشعيرة وإعلانها، بحيث يشهده الناس وهو يذبح فتقتدي به أمته، فعن جابر قال: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأَضْحَى فِي الْمُصَلَّى، فَلَمَّا قَضَى خُطْبَتَهُ نَزَلَ مِنْ مِنْبَرِهِ، وَأُتِيَ بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ، هَذَا عَنِّي وَعَمَّنْ لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي**»[(٢)].

وقال ابن عمر: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَذْبَحُ وَيَنْحَرُ بِالْمُصَلَّى[(٣)].

ويذبح أحياناً قريباً من بيته كما أخبرت عائشة أن رسول الله ﷺ أَمَرَ بِكَبْشٍ أَقْرَنَ، يَطَأُ فِي سَوَادٍ، وَيَبْرُكُ فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ[(٤)]، فَأُتِيَ بِهِ لِيُضَحِّيَ بِهِ، فَقَالَ لَهَا: «**يَا عَائِشَةُ، هَلُمِّي الْمُدْيَةَ**». ثُمَّ قَالَ: «**اشْحَذِيهَا بِحَجَرٍ**». فَفَعَلت، ثُمَّ أَخَذَهَا وَأَخَذَ الْكَبْشَ فَأَضْجَعَهُ ثُمَّ ذَبَحَهُ ثُمَّ قَالَ: «**بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنْ مُحَمَّدٍ، وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَمِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ**». ثُمَّ ضَحَّى بِهِ[(٥)].

وعن أنس قال: ضَحَّى النَّبِيُّ ﷺ بِكَبْشَيْنِ أَمْلَحَيْنِ أَقْرَنَيْنِ، ذَبَحَهُمَا بِيَدِهِ وَسَمَّى وَكَبَّرَ، وَوَضَعَ رِجْلَهُ عَلَى صِفَاحِهِمَا[(٦)].

---

(١) «سنن أبي داود» (٢٨٠٢)، و«جامع الترمذي» (١٤٩٧)، و«سنن النسائي» (٤٣٨٣).
والْعَرْجَاءُ بَيِّنٌ ظَلْعُهَا: الظلع هو العرَج. وَالْكَسِيرُ الَّتِي لَا تَنْقَى: المهزولة التي لا مخ في عظامها بسبب العجَف. ينظر: «النهاية» (٣/ ١٥٨)، و«تحفة الأحوذي» للمباركفوري (٢/ ٣٥٤).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٨١٠)، و«جامع الترمذي» (١٥٢١)،

(٣) «صحيح البخاري» (٥٥٥٢).

(٤) يَطَأُ فِي سَوَادٍ، وَيَبْرُكُ فِي سَوَادٍ، وَيَنْظُرُ فِي سَوَادٍ؛ أي: في رجليه سواد، وفي بطنه سواد، وحول عينيه سواد. ينظر: «النهاية» (٢/ ٤١٩).

(٥) «صحيح مسلم» (١٩٦٧).

(٦) «صحيح البخاري» (٥٥٦٥)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٦). والصِّفاح: الجوانب، والمراد الجانب الواحد من =

وكان يختار أضحيته من خيار الضأن وأوفاه خِلْقة وهيئة؛ فعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ كَانَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ اشْتَرَى كَبْشَيْنِ عَظِيمَيْنِ سَمِينَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مَوْجُوأَيْنِ(١)، فَذَبَحَ أَحَدَهُمَا عَنْ أُمَّتِهِ، لِمَنْ شَهِدَ لِلهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَشَهِدَ لَهُ بِالْبَلَاغِ، وَذَبَحَ الْآخَرَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَعَنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ(٢).

وهذا التنوع في صفة أضحيته وعددها ومكان ذبحها لتعدد الوقائع؛ فإن النبي ﷺ ضحى في المدينة سنين عديدة، فمرة ذبح في المصلى، ومرة قرب بيته، ومرة ضحى بكبش، ومرة بكبشين، فروى كلٌّ ما رأى، وفي ذلك فسحةٌ وسعة.

ورخص ﷺ لمن شهد العيد أن يجلس للخطبة، وأن يذهب، ورخص لهم إذا وقع العيد يوم الجمعة أن يجتزئوا بصلاة العيد عن حضور الجمعة(٣).

وهذا من تيسير الشعائر على الناس لأن اجتماعهم للصلاة من النواحي المتباعدة ثم انشغالهم بأعمال يوم العيد قد يعوق بعضهم عن الجلوس الطويل، أو الرجوع لصلاة الجمعة فكان ذلك من يسر التشريع وتيسير الشعيرة.

وكان ﷺ يخالف الطريق يوم العيد، فيذهب في طريقٍ، ويرجع من آخر(٤)، فقيل: لينال بركته مَنْ في الطريقين، ولأن في ذلك إيناس لأهل الأحياء والدور الذين هم في طريقه ذهاباً وإياباً(٥).

وقد ذهبت تلك الطرق كلها، وصار المصلَّى بارزاً، وما بينه وبين المسجد النبوي ساحة واسعة.

= وجه الأضحية. ينظر: «الفتح» (١٠/ ٢١).

(١) الموجوء: منزوع الأُنثَيَيْن، والوِجاء الخصاء، وهو يفيد اللحم طيباً. ينظر: «الفتح» (١٠/ ١٠).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣١٢٢).

(٣) «سنن أبي داود» (١٠٧٠).

(٤) «صحيح البخاري» (٩٨٦).

(٥) ينظر: «الفتح» (٢/ ٤٧٢).

ويرتبط العيد بشعيرة اجتماعية عظيمة وهي الصدقة والإحسان، ففي عيد الفطر شرعت صدقة الفطر طعمة للمساكين تغنيهم عن السؤال، وفي عيد الأضحى شرعت الأضاحي يتهادى الناس من لحمها ويتصدقون، فيَطعم اللحم من لم يكن يَطعمه من فقراء المسلمين.

وللعيد فرحته بإكمال عدة رمضان، وإتمام نسك الحج للحاج، والعمل الصالح في أيام عشر ذي الحجة، فهو موسم الفضل والرحمة الإلهية؛ ﴿**قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾، ولذا يعلن الفرح ويظهر السرور في الأعياد، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**إن الله أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْراً مِنْهُمَا: يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**»[(١)].

ففيه دليل على أن إظهار السرور في العيدين مندوب، وأن ذلك من الشريعة التي شرعها الله لعباده؛ إذ في إبدال عيد الجاهلية بالعيدين المذكورين دلالة على أنه يفعل في العيدين المشروعين ما يفعله أهل الجاهلية في أعيادهم من اللعب مما ليس بمحظور؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إنما خالفهم في تعيين الوقتين.

ومما يؤكد ذلك أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان ينهى عن صيام العيدين، فعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه خطب يوم النحر فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَهَاكُمْ عَنْ صِيَامِ هَذَيْنِ العِيدَيْنِ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَيَوْمُ فِطْرِكُمْ مِنْ صِيَامِكُمْ، وَأَمَّا الآخَرُ فَيَوْمٌ تَأْكُلُونَ مِنْ نُسُكِكُمْ[(٢)].

وذلك أن حال الصيام لا توافق حال الفرح بالعيد والتمتع بنعمة الله وما أباح لعباده وتفضل به عليهم، ولذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ التَّشْرِيقِ عِيدُنَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ**»[(٣)].

---

(١) «سنن النسائي» (١٥٥٦).

(٢) «صحيح البخاري» (٥٥٧١)، و«صحيح مسلم» (١١٣٧)

(٣) «سنن أبي داود» (٢٤١٩).

ويبين هذا أيضاً خبر عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: دخل علي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وعندي جاريتان تغنيان بدفين بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش، وتَسَجّى[١] بثوبه، وحوّل وجهه إلى الجدار، وجاء أبو بكر فانتهرهما، وقال: مزمارة الشيطان عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ؟! فكشف النبي وجهه، وأقبل على أبي بكر، وقال: «**دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيداً، وَهَذَا عِيدُنَا**»[٢].

ومن مشاهد السرور بالعيد بين يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ما فعله الحبشة، حيث اجتمعوا في المسجد يرقصون بالدَّرَق[٣] والحراب، واجتمع معهم الصبيان حتى علت أصواتهم، فسمعهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فنظر إليهم، ثم قال لعائشة: «**يَا حُمَيْرَاءُ أَتُحِبِّينَ أَنْ تَنْظُرِي إِلَيْهِمْ؟**». قالت: نعم، فأقامها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وراءه خدها على خده يسترها بردائه، وهي تنظر إليهم، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يغريهم، ويقول: «**دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ، لِتَعلَمَ يهودُ أَنَّ في دِيننا فُسْحَةً، إني بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمحَةِ**»[٤].

فهذه مشاهد الفرح بالعيد ومظاهر السرور والبهجة تقام بين يدي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيقرها ويحتفي بها، ولذا قال العلماء إظهار السرور في الأعياد من شعار الدين.

قال قيس بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كان شيء على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا وقد رأيته، إلا شيء واحد، فإن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يُقَلَّس[٥] له يوم الفطر[٦].

وعن عياض الأشعري أنه شهد عيداً بالأنبار فقال: ما لي لا أراكم تقلِّسون؟!

---

(١) تَسَجَّى: تَغَطّى. ينظر: «النهاية» (٢/ ٣٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).

(٣) الدرق: جمع دَرَقة وَهِي الترس الَّذِي يتَّخذ من الْجُلُود، ينظر: «عمدة القاري» (٦/ ٢٦٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٩٨٨)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢)، و«سنن النسائي» (٨٩٠٢).

(٥) التقليس: اللعب واللهو. ينظر: «شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٤/ ١٣١).

(٦) «مسند أحمد» (١٥٤٧٩).

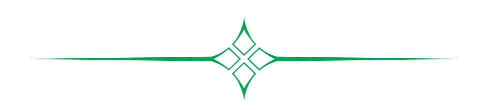
كانوا في زمان رسول الله ﷺ يفعلونه، في رواية: مَا لِيَ لَا أَرَاهُمْ يُقْلِسُونَ كَمَا كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَفْعَلُ أَوْ يَصْنَعُ؟![١].

ونلاحظ أن إظهار الفرح والتفاعل مع بهجة العيد كان فعلاً عفوياً يفعله كل قوم حسب ثقافتهم وموروثهم التقليدي، فالحبشة احتفلوا على طريقة قومهم الأحباش بالدَّرَق والحراب والرقص في المسجد.

والجاريتان عند عائشة غنتا بتراث قومهم من الدفوف والغناء وأنشدوا قصائدهم في الجاهلية أيام بعاث[٢].

ولكل قوم وزمان وسائلهم وطرائقهم في اللعب واللهو التي تستوعبها مساحة الإباحة الواسعة في الدين.

إن في ديننا فسحة، إن نبينا بعث بالحنيفية السمحة.

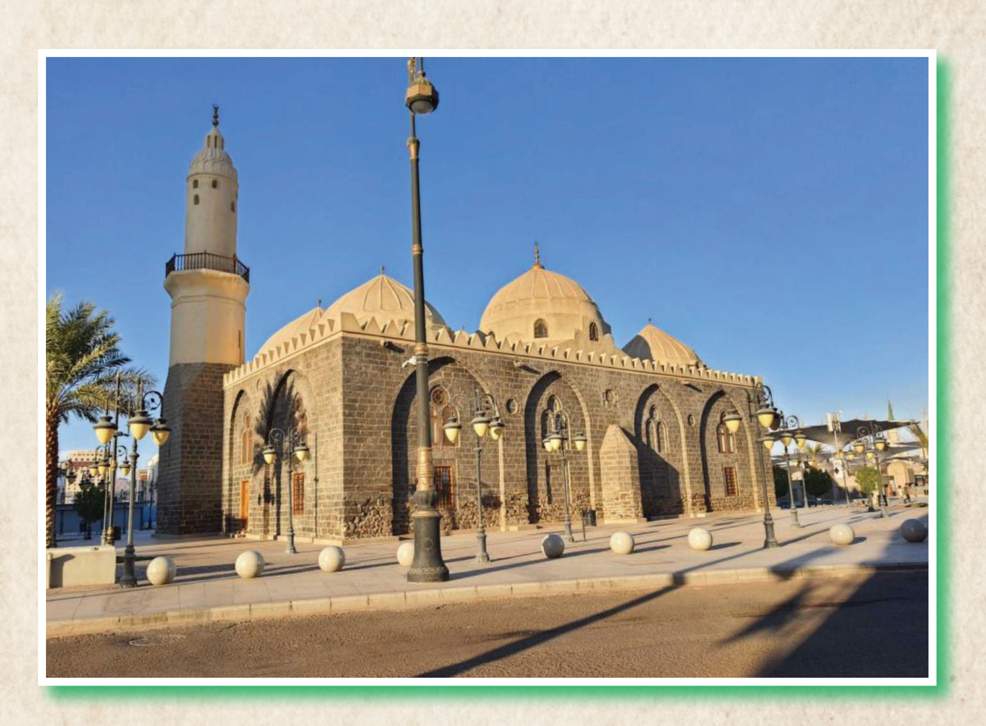


(١) «سنن ابن ماجه» (١٣٠٢). وينظر: «العلل» لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٠٦)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).



صورة قديمة لمسجد الغمامة قبل التوسعة، وهو مكان مصلَّى العيد في عهد النبي ﷺ، ويبعد عن المسجد النبوي (٥٠٠ متر) تقريباً



صورة حديثة لمسجد الغمامة بعد توسعة المسجد النبوي

يوم عاشوراء

كان ﷺ يواظب على صيام عاشوراء وكان يصومه بمكة، وكانت قريش تعظمه في الجاهلية، وكان يوماً تستر فيه الكعبة، فلما قدم ﷺ المدينة صامه وأمر الناس بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء فلم يأمر به أمر إلزام، وقال: «**مَنْ شَاءَ أَنْ يَصُومَهُ فَلْيَصُمْهُ، وَمَنْ شَاءَ أَنْ يَتْرُكَهُ فَلْيَتْرُكْهُ**»(١)، وهكذا استقر الأمر على استحباب صومه، وصار الأمر بصيامه أمر ترغيب.

فعن ابن عباس قال: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ المَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا؟**». قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ، هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: «**فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ**». فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ(٢).

واستمر النبي ﷺ يصوم عاشوراء مفرداً، وكان حين قدم المدينة يتحرى موافقة يهود يتألفهم بذلك، ثم صار يخالفهم فعزم بعد على أن يصوم مع عاشوراء يوماً ليخالف طريقهم.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حِينَ صَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمَ عَاشُورَاءَ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ يَوْمٌ تُعَظِّمُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَإِذَا كَانَ الْعَامُ الْمُقْبِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ صُمْنَا الْيَوْمَ التَّاسِعَ**». قَالَ: فَلَمْ يَأْتِ الْعَامُ الْمُقْبِلُ، حَتَّى تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ(٣).

(١) «صحيح البخاري» (١٥٩٢)، و«صحيح مسلم» (١١٢٥).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٠٤).

(٣) «صحيح مسلم» (١١٣٤).

وقد كان ﷺ يحافظ على صيامه حتى قال ابن عباس: مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا هَذَا اليَوْمَ، يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَهَذَا الشَّهْرَ يَعْنِي شَهْرَ رَمَضَانَ[١].

وكان يرغِّب في صيامه ويذكر فضلَه فيقول: «**صِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ**»[٢].

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٠٦)، و«صحيح مسلم» (١١٣٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٦٢).

يوم عرفة

الذي يظهر من حاله ﷺ أنه كان يصوم يوم عرفة بالمدينة لما صح عنه من الترغيب في صيامه، فقد قال ﷺ: «**صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ**»(١).

ولم يرد هذا الثواب في صيام نفل غيره، وذلك لمزيته وعظيم فضله، أما عندما حج ﷺ حجة الوداع فقد كان مفطراً يوم عرفة ليتقوَّى على العبادة والذكر والدعاء.

فعن أم الفضل بنت الحارث، أَنَّ نَاساً اخْتَلَفُوا عِنْدَهَا يَوْمَ عَرَفَةَ فِي صَوْمِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ صَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ، فَأَرْسَلْتُ إِلَيْهِ بِقَدَحِ لَبَنٍ وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ، فَشَرِبَهُ(٢).

وعن ميمونة رضي الله عنها، أَنَّ النَّاسَ شَكُّوا فِي صِيَامِ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بِحِلَابٍ(٣) وَهُوَ وَاقِفٌ فِي الْمَوْقِفِ فَشَرِبَ مِنْهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سُئل عن صوم يوم عرفة بعرفة فقال: حَجَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ يَصُمْهُ، وَحَجَجْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَصُمْهُ، وَحَجَجْتُ مَعَ

---

(١) «صحيح مسلم» (١١٦٢).

(٢) «صحيح البخاري» (١٦٦١). «صحيح مسلم» (١١٢٣).

(٣) الحِلاب: الإناء الذي يجعل فيه اللبن. ينظر: «الفتح» (٤/ ٢٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» (١٩٨٩). و«صحيح مسلم» (١١٢٤).

عُمَرَ فَلَمْ يَصُمْهُ، وَحَجَجْتُ مَعَ عُثْمَانَ فَلَمْ يَصُمْهُ، وَأَنَا لَا أَصُومُهُ وَلَا آمُرُ بِهِ وَلَا أَنْهَى عَنْهُ[1].

وأما برنامجه ﷺ في يوم عرفة حين حج حجة الوداع فقد ذكرته مفصلاً من طلوع الشمس إلى غروبها في كتاب «كأنك معه»[2]، ولذا تركت ذكره هنا اختصاراً.

(١) «مسند أحمد» (٥٠٨٠)، و«جامع الترمذي» (٧٥١).

(٢) ينظر: «صفة حجة النبي ﷺ، كأنك معه» للمؤلف (٨١-١٠٦).

شهر رمضان

شهر رمضان هو موعد اللقاء الأول مع تنزل القرآن، واللقاء الأول مع روح القدس يوم نزلت أول آيات القرآن على رسول الله ﷺ وهو في غار حراء.

وكان هذا في شهر رمضان، ولذا عرَّف الله عَزَّ وَجَلَّ شهر رمضان بأنه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

ولذا جعله الله عَزَّ وَجَلَّ موعد المدارسة القرآنية السنوية بين جبرائيل ومحمد عليهما السلام، فصار جبرائيل ينزل على نبينا ﷺ كل رمضان، فيتدارس هو وإياه ما نزل من القرآن إلى حين نزوله، وفي كل رمضان يزداد القدر الذي يتدارسانه، واستمر هذا اللقاء إلى شهر رمضان من السنة العاشرة، وفيها دارسه جبرائيل القرآن مرتين[1]، بعد ثلاث وعشرين سنة، فعرف النبي ﷺ من تكرار المدارسة في هذا الشهر أن القرآن قد اكتمل نزوله، فما نزل بعد ذلك إلا آيات معدودة، وهي إشارة إلى أن مهمة النبي ﷺ على الأرض قد اكتملت وعليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

ويُحدثنا ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن هذا اللقاء الرمضاني القرآني، بين روح القدس ونبينا ﷺ، وكيف يكون تأثر النبي ﷺ بهذا اللقاء الذي يجدد ذكرى اللقاء الأول، فيقول: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٩٩٨).

فَلَرَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ؛ ما سُئل شيئاً إلا أعطاه[١].

إن ابن عباس يصور لنا في هذا الحديث النشوة النفسية التي يعيشها النبي ﷺ في رمضان حين تتجدد ذكرى اللقاء الأول بجبرائيل عليه السلام وتتم مدارسة القرآن بينهما في هذا الشهر، فيغمر الفرح والأنس قلبه، ويظهر أثر ذلك في أريحية نفسه وطيبها، وقد وصف ابن عباس أحد مظاهر حالة النبي ﷺ هذه، وهي تَضاعفُ جوده، فجود النبي ﷺ ليس طارئاً في رمضان فهو أجود الناس، ولكنه جود متضاعف لصلة النبي في رمضان بالملأ الأعلى وهي مدارسة كلام الله المنزل عليه مع من نزل به أول مرة.

ويا لله إذا كان هذا جود الرسول فكيف بجود المُرسِل؟ وإذا كان هذا جود المخلوق فكيف بجود الخالق؟!

وفي رمضان يتطلَّب النبي ﷺ ليلة القدر في العشر الأواخر منه.

وعندما ننظر إلى حياة النبي ﷺ في العشر الأواخر من رمضان نجد أنها كانت استنفاراً في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، واحتشاداً للعبادة وتفرغاً لها.

روي عنه ﷺ أنه كان يخلط رمضان بقيام ونوم فإذا دخل العشر الأواخر أحيا ليله، وجعل الليل مفرغاً كلَّه للعبادة، من مدارسة القرآن مع جبرائيل، والتهجد، والمناجاة في السحر، فيكون في الليل كله حياً، ومن أجمل وأجمع وصف لحال النبي ﷺ في عشر رمضان ما اختصرته لنا أمنا عائشة عندما وصفت برنامجه في ليالي العشر من رمضان قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ[٢].

---

(١) «صحيح البخاري» (٦)، و«صحيح مسلم» (٢٣٠٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٢٠٢٤)، و«صحيح مسلم» (١١٧٤)، وغيرها.

لقد كان شأن النبي ﷺ المعتاد أن يقوم ثلث الليل ثم ينام سدسه، ولكنه في العشر يحيي الليل كله بالصلاة وقراءة القرآن والدعاء والمناجاة إلى أن يوافيه وقت السحور إن كان سيتسحر وإلا واصل قيامه ودعاءه وذكره إلى الفجر وكأنما يَضِنُّ بهذا الوقت أن يصرف في غير القيام.

وكان ﷺ يخصُّ العشر الأواخر من رمضان بعبادات لا يفعلها في غيرها، ومنها الاعتكاف، وهو الانقطاع عن شواغل الدنيا والتفرغ للخلوة بالله والتعبد له في بيت من بيوته، وكان النبي ﷺ يعتكف في مسجده في الزاوية الشرقية الجنوبية؛ لأنها هي التي تفتح على بيته، ويرفع له حصير يحجبه عن الناس، ومرة اعتكف في قبة تركية، واعتكاف النبي ﷺ في المسجد معناه الانقطاع عن خلطة الناس، فالصائم يدع الطعام والشراب والمعاشرة الزوجية، والمعتكف يدع مع ذلك فضول خلطة الناس ليتفرغ للخلوة بربه.

وكان اعتكاف النبي ﷺ في المسجد، وليس في كهف ولا مغارة ولا صحراء؛ لأن رسالة النبي ﷺ تفاعل مع الحياة وليست اعتزالاً للحياة، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

ومن العبادات التي كان النبي ﷺ يفعلها في العشر مواصلة الصيام، فكان ﷺ يواصل اليومين والثلاثة بدون إفطار ولا سحور، فعجب الصحابة من هذا الانقطاع عن الطعام، وتفرغ النبي ﷺ عن الأكل للعبادة، فقالوا: يا رسول الله نريد أن نواصل مثلك، قال: «**لَا، لَسْتُمْ مِثْلِي؛ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ**»[1]، وهذه خصوصية للنبي ﷺ لأن حال اليقين التي كان فيها النبي ﷺ لا يشركه فيها أحد، فهو الذي قد خُرقت له السبع الطباق، ورُفع إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام عند سدرة المنتهى، وكلَّمه ربه في الملأ الأعلى، ورأى الجنة

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦١)، و«صحيح مسلم» (١١٠٣).

رأي عين، ورأى النار رأي عين، ولذلك فأشواقه ﷺ وتلذذه بالعبادة ليس كغيره، ولذلك يكتفي عن الأكل والشرب بالاستغراق في العبادة.

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ وَمِنْ حَدِيثِك فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إذَا شَكَتْ مِنْ كَلالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا رُوْحُ الْقُدُومِ فَتَحْيَا عِنْدَ مِيعَاد[١]

ومن هديه في العشر الأواخر من رمضان إيقاظ أهله للصلاة، مع أنه كان يوقظهم في الأحايين أثناء العام ليصلوا ما يطيقون، لكنه في هذه المناسبة يحضهم على المشاركة في القيام واغتنام الليالي الفاضلة، قال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوقِظُ أَهْلَهُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ يُطِيقُ الصَّلَاةَ[٢].

ويتحرى في ذلك تحقيق أمر الله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾، ولذا نقلت زوجاته لنا غالب هديه في رمضان لأنهن كن يشاركنه فيه.

ومع استغراق النبي ﷺ في عشر رمضان في العبادة وانقطاعه لها إلا أنه كان متواصلاً بالبر والإيناس مع أهله غير منقطع عنهم، تقول عائشة رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُدْنِي إِلَيَّ رَأْسَهُ، فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ، وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، وَكَانَ لَا يَدْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا لِحَاجَةِ الْإِنْسَانِ[٣].

ويقيني أن تسريح النبي لشعره ما كان فقط احتياجه هو، وإنما كان يُلبي فيه

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٣١).
(٢) «المعجم الأوسط» للطبراني (٧٤٢٥).
(٣) «صحيح البخاري» (٢٠٢٩)، و«صحيح مسلم» (٢٩٧).

حاجة مشاعر زوجته؛ لأن المرأة وهي تُسرِّح شعر زوجها تسعد بذلك، فمن أجمل لحظات القرب هذه اللحظة، فأراد النبي ﷺ أن يُسعد زوجته فيُخرج إليها رأسه لترجله، ولك أن تتخيل شعور عائشة وهي تُسرِّح شعره وتبادله الحديث مع أنه في حال اعتكاف، وهذا الفعل من النبي ﷺ يجمع عبادتين في وقت واحد؛ الاعتكاف، والإحسان إلى الأهل والخيرية معهم.

وكان زوجاته يجتمعن عنده في الليل وهو معتكف، فما جعل ﷺ الاعتكاف انقطاعاً عن الحياة، فتأتي إليه زوجاته في الليل مع أنه ممنوع من المباشرة، ولكن هناك حاجة نفسية بين الزوجين وهي الحديث والتخاطب والمؤانسة؛ فيجتمعن عنده ويتحدثن إليه ثم يذهبن واحدة إثر أخرى.

وفي إحدى الليالي ولعلها كانت ليلة صفية رضي الله عنها أطالت الجلسة عنده حتى ذهبت كل نساء النبي ﷺ فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها وكان بيتها خارج المسجد قامَ مَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ يماشيها ويؤانسها في الطريق إلى أن تصل إلى بيتها، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ مَرَّ بِهِمَا رَجُلاَنِ مِنَ الأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ أسرعا لما رأيا النبي ﷺ ومعه امرأة، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**». قَالاَ: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا. يعني: هل يمكن أن نظن بك سوءاً؟! فقَالَ ﷺ الرحيم بأمته: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنِ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرّاً**»[(١)].

إنه مشهد قد يستغله الشيطان فيقذف الشر وسيئَ الظن في قلب هذا المسلم الخيِّر، فأراد النبي ﷺ أن يُطهر قلوبهما حتى لا يتسلل إليها كيد الشيطان ووسوسته.

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٠٣٨)، و«صحيح مسلم» (٢١٧٥).

فيا ترى ما الذي يجعل النبي ﷺ يخرج من معتكفه حتى يوصل زوجته إلى بيتها ويشعر أنه لا زال معتكفاً، وأن اعتكافه لم ينقطع؟

إن إيصال زوجته إلى بيتها ومؤانستها في الطريق في ظلام الليل هي عبادة أخرى مع الاعتكاف، فإذا كان هذا هو ود النبي مع أهله، وإيناسه لهم وخيريته معهم، مع كمال استغراقه تلك الأيام في العبادة، فما ظنك بحاله مع أهله في سعة الوقت وأنس الحياة؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

إحياء ليال خاصة من العام

ولم يكن ﷺ يخص شيئاً من الليالي بقيام خاص غير ما كان من حاله في ليالي العشر الأخيرة من رمضان.

وأما غيرها من ليالي الأسبوع أو ليالي العام كصلاة أول رجب، ونصف شعبان، والصلاة التي في أول ليلة جمعة من رجب، وصلاة ليلتي العيدين، وصلاة ليلة عاشوراء، وما يروى فيها من أحاديث عن النبي ﷺ فإنها غير صحيحة، ولم تثبت عنه ﷺ؛ قال ابن تيمية: هي أحاديث مكذوبة[1]، ولذا فلا يشرع تحري ليلةٍ وتخصيصها بقيام غير ما ورد الشرع به، ومن نشط في بعض الليالي فزاد في صلاته أو أطالها من غير تحر ولا تخصيص فقد فعل خيراً وأصاب خيراً، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

(١) ينظر: «الفتاوى الكبرى» لابن تيمية (٢/ ٣٥٨).



عبادات الرسول ﷺ اليومية

مما يتميز به برنامج النبي ﷺ في العبادة الديمومة وثبات العمل، فعن عَلْقمةَ قال: سَأَلْتُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ قُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، كَيْفَ كَانَ عَمَلُ النَّبِيِّ ﷺ؟ هَلْ كَانَ يَخُصُّ شَيْئاً مِنَ الْأَيَّامِ؟ قَالَتْ: «لَا، كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً، وَأَيُّكُمْ يَسْتَطِيعُ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتَطِيعُ؟»(١).

وذلك أن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، ولذا قَالَتْ عَائِشَةُ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا عَمِلَ عَمَلاً أَثْبَتَهُ(٢)، أي: استمر عليه وداوم، وذلك أن تراكم القليل المستمر أكثر من الكثير المنقطع.

ومن لازِمِ الاستمرار اليُسْرُ؛ فإن العمل الشاق لا يمكن الاستمرار عليه، ولذا قال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»(٣).

ولما جاء ثلاثة من الشباب إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته فكأنهم تقالوها، فعن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ

(١) «صحيح البخاري» (٦٤٦٦)، و«صحيح مسلم» (٧٨٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» (٧٨٢).

نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبداً، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبداً، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»(١).

وإنما تقالوها لأنهم سألوا عن عبادات معينة وهي القيام والصيام، فتقالوا عمل النبي ﷺ بالنسبة لما يريدون أن يتفرغوا له من عملها.

وفاتهم رضي الله عنهم أن وقت النبي ﷺ عامرٌ كلُّه بالعبادة، حيث إنه ﷺ مشغول بعبادات أخرى هي أفضل من مجرد الصيام والقيام، وهي القيام بشأن أمته دعوةً وهدايةً، ومتابعةً ورعايةً.

كما فاتهم رضي الله عنهم أن للنبي ﷺ مثلُ أجر كل من عمل عملاً صالحاً من أمته إلى قيام الساعة لدلالته ﷺ البشرية عليه، فانشغاله بتعليم أمته ودعوتهم انشغال بالأهم والأفضل في حقه ﷺ.

وفاتهم رضي الله عنهم أن عمل النبي ﷺ ديمة، وليس شِرَةَ شبابٍ تعقبها فَتْرة، وإنما عمل يثبته في برنامج حياته ونظام يومه، حتى إنه إذا كسل عن أدائه في وقته قضاه ولم يفوِّته، فعن عائشةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً(٢).

وفاتهم رضي الله عنهم أن النبي ﷺ إذا ترك عملاً فاضلاً فذلك لانشغاله بما هو في حقه أفضل منه وأهم وأدوم.

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٦٣)، و«صحيح مسلم» (١٤٠١)، و«سنن النسائي» (٣٢١٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٤٦).

ولذا كان عليه السلام يصلي من الليل كصلاة داود عليه السلام: ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه[١].

وأخبر ﷺ أن أفضل الصيام صيام نبي الله داود عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولكنه ﷺ لم يكن يصومه، وعندما سئل ﷺ عن صيام يوم وإفطار يومين قال: «**لَيْتَ أَنَّ اللهَ قَوَّانَا لِذَلِكَ**»[٢]، وذلك لأنه ﷺ منشغل عن الصيام الداودي بعبادات كثيرة متعدية النفع باقية الأثر، وهي انشغاله بهداية أمته ورعايتها ﷺ.

وهكذا الشأن في أمته من بعده؛ فالعمل الذي يناسب شيخاً كبُر سنُّه، وتقاعد من عمله فيتفرغ للصيام والقيام والذكر ليس هو الأفضل لعالم يجلس للناس مفتياً ومعلماً، وداعياً وواعظاً، أو غنيٍ منفقٍ منشغلٍ بالعمل الخيري وتسليط المال على هلكته في الحق.

ولذا كان ابن مسعود رضي الله عنه يُقِلُّ صوم النفل، قال عَبْد الرَّحْمَنِ بْن يَزِيد: كَانَ عَبْدُ الله يُقِلُّ الصِّيَامَ، فَقُلْنَا لَهُ: إِنَّكَ تُقِلُّ الصِّيَامَ، قَالَ: إِنِّي إِذَا صُمْتُ ضَعُفْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، وَالصَّلَاةُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الصِّيَامِ، وكذلك لانشغاله بالتعليم في الكوفة حتى جعل تلك المدينة جامعة علمية.

وأدركت حال شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله فرأيت من بذل وقته ونفسه في تعليم الناس وقضاء حاجاتهم والقيام بأمورهم ما لا ينقضي منه العجب، وكان يقوم بأعمال كثيرة تنوء بالعصبة أولي القوة، وما خلت مائدته يوماً من أضياف زائرين، وضعفة معتفين.

---

(١) يدل على هذا حديث ابن عباس في صفة قيام النبي حيث قال: حتى انتصَف اللَّيلُ، أو قَبْله بقليلٍ، أو بَعدَه بقليلٍ، ثم استيقظَ رسولُ اللهِ ﷺ، وذكر تفاصيل قيام النبي ﷺ، ثم قال: ثم اضطجع حتَّى جاءَه المؤذِّنُ، فقام فصلَّى ركعتينِ خفيفتينِ، ثم خرَج فصلَّى الصُّبحَ. ينظر: «صحيح البخاري» (١١٩٨)، و«صحيح مسلم» (٧٦٣).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٦٢).

وحتى يتفرغ لذلك وينشط له ما كان يصوم شيئاً من النفل غير عاشوراء؛ لانشغاله بالعمل العام.

ولما كتب عبد الله بن عبد العزيز العمري العابد إلى الإمام مالك يحضه على الانفراد عن الناس، ويحثه على التفرغ للعبادة والعمل، ويرغب به عن الاجتماع إليه في العلم، كتب إليه الإمام مالك: إن الله عز وجل قَسَّمَ الأعمال كما قَسَّمَ الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصيام، وآخر فُتح له في الجهاد ولم يُفتح له في الصلاة، ونشر العلم وتعليمه من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فَتَح الله لي فيه من ذلك، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير، ويجب على كل واحد منا أن يرضى بما قُسِم له، والسلام[١].

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام رائع يلاقي هذا المعنى، قال رحمه الله:

والأفضل يتنوع بتنوع أحوال الناس؛ فمن الأعمال ما يكون جنسه أفضل، ثم يكون تارة مرجوحاً أو منهياً عنه، كالصلاة؛ فإنها أفضل من قراءة القرآن، وقراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، ثم الصلاة في أوقات النهي ـ كما بعد الفجر والعصر ووقت الخطبة ـ منهي عنها، والاشتغال حينئذ إما بقراءة أو ذكر أو دعاء أو استماع أفضل من ذلك، وكذلك قراءة القرآن أفضل من الذكر، ثم الذكر في الركوع والسجود هو المشروع، دون قراءة القرآن، وكذلك الدعاء في آخر الصلاة هو المشروع دون القراءة والذكر.

وقد يكون الشخص يصلح دينه على العمل المفضول دون الأفضل، فيكون أفضل في حقه، كما أن الحج في حق النساء أفضل من الجهاد.

---

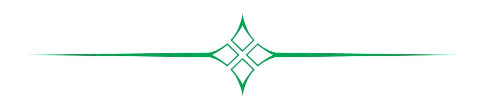
(١) «التمهيد» (٧/ ١٨٥).

ومن الناس من تكون القراءة أنفع له من الصلاة، ومنهم من يكون الذكر أنفع له من القراءة، ومنهم من يكون اجتهاده في الدعاء لكمال ضرورته أفضل له من ذكر هو فيه غافل.

والشخص الواحد يكون تارة هذا أفضل له، وتارة هذا أفضل له.

ومعرفة حال كل شخص، وبيان الأفضل له لا يمكن ذكره في كتاب، بل لا بد من هداية يهدي الله بها عبده إلى ما هو أصلح، وما صدق اللهَ عبدٌ إلا صنع له.

وفي الصحيح: أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[١].



(١) «مجموع الفتاوي» لابن تيمية (٢٢/ ٣٠٨). والحديث أخرجه مسلم (٧٧٠).





أشد يوم[١]

عبرت الشدائدُ حياةَ النبي ﷺ، وكان لكل مرحلة من حياته شدائدها، حتى لا تدري أيها أشدُّها؟ هل معاناته في حصار الشِّعْب، أو فجيعته عام الحزن، أو تركه لبلده وهجرته عنها، أو ما أصابه في أحد، أو حصار الخندق يوم الأحزاب، أو فجيعته بأصحابه القراء في بئر معونة؟

لكن عائشة رضي الله عنها، جلَّت لنا الأمر حين سألت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟، فقد كان يوم أحد أشد يوم أدركه وعيها على النبي ﷺ، فقد قُتل فيه أصحابه، وشهد مصرع عمه ووقف على جثمانه وقد مُثِّل به، وأصيب ﷺ فشُجَّ جبينه وكُسرت رَباعيته[٢]، وغاصت حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وجنته، ونزف الدم على وجهه المقدس، فهل أتى عليه يوم أشد منه؟ فقال لها: «**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ**[٣]**، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ،**

(١) باختصار من «الحياة النبوية» فصل «الرسول ﷺ والشدائد».

(٢) رَبَاعِيَتُهُ: هي السن التي تلي الثنية من كل جانب، وللإنسان أربع رباعيات. ينظر: «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٢/ ١٤٨).

(٣) اختلف في تحديد العقبة، فذهب كثيرون إلى أنها عقبة منى في مكة، وقيل هي العقبة التي في قرن المنازل بين مكة والطائف، ولعل هذا هو الأرجح؛ لأن الذين عرض النبي ﷺ عليهم الإسلام في منى فلم يستجيبوا كثيرون، وما كان ذاك يكرب النبي ﷺ أو يغمه، ولكن الذي أكربه أن يذهب إلى الطائف يعرض عليهم دعوتهم فلم يجيبوه وسيعود إلى مكة فيشمتوا به ويزدادوا جراءةً عليه.

فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ»[١]، وذلك حين ذهب إلى الطائف وعرض دعوته عليهم وقابل كبراءهم فلم يجيبوه إلى ما أراد لهم، فاغتم لذلك حيث سيرجع إلى قريش والتي زادت جراءتها عليه وأذاها له بعد وفاة عمه أبي طالب، فكُرِب من إعراض أهل الطائف حين دعاهم، ومن شماتة أهل مكة وجراءتهم إذا رجع إليهم، ودعا ربه بالدعاء المشهور: «**اللَّهمّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ**»[٢].

وكان ﷺ في حال من الكرب حين عاد إلى مكة، يسير مستغرقاً لا يشعر بما حوله قال ﷺ: «**فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ**»[٣]. يا لله لهذا النبي يأتيه هذا المدد وهو في ساعة كرب وشدة ومعاناة نفسية هائلة مما يتوقعه من جراءة قومه وشماتتهم به، فيأتيه الخيار من ملك الجبال كأنما يقول له: يا محمد هل يكربك أن يشمتوا بك أو يجترئوا عليك؟ مرني بما شئت، فإن

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ٤٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

شئت أطبقت على أهل مكة جبالها، ودفنتهم تحت أحجارها، وكان مصير أهل مكة ساعتها بين شفتي النبي ﷺ، لو أراد ذلك، ولكنه ﷺ لم يفكر ولم ينتظر، وإنما جاء جوابه سريعاً حاسماً فقال ﷺ: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[1].

لقد اختار ﷺ الصبر والتحمل والانتظار، ومكابدة الدعوة، واحتمال الأذى وانتظار الفرج، ولم يستجب لشهوة الانتقام والتشفي، وإنما كان الذي يقوده هدفُه الأكبر وهو هداية أمته واستنقاذها، ولم يكن يحرفه عن هذا الهدف ردات الفعل ولا شهوات الانتقام، وإن لقي ما لقي وصبر ما صبر، وهل أشد من أنه وهو عائد إلى مكة التي كان جده قصي حاكمها، وجده هاشم مطعمها، وجده عبد المطلب سيدها، ثم يقف خارجها لا يدخلها حتى يجيره أحد سادتها، فيدخل مكة بجوار المطعم بن عدي ليكف عنه جراءة قريش؟ أي معاناة نفسية احتملها حينئذ حين يفقد أمانه في البلد التي ولد فيها وكان آباؤه سادتها وقادتها فلا يدخلها إلا بحماية وجوار؟ كيف احتمل هذه المعاناة وصبر هذا الصبر، واستدفع الهلاك عن مكة وأهلها، وانتظر الأجيال القادمة التي يرجو هدايتها وإيمانها؟

وقد أقر الله عينه فشهد مصرع أئمة الكفر في بدر، وشهد إسلام أبنائهم الذين كان يرجو إيمانهم، فقُتل أبو جهل وأسلم ابنه عكرمة، وقُتل أمية بن خلف وأسلم ابنه صفوان، وقُتل عتبة بن ربيعة وأسلم ابنه أبو حذيفة وبنته هند، وقُتل عقبة ابن أبي معيط وأسلمت بنته أم كلثوم، وهلك الوليد بن المغيرة وأسلم أبناؤه الوليد وخالد، وجاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وحج حجة الوداع ومعه أكثر من مئة ألف جاؤوا من نواحي الجزيرة كلها.

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

وهكذا كان ﷺ في الشدة لا يفقد أمله ويقينه، فهو في الشدائد متفائل ومستبشر، ويظهر أملُه في موقفه مع ملك الجبال حين قال له: «**بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً**»[(١)]. فأمله ممتد إلى الأجيال القادمة وإن لجّ الملأ في غلوائهم.

وكذا حين لحقه سراقة في طريق الهجرة وقد نَذِرَت به القبائل، فكان يسير والرصد أمامه، والطلب خلفه، فلما ساخت قوائم فرس سراقة وعلم عجزه طلب أن يكلمهم، فلما وصل إليهم وجد النبي ﷺ في غاية التفاؤل يبشره بسواري كسرى، وكانت مفاجأة أخرى لسراقة فقال: كسرى أنو شروان؟ قال: «**نعم**». فخاف سراقة أن هذا الذي سيبلغ ملكه ملك كسرى سيطلبه وينتقم منه بعد ذلك، فطلب منه كتاب أمان هو أعجب كتاب أمان في التاريخ، يمنحه المطلوب للطالب، فكتبه له أبو بكر وأعطاه إياه[(٢)]، ومثله استبشاره يوم الخندق بفتوح الشام وفارس واليمن مع ما كان فيه المسلمون من شدة الحصار، وجهد الجوع، وكرب الخوف.

وهكذا هو في ذروة الأزمات والشدائد يُبشِّر بتفاؤل، وينظر إلى موعود الله بيقين وكأنه رأي عين.

ولم يكن ﷺ يستصحب ذكريات الشدائد وآلامها بعد تجاوزها، وفي هذا الحديث مشهد واضح من ذلك، فإن عائشة لو لم تسأل النبي ﷺ عن أشد ما لقي مما هو أشد من أُحد لما علمنا بذلك، ولا يوجد الخبر عن هذا الكرب في غير هذا الحديث.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٢٣١)، و«صحيح مسلم» (١٧٩٥).

(٢) «الاستيعاب» لابن عبد البر (٢/ ١٤٨).

وذلك أن النبي ﷺ لم يكن يتحدث به، ولا يجدد ذكراه، وإنما تجاوزه كما تجاوز أحزاناً وشدائد كثيرة.

ومثل ذلك مصيبته في أُحد لم يجعلها مأتماً يتذكره ويجدد أحزانه، بل قال عن جبل أُحد الذي وقعت عنده المصيبة: «**هَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[١]، ومع شدة حبه لخديجة إلا أنه كان يذكر حبها ولا يذكر حزنه بفقدها فيقول: «**إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَإِنِّي رُزِقْتُ حُبَّهَا**»[٢].

وكان عنده ﷺ القدرة على استئناف الحياة، وتجديد العزيمة، فلا يتجاوز شدة إلا وهو أقوى عزماً وأَشدَّ مضاء، يستقبل أمله ولا يجتر ألمه، ولذا لما هاجر إلى المدينة من بلده مكة التي هي أحب البلاد إلى الله وإليه، لم يجعل تذكُّر منازله ومرابعه وذكرياته فيها حديثَه وشاغلَه، وإنما استأنف الحياة وكأنه انفصل عن ذلك الماضي تماماً وتوجه إلى المستقبل قُدُماً، وسرى ذلك إلى بقية المهاجرين فلا تجد مشاريعهم متوقفة، ولا نفوسهم متطلعة للعودة إلى بلدتهم ودورهم، بل كان من حكمة الشارع أن حرم عليهم العودة إلى مكة أو الإقامة بها فوق ثلاث.

وعندما عاد إلى مكة فاتحاً نزل الأبطح ولم يسأل عن بيوته ورباعه، وقال: «**وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ مَنْزِلٍ؟**»[٣].

وهكذا فقه الصحابة منه هذه الروح؛ فما إن نفضوا أيديهم من تراب قبره ﷺ بعد مصيبتهم بوفاته والتي هي أعظم المصائب في حياتهم حتى استأنفوا حياتهم، وانطلقوا في مشروعهم، وهو نشر رسالة نبيهم، وساحت جيوشهم

---

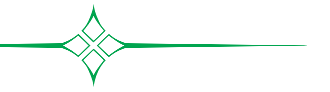
(١) «صحيح البخاري» (٤٤٢٢). و«صحيح مسلم» (١٣٩٢).

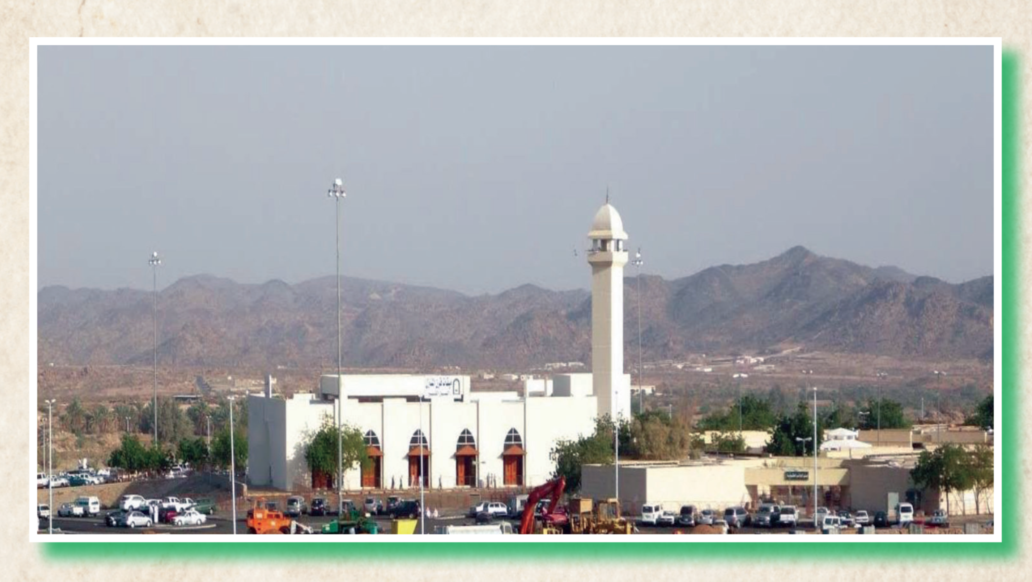
(٢) «صحيح البخاري» (٣٨١٨)، و«صحيح مسلم» (٢٤٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٢٨٢)، و«صحيح مسلم» (١٣٥١).

في الأرض لا لتَنعِي رسول الله ﷺ إلى البشرية ولكن لتبشر بدينه ورسالته، واستأنفوا مسيرة البلاغ والدعوة، وتحملوا مسؤولية ما بعث به ﷺ تجاه البشرية، وتناثرت قبورهم بين القارات الثلاث رسلاً لرسول الله ومبعوثين بما بعث به.

وهكذا كانت الشدائد تعبر حياة النبي ﷺ فيتلقّاها بالرضا والتسليم، ويتحملها بالصبر الجميل، ويحتسب شدتها ولأواءها، ولا يفقد عندها أمله واستبشاره، ويستأنف الحياة بعد كل شدة أقوى عزيمة وأمضى عزماً.





قرن الثعالب، ويسمى قرن المنازل بين مكة والطائف،
يبعد عن الطائف (٤٥كم) تقريباً





أسعد يوم[١]

تفكرت في أسعد يوم مر على النبي ﷺ هل هو يوم بدر؟ أو يوم فتح مكة؟ أو يوم عرفة في حجة الوداع حين أنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾، فأيها يا ترى هو الأسعد منها لرسول الله ﷺ؟

لقد كانت كلها من مشاهد الفرح بفضل الله ورحمته، ولكل منها فرحته وسعادته، ولكن الذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن أسعد يوم في حياة النبي ﷺ هو يوم لقائه ربه، وأن فرحه به أعظم من كل فرح، ومما يبين ذلك قوله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ الله أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ.. فَإِنَّ المُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ المَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوَانِ اللهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ وَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ»**[٢]، فإذا كان المؤمن يفرح عند الاحتضار بلقاء الله لتلقيه البشائر عند نزع روحه، فكيف بمن تلقى البشرى في حياته ورأى منازله في الجنة، وعلم موعود الله له في الآخرة؟ فقد ذكر ﷺ خبر رؤياه الطويل وفيه أنه دخل الجنة مع جبرائيل وميكائيل، ورأى فيها منازل الشهداء، ثم قالا له: **«ارْفَعْ رَأْسَكَ، قال: فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ، قَالَا:**

(١) باختصار من كتاب «القبر المقدس».

(٢) «صحيح البخاري» (٦٥٠٧)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٣).

ذَاكَ مَنْزِلُكَ، قُلْتُ: دَعَانِي أَدْخُلْ مَنْزِلِي، قَالَا: إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمُرٌ لَمْ تَسْتَكْمِلْهُ، فَلَوِ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ»[(١)].

فما ظنك بأشواقه إلى ربه وقد رُفع إلى سدرة المنتهى، ورأى حجاب النور الإلهي، ولما سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «**رَأَيْتُ نُوراً**»[(٢)].

فلم يكن بينه وبين لقاء ربه ودخول قصره في الجنة إلا أن يستتم عمره في الدنيا، ولذا عاش عمره في حال انتظار وتشوق لهذه الساعة التي يستتم فيها عمره، وينقلب فيها إلى موعود ربه، وكان وهو في الدنيا يتطلع إلى الآخرة؛ ففيها أشواقه ومرادات نفسه، ولذا عاش في الدنيا متبلغاً منها ببلاغ العابر، لا متأثلاً ولا مستكثراً، ووصف حاله فيها فقال: «**مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[(٣)]. وهكذا كانت الدنيا في نظره، بلاغ يسير، وقنطرة عبور إلى ما عند الله، ﴿**وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ**﴾.

وقد هيأه الله لهذه النُّقلة، وجاءته البشائر تخبره بأمارات اللحاق بالرفيق الأعلى، فأنزل الله عليه: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا**﴾، قال ابن عباس: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ الله ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ**﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ: ﴿**فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا**﴾[(٤)].

قالت عائشة: مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: ﴿**إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ**

---

(١) «صحيح البخاري» (١٣٨٦).

(٢) «صحيح مسلم» (١٧٨).

(٣) «جامع الترمذي» (٢٣٧٧).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٢٩٤).

﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»[١].

لقد كان فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً إحدى علامات قرب الأجل؛ لدلالتها على اكتمال المهمة وحصول البلاغ، ولذا أُمر أن يتهيأ للقاء الله بكثرة التسبيح والاستغفار، فهو ختام هذه العبادة العظيمة وهي بلاغ رسالات الله، كما تختم عبادة الصلاة بالاستغفار لله وذكره.

وفي شهر رمضان من سنة عشر دارسه جبرائيل القرآن مرتين، وكان يدارسه قبل ذلك في كل سنة مرة، فعلم أن ذلك لقرب أجله، لأنه إشارة إلى أن القرآن قد اكتمل نزوله، وأن مهمة النبي ﷺ في البلاغ قد انتهت، وأن عليه أن يتهيَّأ للحاق بالرفيق الأعلى والمحل الأسنى.

فلما حجَّ حجة الوداع ودَّع الناس وقال: «خُذُوا عني مَنَاسِكَكُمْ، لِعَلِّي لَا أَلْقَاكُمْ بَعْدَ عَامِي هَذَا»[٢].

وسُمع يوم عرفة وهو يقول: «لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الْآخِرَةِ»[٣]، وكأنما جاشت أشواقه إلى الآخرة ففيها العيش الطيب، والحياة الحقيقة.

ولما مرض مرضه الأخير أسرَّ إلى ابنته فاطمة أن أجله قد اقترب، وأنه مقبوض في وجعه ذلك، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَداً، كَانَ أَشْبَهَ كَلَاماً وَحَدِيثاً بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ فَاطِمَةَ، وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، قَامَ إِلَيْهَا وَقَبَّلَهَا، وَرَحَّبَ بِهَا، وَأَخَذَ بِيَدِهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ، وَكَانَتْ هِيَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ إِلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ وَأَخَذَتْ بِيَدِهِ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَأَسَرَّ إِلَيْهَا، فَبَكَتْ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا، فَضَحِكَتْ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهَا عَنْ ذَلِكَ،

(١) «صحيح البخاري» (٨١٧)، و«صحيح مسلم» (٤٨٤).

(٢) «السنن الكبرى للنسائي» (٤٠٠٢).

(٣) «السنن الكبرى» للبيهقي (٩٠٣٥).

فَقَالَتْ: أَسَرَّ إِلَيَّ أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَبَكَيْتُ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيَّ فَأَخْبَرَنِي أَنِّي أَوَّلُ أَهْلِهِ لُحُوقاً بِهِ فَضَحِكْتُ، وقد ضحكَتْ سروراً بسرعة لحاقها به[١].

وانظر إلى تعبير النبي ﷺ وهو يخبر فاطمة، لقد أخبرها عن نفسه أنه ميت، أما فاطمة فأخبرها أنها أول أهله لحوقاً به، ولم يقل: أنتِ أول أهلي موتاً، ولذا صار نعي نفسها إليها بشرى تسرُّها وتضحكها، فهي ستلحق بأبيها الذي سبقها.

وإذا كان هذا فرح فاطمة باللحاق بأبيها؛ فكيف بفرح النبي ﷺ باللحاق بربه وخليله؟[٢]

ثم خرج ﷺ إلى الناس في شدة مرضه متوكئاً على الفضل بن العباس عاصباً رأسه بعصابة دسماء، وعليه ملحفة متعطفاً بها على منكبيه، فصعد المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، ثم جلس والناس مجتمعون حوله، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ**». فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فعجب الصحابة رضي الله عنهم وقالوا: ما يُبكي هَذَا الشَّيْخِ، إن يكن الله خَيَّرَ عبداً بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فاختار ما عنده؟ قال أبو سعيد: فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ المُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ ابْنَ أَبِي قُحَافَةَ خَلِيلاً، وَلَكِنْ صَاحِبُكُمْ خَلِيلُ اللهِ**»[٣]. فما ظنك بشوق الخليل إلى خليله، ومحبته للقائه؟ ويالله لهذا النبي وهو يذكر خلته لربه وغناه بحبه، وقد عرف قرب أجله فما كان ثم إلا أيام قلائل فيلحق الخليل بخليله.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٥٠)، و«صحيح ابن حبان» (٦٩٥٣).

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦/ ٧).

(٣) «صحيح البخاري» (٤٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٢، ٢٣٨٣).

أما يوم السعادة بلقاء الله فكان يوم الاثنين، وقد عادت إليه عافيته، ولا أحسبها إلا نشوة الفرح بقرب اللقاء، وإذا الجسد الذي أنهكه المرض يستجمع قوته، وهو الذي ما كان يقوم ولا يمشي إلا محمولاً بين رجلين يخطان برجليه الأرض، فاستقبل أول أنفاس الصباح قائماً يمشي إلى باب حجرته وينتصب واقفاً أمام أصحابه، وقد عادت إلى وجهه نضرته وبهاؤه، فأشرق لهم وجهه الكريم المبارك، بعد أن غاب عنهم خمسة أيام، خيم عليهم فيها الوجوم والحزن؛ لغياب رسول الله ﷺ عن محرابه الذي طالما وقف فيه، ففقدوا تكبيره وقرآنه، وإشراق محيَّاه أياماً، وكان الشيخ المبارك أبو بكر الصديق رضي الله عنه يصلي بهم صلاة الفجر، وهو الأسيف الذي يُقَطِّع القرآن ببكائه، فما فجأهم إلا سترُ حجرته يُرفع، وإذا هو ﷺ قائم بالباب ينظر إليهم يضحك، وهو يراهم وقوفاً كما علَّمهم، خشوعاً كما أدَّبهم، فطفح السرور على وجهه الكريم، فما رأى الصحابة منظراً أعجب إليهم من وجه رسول الله ﷺ وهو ينظر إليهم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف؛ حتى كادوا أن يفتتنوا في صلاتهم من الفرح برؤيته، ثم أرخى ستر حجرته، فكانت هذه آخر نظرة نظرها إليهم، وآخر نظرة نظروها إليه[١].

فلما تعالى النهار إذا بالنبي ﷺ يُودِّع الدنيا ويذرف آخر أنفاس الحياة، ويختار لقاء الله، وكان بَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ[٢] فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَات، اللهُمَ أَعِني عَلى سَكَراتِ المَوتِ**»[٣].

قالت عائشة: وكان رسول الله وهو صحيح يقول: «**إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُم يُخَيَّرَ**». فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى

---

(١) «صحيح البخاري» (٦٨٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٩).

(٢) الركوة: إِنَاءٌ صَغيرٌ مِن جلْدٍ يُشْرَبُ فِيهِ الماءُ، يشبه الدلو الصغير. ينظر: «تاج العروس» (٣٨/ ١٧٨).

(٣) «سنن ابن ماجة» (١٦٢٣).

فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». فَقُلْتُ: إِذَنْ لاَ يَخْتَارُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ[١]، وانظر إلى فقه عائشة حيث علمت أنه إذا خُير فسيختار لقاء الله، فأشواقه وسروره ودار كرامته، وكريم جزائه هناك عند ربه، فما هو إلا أن تفارق الروح الجسد حتى يلحق بأكرم جوار وأفضل موعود. ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**». وَمَالَتْ يَدُهُ[٢].

وكان آخر ما تكلم به: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**». قَالَتْ: فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى[٣]. وتوفي ﷺ وهو بين يدي عائشة رضي الله عنها، مستنداً إلى صدرها.

قَالَتْ رضي الله عنها: قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي[٤] وَنَحْرِي، فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ، لَمْ أَجِدْ رِيحاً قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا[٥].

وفاضت أطهر روح في الدنيا من جسدها، وصعدت إلى بارئها راضية مرضية، وخرج أكرم إنسان على الله تعالى في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها، ولم يترك مالاً ولا متاعاً، ولا ولداً إلا فاطمة عليها السلام، وإنما ترك هداية وإيماناً، وشريعة عامة خالدة، وميراثاً نورانياً عظيماً[٦].

يا خير من دُفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكمُ
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرمُ

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٦٣)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٤).
(٢) «صحيح البخاري» (٤٤٤٩).
(٣) «صحيح مسلم» (٢١٩١).
(٤) السحر: موضع الرئة، ويراد به هنا الصدر. ينظر: «عمدة القاري» (١٨/ ٧٠).
(٥) «مسند أحمد» (٢٤٩٠٥)، و«صحيح البخاري» (١٣٨٩)، و«صحيح مسلم» (٢٤٤٣).
(٦) باختصار من «السيرة النبوية الصحيحة في ضوء القرآن والسنة» للدكتور محمد أبي شهبة رحمه الله (٢/ ٥٩٤).

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته ... عند الصراط إذا ما زلت القدم[١]

وبوفاته ﷺ انقطع الوحي من السماء، وأظلم من المدينة كل شيء، وكانت المصيبة به أعظم المصائب على الأمة كما قال ﷺ: «**فَإِنَّ أَحَداً مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي**»[٢].

فهو الذي لم يوجد مثله يوم وُجد، ولن يُفقد مثله يوم فُقد:

وما فَقَدَ الماضون مثل محمد ... ولا مثله حتى القيامة يفقد[٣]

ذهب الرسول وبقيت الرسالة، وتوفي الداعي وبقيت الدعوة، ومات النبي وبقيت الأمة.

توفي ﷺ بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم النعمة، ورضي الإسلام ديناً، ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا**﴾.

توفي ﷺ بعد أن بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

لِيَبكِ رَسولَ اللهِ مَن كانَ باكِيا ... وَلا تَنسَ قَبراً بِالمَدينَةِ ثاوِيا

جَزى اللهُ عَنّا كُلَّ خَيرٍ مُحَمَّدا ... فَقَد كانَ مَهدِيّاً دَليلاً وَهادِيا

أَتَنسى رَسولَ اللهِ أَفضَلَ مَن مَشى ... وَآثارُهُ بِالمَسجِدَينِ كَما هِيا

وَكانَ أَبَرَّ الناسِ بِالناسِ كُلِّهِم ... وَأَكرَمَهُم بَيتاً وَشِعباً وَوادِيا

فَكَم مِن مَنارٍ كانَ أَوضَحَهُ لَنا ... وَمِن عَلَمٍ أَمسى وَأَصبَحَ عافِيا[٤]

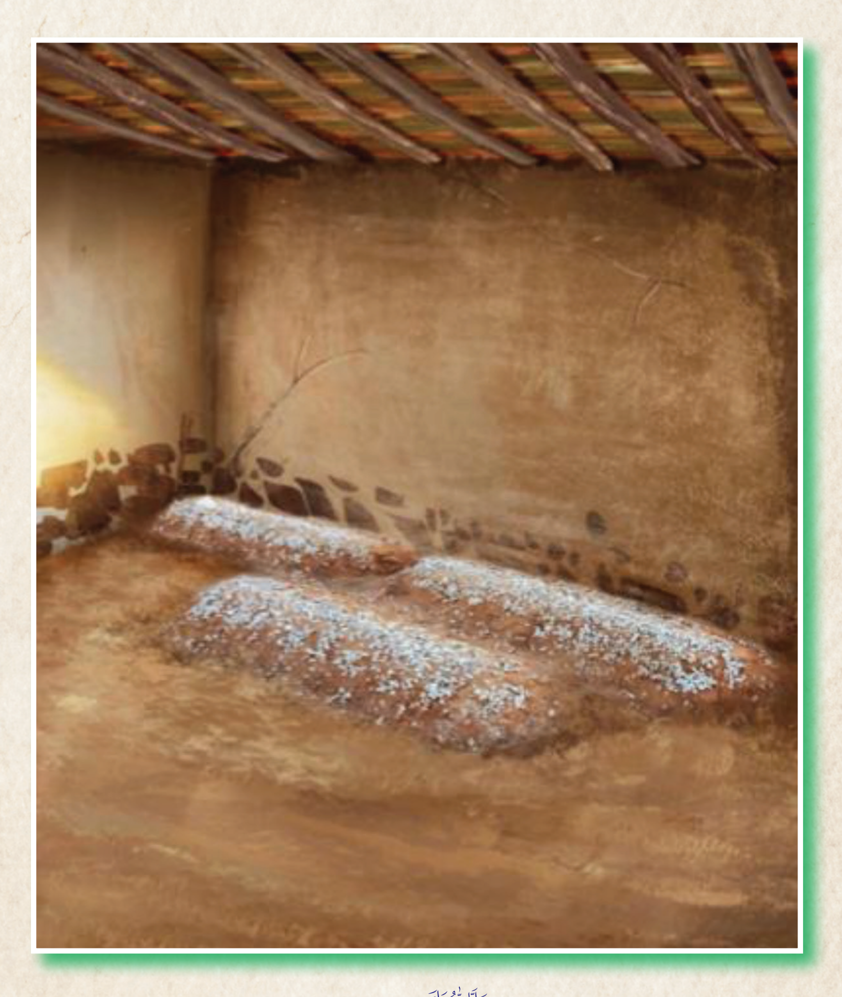
---

(١) «الفتوحات الربانية» للصديقي (٣/ ٢٨).

(٢) «سنن ابن ماجه» (١٥٩٩).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٨).

(٤) «لطائف المعارف» لابن رجب (ص١١١-١١٢).



رسم تخيلي لقبر النبي ﷺ وصاحبيه داخل البيت النبوي

والقبر النبوي إلى الأمام على اليمين وخلفه قبر الصديق، رأسه عند كتف النبي ﷺ

وعلى اليسار قبر الفاروق، رأسه عند قدمي النبي ﷺ



قراءة لليوم النبوي

اليومُ النبويُّ يشكِّل مَقْطَعاً أُفقيّاً للحياة النبوية العريضة، يتجلَّى لنا من خلاله باقة من الدِّلالات العميقة:

١ ـ أن هذا **اليوم النبوي** هو الوعاء الزماني للإنجازات الكبرى التي تحقَّقت على يد النبي ﷺ، فلم يَعرفِ التاريخ إنجازاً تحقَّق على يد بشر كالإنجاز الذي تحقَّق على يد هذا الرسول الكريم العظيم ﷺ.

٢ ـ ألم يلفتْ نظرَك شدَّةُ الوضوح إلى درجة السُّطوع في حياته ﷺ اليومية؟ فليس في حياته زوايا مظلمة أو حلقات مفقودة، بل كل حاله جَلِيٌّ ظاهر باهر، حتى إنا نعلم حاله في بيته إذا أغلق بابه، وحاله على فراشه إذا نام مع أهله، وصوت نَفَسِه إذا نام، وأول ما يقول إذا استيقظ!

لقد شعرتُ وأنا أتتبَّع برنامج **اليوم النبوي** أني أعرفُ عن نبيي ﷺ أكثر مما أعرف عن أبي الذي ولدني، ففدىً له نفسي وأمي وأبي؛ فقد كان ﷺ مُشْرَقَ الحياة، كان نبيّاً يمشي تحت الشمس.

٣ ـ ترى في هذا اليوم تحقيق قوله ﷺ: «**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»[(١)].

فالصلوات منتشرة في مساحة يومه؛ فرائضَ وسُنناً وقيامَ ليل، فهي منازل الاستراحة النفسية في مسيرة اليوم، وكأنما يتلقَّى في صلاته تلك مَدَدَ

(١) «مسند أحمد» (١٢٢٩٣)، و«سنن النسائي» (٨٨٣٦)، وغيرها.

ربه وفتوحه عليه؛ ليتجدَّد له بعد كل صلاة: قوة وعزم ومَضاء، لقد كانت الصلاة قُرَّة عينه وراحة نفسه، حتى كأنما يستبطئ الصلاةَ وقد حان وقتها، فيقول من شدَّة شوقه إليها: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»[١]. ولا أفصح ولا أدقَّ في تصوير أشواق روحه العالية من قوله: «**أَرِحْنَا بِهَا**». فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه[٢].

وذكر ابن القيم أن مجموع وِرْده ﷺ الرَّاتب بالليل والنهار أربعونَ ركعةً، كان يحافظُ عليها دائماً؛ سبعةَ عَشَرَ فرضاً، وعشرُ ركعات أو ثنتا عشرةَ سُنَّةً راتبةً، وإحدى عشرةَ أو ثلاثَ عشرةَ ركعةً قيامه بالليل، والمجموع أربعونَ ركعة، وما زاد على ذلك فعارضٌ غير راتب، كصلاة الضحى، وصلاته عند مَن يزوره، وتحية المسجد ونحو ذلك، فينبغي للعبد أن يواظب على هذا الورد دائماً إلى الممات، فما أسرعَ الإجابةَ وأعجلَ فتْحَ الباب لمَن يَقْرَعُهُ كلَّ يوم وليلة أربعينَ مرَّةً[٣].

٤ ـ صلاته بالليل هي أعمق صلاته حضوراً واستغراقاً وتلذُّذاً بالمناجاة؛ بل هي حالة من حالات التجلِّي الروحي والاستغراق التعبُّدي.

٥ ـ يلفت نظرَك إلى حد الإدهاش، أن هذا النبيَّ الذي تلقَّى بشائر الله له أنه قد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، هو أكثرُ الناس استغفاراً؛ فهو يَستقبل صَبِيحةَ كل يوم بالاستغفار مئة مرة، ويُعَدُّ له في المجلس الواحد أكثر من مئة مرة: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الْغَفُورُ**»[٤]. ثم يستغفر ربَّه بضراعة وخشوع

---

(١) «مسند أحمد» (٢٣٠٨٨، ٢٣١٥٤)، و«سنن أبي داود» (٤٩٨٥، ٤٩٨٦)، وغيرها.

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦٨).

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٢٧).

(٤) تقدم في «المجلس النبوي».

في صلاته الليلية: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»(١).

يستغفرُ هذا الاستغفار، وهو الذي غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وهو المعصوم أن يقارف ذنباً أو يكسب إثماً، ماذا نقول نحن، وأوقات حياتنا لا تكاد تفلت من وقوع في خطأ، أو مقارفة لخطيئة، اللهمَّ غَفْراً!

٦ ـ لَهَجُ النبيِّ ﷺ بالذِّكر؛ بحيث تستشعر أن هذا النبي الكريم يعيش حالة من الحب والشوق لله عز وجل، وكأنه يتراءى جلالَ ربه، فلا يفتُر لسانه عن ذكره، فهو أول ما ينطق به إذا استيقظ، وآخر ما تتحرَّك به شفتاه إذا نام، يستقبل بالذكر صَبَاحات نهاره، ومَسَاءات ليله، ولا يزال لسانه رَطْباً بذكر الله فيما بين ذلك كله، إنه الاستحضار العميق لمعاني العبودية والحب والإجلال لله عز وجل.

٧ ـ تبكير النبي ﷺ إلى أداء الصلوات في أول وقتها، إِلَّا العِشاء، فربما تراخى فيها قليلاً.

٨ ـ حديثُ النبيِّ ﷺ إلى أصحابه يكون عقب الصلوات، فكثيراً ما يكون بعد الفجر والظهر؛ لأن الناسَ في حال نشاط وراحة، فهاتان الصلاتان مسبوقتان بنوم الليل وقيلولة الضحى، ويتحدَّث نادراً بعد العصر والعِشاء؛ لأن الناسَ في حال كلال وحاجة إلى الراحة، ولم يُنقل أنه تحدَّث بعد المغرب؛ لأن الناس بعدها بحاجة إلى عَشائهم؛ فلذا يبادر بها في أول وقتها، ولا يطيل القراءة فيها، ولا يتحدَّث بعدها.

٩ ـ التوازن في أداء الحقوق، والتوازن في استيعاب مناشط الحياة؛ فأداؤه لعباداته، وبلاغه لرسالاته، وقيامه بحقوق أهله، وعشرته لأصحابه، ومراعاة

---

(١) تقدم في «ناشئة الليل».

حق نفسه، وغير ذلك من متطلباته؛ كل ذلك يسير متوازياً متوازناً، من غير أن تَرَى تقصيراً في حقٍّ أو إخلالاً بواجب، وإنما الاستيعاب المتوازن للحقوق الخاصة والعامة، بحيث ترى في حياته التطبيق العملي لوُصاته يوم قال: «**إِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لضَيفكَ عَلَيْكَ حَقاً، وَإِنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً، وَإِنَّ لِصَدِيقِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**»[1]. وقد أَعطى ﷺ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه.

١٠ـ حياته ﷺ مزدحمة وحافلة، ولكنها ليست متوتِّرة ولا مرتبكة؛ فبرغم كثرة المشاغل وازدحامها، فإن نفْسَه هادئة مسترخية، فلا تجد اضطراباً ولا توتُّراً، وإذا نظرت إليه في حالٍ ظننتَ أن ليس له عمل قبلها ولا بعدها، فحاله في بيته لا تدل على أن أعباء الحياة ومشاغلها تنتظره في الخارج، وجلوسه مع أصحابه لا يَدُلُّكَ على أنه في حال تحفُّز أو قلق لعمل آخر ينتظره؛ فهو مقبل عليهم بكلِّه، مسترخٍ بنفسه معهم، يَسَعُهُم جميعاً حسنُ خلقه، وكأن عمله الوحيد هو هذا المجلس الذي هو فيه، إن هذه حالة استواء نفسي تستوعب الأعمال دون أن تتوتَّر أو ترتبك.

١١ـ حياته ﷺ حياة مُرَتَّبة وليست رَتِيبة، فهي مرتَّبة، ولكنها أيضاً مَرِنَة، بحيث تسمح بالتموُّج تبعاً لمقتضيات الحال؛ فليس في حياته فوضى أو ارتباك، وليس في حياته رَتَابة وصَرَامة، ولكن ترتيب ومرونة؛ فوقت الصلوات وقت محدَّد يرتِّب ما بينها، ومجلسُه ﷺ يمكن أن يطول ويقصُر، بحسب مستجدات الأحوال، وبذلك تحقَّقت في حياته إيجابيات التنظيم، وتخلَّص من سلبيات الرَّتَابة وحَدِّيَّة الصرامة.

---

(١) «صحيح البخاري» (١٩٦٨، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ٦١٣٩)، و«صحيح مسلم» (١١٥٩).

١٢ـ في حياته ﷺ عَفْوية الحياة وبساطتها، فحياته ﷺ بعيدة عن التواقر المتكلَّف والجِديَّة الصارمة.

ولكن للعَفْوية والبساطة حضورها، فهو الذي يبتهج مع البهجة، ويأنس مع الأُنس، ويتوثَّب في نشوة الفرح، حتى يسقط رداؤه ليتلقَّى حبيباً جاء بعد طول غياب[1]، ويسير في طريقه ثم يحيد إلى شاب يسلخ شاة، فيَحْسِرُ عن ذراعه؛ ليُرِيَه كيف يُحْسِنُ السَّلْخ، ويمرُّ برجل يطبخ لحماً في بُرْمة، فيقول: «**أَطَابَتْ بُرْمَتُك؟**». ثم يتناول منها بَضْعَةً فيأكلها[2].

إن هذه العَفْويَّة في التعامل مع الناس حَطَّمت كل الحواجز؛ بحيث أفضى إليهم بقلبه، وأَفْضَوْا بقلوبهم إليه، وشعروا أنهم مع النبي ﷺ أبناءٌ مع أبٍ لهم.

١٣ ـ الأُنْس والبهجة حاضرةٌ في بيته؛ فقد كان في بيته ضَحُوكاً بَسَّاماً، حاضرةٌ في مجلسه؛ ففيه فُسحة للطُّرْفَة الجميلة والمداعبة المُؤْنِسة، وحاضرةٌ في حياته؛ فهو الذي يخرج وينظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فيستمتع بمنظر لهوهم، ويدعو زوجته لتشاركه أُنْس المنظر، ثم يقول مؤصِّلاً لهذا الهَدْي: «**الْعَبُوا بَنِي أَرْفِدة؛ حَتَّى تَعْلَمَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَنَّ فِي دِينِنَا فُسْحَةً، إِنِّي أُرْسِلْتُ بِحَنِيفِيَّةٍ سَمْحَةٍ**»[3]. لقد كان في دينه سَعة، وفي حياته سَعة للأُنْس والبهجة.

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٢٦٤٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٢٢٠٦، ٣٣٦٨٢، ٣٦٦٤٣)، و«جامع الترمذي» (٢٧٣٢)، و«الآحاد والمثاني» (٣٦٣)، و«شرح معاني الآثار» (٤/ ٢٨١)، و«شرح مشكل الآثار» (١٣٨٤)، وغيرها.

(٢) تقدم في «يمشي في الأسواق».

(٣) «مسند الحميدي» (٢٥٦)، و«مسند أحمد» (٢٤٨٥٥)، و«صحيح البخاري» (٢٩٠٧)، و«صحيح مسلم» (٨٩٢).

١٤ـ قوة العلاقة العاطفية الزوجية، وإشباع هذه العاطفة، التي تظهر في مناولة قدح الماء، ومناولة لقمة الطعام، والمؤانسة في الحديث الليلي، والتعاهد بالزيارة النهارية، والمشاركة في مِهْنة البيت، والتواصل الزوجي الحميم على فراش الزوجية وتحت لحافها.

١٥ـ تفهُّمه لِفِطَر الناس وحاجاتهم ومشاغلهم، حتى في أدائه للعبادة، فكان أقصر الناس صلاة إذا صلَّى بالناس، مع أنه كان أطولهم صلاة إذا صلَّى لنفسه، وكان يدخل الصلاة وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبيِّ فيخفِّفها؛ لِمَا يعلم من وَجْدِ أُمِّه[1].

١٦ـ يتَّضح من هذا اليوم أن أعمق عباداته ﷺ وأكثرها استغراقاً، هي عبادات السر التي كان يفعلها في بيته وفي سكون الليل، والتي لزمها وداوم عليها حتى لقي ربه.

وتلك دلالة من دلالات النبوة؛ إذ لا يمكن أن يكون هذا التبتُّل المستغرق المنتظم، والذي استمر عليه عمره كله، صنيعاً لمُدَّعٍ ولا مُتقوِّلٍ ـ وحاشاه ﷺ ـ لكنه دلالة على يقين صادق وإيمان عميق بما يقوله ﷺ ويبلِّغه.

١٧ـ **يمكن تقسيم فترات نشاطه ﷺ إلى ثلاثة أوقات:**

- **فترة النشاط والحيوية والصفاء في قيام الليل**؛ لأن قيامه للتهجد هو بعد أطول فترة نوم ينامها في نصف الليل الأول، فكأنما كان يستجمع صفو نشاطه لهذا الحال؛ إذ صلاته هي راحته وقُرَّة عينه.
- **ثم بعد الفجر**؛ إذ هي تَعقب إغفاءة السَّحَر، فيصلِّي الفجر ويذكر ربه، ثم يجلس لأصحابه وعظاً وتعليماً وتربية.

(١) تقدم في «صلاة العِشاء».

• **ثم بعد صلاة الظهر**؛ إذ هي تعقب القيلولة، فيصلِّي الظهر ويخطب إن كان قد حدث أمر، أو يجلس لأصحابه يحدِّثهم ويقضي حوائجهم.

١٨ـ يلاحظ أن الصلوات هي فواصل الأوقات، فالوقت يقسَّم إلى وحدات زمنية تفصلها الصلوات.

ويمكن تقسيم برنامج اليوم النبوي تقسيماً تقريبيّاً على النحو التالي:

أ ـ **الفجر**: يستيقظ لصلاة الفجر بعد نومة السَّحَر، فيصلِّي الفجر، ويمكث في مصلَّاه مع أصحابه إلى طلوع الشمس، ثم يقوم بجولة صباحية على زوجاته، ثم يجلس في أول الضحى مع أصحابه في المسجد، وهذا مجلس ذكر وعلم وتربية، ثم يقوم أحياناً بزيارات بعد هذا المجلس، فربما زار بُنَيَّاته، أو زار بعض أصحابه، وربما ذهب لقضاء بعض شأنه الخاص.

فإذا تعالى الضحى، فإنه وقت النوم والقيلولة، فيَقِيل قبل صلاة الظهر، وهذه النومة إراحة للبدن، ومَدَد لقيام الليل.

ب ـ **الظهر**: يستيقظ لصلاة الظهر، فيصلِّي الظهرَ، فإن كان حدَثَ أمرٌ خَطَبَ بعد صلاة الظهر، وأكثرُ خطبِه في هذا الوقت، ثم يعود إلى بيته فيصلِّي السُّنة الراتبة، ثم يخرج فيجلس إلى أصحابه، أو يذهب لقضاء بعض شأنه، فقد كان ما بين الظهر والعصر وقت عمل وقضاء حاجات.

ج ـ **العصر**: يصلِّي العصر في أول وقتها، ثم يقوم بعد صلاة العصر بجولة مسائية على زوجاته، وربما اجتمعن له في بيت التي هو عندها، وكأنما ما بين العصر والمغرب وقت استرخاء أُسَري في الغالب.

د ـ **المغرب**: يصلِّي المغرب في أول وقتها، ثم يتعشَّى، ويبقى في بيته، وهذا هو وقت تناول الوجبة الرئيسة، وهي وجبة العَشاء.

هـ ـ العِشاء: يصلِّي العِشاء، ثم يعودُ إلى بيته، فيسمُر مع أهله، وربما ذهبَ في زيارات لبعض الأنصار، أو سَمَر مع أبي بكر وعمرَ في بيت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا؛ للتشاور في شؤون الدولة وقضايا المسلمين، ثم يعود بعد سمره إلى بيته، فينام إلى منتصف الليل، ويستيقظ إذا انتصف الليل ليصلِّي صلاة الليل، وهو في ذِروة نشاطه بعد أطول نومة، فيستمر في حاله هذه من الصلاة والمناجاة بقدر ثلث الليل، حتى إذا لم يبق إِلَّا سدس الليل عاد إلى فراشه؛ ليستريح ويغفي إغفاءة السَّحَر إلى صلاة الفجر.

١٩ـ كانت وقائع حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اليومية مشهداً من مشاهد دلائل نبوته، لا يمكن أن يراها أحدٌ إِلَّا علم أن هذا حال نبيٍّ مرسلٍ من الله، يتنزَّل عليه وحيه، ليس بمتقوِّل في دعواه، ولا طالب حظٍّ لنفسه، وهذا ما أدركه ثُمامة بن أُثال الذي أُتي به إلى المدينة أسيراً، وما أحدٌ أبغض إليه من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فأمر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن يُربط إلى سارية من سواري المسجد، فلما رأى ثمامةُ حالَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في يومه وليلته، ورأى مدخله ومخرجه، وحاله مع الناس حوله؛ علم أن هذا نبيٌّ مرسلٌ، وليس بمَلِك ولا جبَّار، فلما أمر النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بإطلاقه، انطلق فاغتسل، ثم عاد إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقال: أشهدُ أن لا إله إِلَّا الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله، يا محمدُ، والله ما كان على الأرض وجهٌ أبغَضَ إليَّ من وجهكَ، فقد أصبح وجهُكَ أحبَّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغضَ إليَّ من دينكَ، فأصبح دينُكَ أحبَّ الدِّين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغضُ إليَّ من بلدكَ، فأصبحَ بلدُكَ أحبَّ البلاد إليَّ(١).

وكذلك كان حال عدي بن حاتم لما أتى النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهو على نصرانيته، فسار مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في الطريق، فاستوقفته امرأةٌ معها غلامٌ، فوقف لهما صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ،

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٣٧٢)، و«صحيح مسلم» (١٧٦٤).

حتى قال عديٌّ: حتى أَوَيْتُ له من طول القيام. ثم قال عديٌّ: قلتُ في نفسي: أشهدُ أنك بَرِيءٌ من ديني ودين النعمان بن المنذر، وأنك لو كنتَ مَلِكاً، لم يَقُمْ معه صبيٌّ وامرأة طولَ ما أرى. فَقَذَفَ اللهُ في قلبي له حُبّاً. ثم أسلم عديٌّ بعد ذلك المشهد[١].

٢٠ـ يظهر من هذا البرنامج اليومي أن المصطفى ﷺ كان يعيش حياة طيبة سعيدة.

أما سعادته الإيمانية؛ فأُفُقٌ عالٍ لم يصل إليه بشر قبله؛ فهو أعرف الخلق بالله وأعظمهم إيماناً وأصدقهم يقيناً.

وما ظنُّك بمَن رُفع فوق السَّبع الطِّباق إلى مستوى يسمع فيه صَرِيف الأقلام، ورأى الجنةَ رأي عين، حتى هَمَّ أن يتناول منها قِطْفاً، ورأى الكوثرَ الذي أعطاه ربُّه، فإذا طينُه المسك الأَذْفَرُ، وإذا رَضْرَاضُهُ اللُّؤْلُؤُ؟[٢].

كيف سيكون حال نبي قُرِّب هذا القرب ورُفِع إلى تلك المنزلة حينما يناجي ربَّه ويدعوه ويمجِّده ويُثني عليه؟!: «**إِنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي**»[٣].

إن تلذذه بالعبادة وتذوقه لحلاوة الإيمان لا يمكن أن يقرِّبه أو يصوِّره مقارنته بأي لذة من لذائذ الحياة الدنيا.

وهو أيضاً سعيد في حياته الدنيوية، وهذه السعادة تجدها في لفتات حياته كلها، وتستشعر تذوقه لهذه السعادة وعميق امتنانه لربه بها؛ فقد أجاره ربه من الهم والحزن، وأعاذه من سيِّئ الأَسْقام، فعاش في عافية بدنية وعافية نفسية وعافية أُسرية، عاش في عفو وعافية ومعافاة دائمة.

---

(١) تقدم في «يمشي في الأسواق».

(٢) «مسند أحمد» (١٢٦٧٥، ١٣٤٢٥)، و«صحيح البخاري» (١٢١٢)، و«صحيح مسلم» (٩٠١).

(٣) «صحيح البخاري» (١٩٦١ - ١٩٦٧)، و«صحيح مسلم» (١١٠٢ - ١١٠٥).

فله ﷺ الزوجة الوَضِيئة التي يحبها وتحبه، يقاسمها أجمل عواطف المودة والحب.

وله الابنة الطاهرة وابناها ريحانتا دنياه، يُغْدِقُ عليهم أعذب مشاعر الأُبوَّة.

وله الأصدقاء الصادقون: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، يقاسمهما أعباء الحياة، فيُسمع كثيراً يقول: «**دَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»(١).

وله الصِّهر والنَّسيب القريب في نسبه وداره الذي يحبه ويعلم أن الله في ملئه الأعلى يحبه: أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وله أصهارُ برٍّ ووفاء، حدَّثوه فصَدَقوه ووعدوه فوَفَوْا له: عثمان بن عفان وأبو العاص بن الرَّبيع رضي الله عنهما.

وله الأصحاب المرضيُّون الذي ينزل عليه وحي ربه في تزكية سرائرهم وما في قلوبهم: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾.

فكان سعيداً بمَن حوله ومَن معه.

ثم عاش حياةً تتدافع الإنجازات الكبار فيها، وأعظم السعادات في الحياة تحقيق الإنجازات، ثم تحقيق الهدف الأكبر له في الحياة، وهو بلاغ رسالات الله، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.

لا أستطيع أن أتخيَّل تلك السعادات على قلب الرسول ﷺ وهو يرى هذه الجموع في مسجده تكثر، ومساحة الإسلام تتَّسع، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً.

بل لا أستطيع أن أُصوِّر مشاعري لمجرد تخيل مشاعره ﷺ، وهو في حَجَّة

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٦٨٥)، و«صحيح مسلم» (٢٣٨٩).

الوداع يسمع تلك الجموع حوله من كل أنحاء الجزيرة، تقول بفم واحد: نشهد أنك قد بلَّغت ونصحت وأدَّيت الذي عليك.

إن هذا كله بعض عطاء الله الغامر له يوم قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾.

٢١ ـ تجد في حياته ﷺ تذوُّق لذائذ الحياة، واستشعار جمال ما يرى، ولذة ما يتذوَّق، والامتنان لله بالنعمة عليه بذلك، ففي الشَّربة يشربها واللُّقمة يأكلها يتذوق لذَّة ذلك بامتنان عظيم لله: «**الحمدُ للهِ، حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه، الحمدُ للهِ الَذِي كَفَانَا وَأَرْوَانا، غيرَ مَكْفِيٍّ، ولا مَكْفُورٍ، ولا مُوَدَّعٍ، ولا مُسْتَغْنىً عنه ربَّنَا، اللهمَّ إنك أَطْعَمْتَ وأَسْقيتَ، وأَغْنيتَ وأَقْنَيتَ، وهَدَيْتَ وأَحْييتَ، اللهمَّ فلك الحمدُ على ما أعطيتَ**»[١].

في يقظته من نومه يستشعر فضل الله عليه بنومة تتمنَّاها عيون مُؤرَّقة، ثم استيقاظه بعافية وحيويَّة، فيتذكَّر فضل واهب الفضل: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَمَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**»[٢].

إذا كان هذا في الأَكْلة المعتادة والنومة المعتادة التي يذهب الاعتياد استشعار نعيمها، فكيف بالنعم المتجدِّدة والأَفضال المتتابعة؟ إنك تستشعر أنه يقف عند كلِّ نعمة، فيتذوقها كاملة، ثم يستشعر فضل الله عليه بها، حتى لكأنك تسمعه يهاتف ربه قائلاً: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيَّ فَأَفْضَلَ، الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَعْطَانِي فَأَجْزَلَ، الْحَمْدُ للهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**»[٣].

وإذا كان ﷺ يلفت أبصار بصائرنا إلى ما نألفه حتى لا نكاد نحس به؛ المبيت الآمن، مع طعام ليلة وعافية بدن، فيقول: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ،**

(١) تقدم في «بعد الغروب».

(٢) تقدم في «أنوار الفجر».

(٣) تقدم في «بعد الغروب».

مُعَافىً فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[١].

فكيف كان تذوقه هو ﷺ لذلك وما هو أكثر من ذلك؟!

إن استشعار النعم وتذوقها وتعظيمها في النفس يزيد مساحة السعادة بها، ويجعل الحياة أكثر بهجة ورُواءً، ويجعل النفسَ أعظمَ ما تكون سكينة ورضاً وامتناناً للوهَّاب الذي هذه هبته، والكريم الذي هذا فضله، فتثمر النعمة نعماً، وتزداد الحياة اتِّساعاً وتجدُّداً وتوهُّجاً.

٢٢ـ عندما ترى من خلال هذا اليوم هذه الحياة النبوية الحافلة، وهذا التفاعل الحي مع الحياة، فَتَذَكَّر كَمَّ الآلام والأحزان التي استقبلها النبيُّ ﷺ في حياته ثم تجاوزها، لقد تلقَّاه في أول إقباله على الحياة؛ اليُتم المتكرِّر في الطفولة، ثم الأَذَى البالغ بعد البعثة، وفجيعته بزوجته خَدِيجة أحب الناس إليه، ثم ثكله ببنيه وبناته في حياته، وفراق بلده التي هي أحب البلاد إليه، ومهاجره عنها، ومصابه في قرابته وأصحابه في أُحُد، وآلام حادثة الإفك، وغير ذلك من أوصاب حياته وبلاءاتها.

ولكنه مع ذلك كله كان يتمتَّع بقدرة عظيمة عجيبة على تجاوز المشاعر السلبية، ولياقة فائقة على استئناف الحياة، والتفاعل الإيجابي مع كل لحظاتها!

إنك وأنت ترى هذا الزَّخَم العظيم في كل يوم من أيام حياته، لتكاد تقول: هذه سيرة مَن لم تمر به شدَّةٌ قطُّ، ولم يَعْرِض له بلاءٌ قطُّ.

وما كان بأبي هو وأمي كذلك، ولكنه يتجاوز هذه الآلام ولا يستصحب آلامها، فلكل لحظة في عمره مشروعها وإنجازها وبهجتها؛ إنها الحياة المتدفِّقة المتجدِّدة، إنها الحياة كما ينبغي أن تكون الحياة.

٢٣ـ تعجبُ لهذا الحضور العَمِيق لحياة رسول الله ﷺ في حياة أصحابه،

(١) «جامع الترمذي» (٢٣٤٦)، و«سنن ابن ماجه» (٤١٤١)، وغيرها.

وتفاعله بحيويَّة معهم، حتى لتكاد تجزم أن لكل واحد منهم معه موقِفٌ أو حدثٌ أو قصةٌ.

يستقبل أطفالهم في أول طريق الحياة، فيتدلَّونَ في حِجره، ويرشُفونَ أول ما يرشُفونَ ريقته وبركته[(١)].

ويتزاحم خدمُهم في مصلَّاه مع أول أنوار الصباح، فيغمس يده المباركة في آنيتهم[(٢)].

ويتلقَّاه صبيتهم وبُنيَّاتهم في الطريق، فيمسح وجوههم ويعلن الحبَّ لهم[(٣)].

يَمُجُّ الماء في وجه صبي[(٤)]، ويُلْبِس طفلةً الكساءَ بيديه[(٥)]، ويضيء حياة كلٍّ منهم بذكرى مبهجة جميلة.

إذا لقوه تشرق لهم ابتسامته، وتتلقَّى أيديهم بركة يده وطِيبها[(٦)].

خطواته دفَّت إلى بيوتهم، ويده شركتهم في طعامهم[(٧)].

عاش أفراحهم، فكبرت أفراحهم الصغيرة بحُبُوره وحضوره.

يدعونه ليشركهم الفرحة بذبح جزور، فيأتي وينظر معهم وينتظر[(٨)].

يشرف إلى لهو الحبشة وهم يرقصون في المسجد، فيمد ابتهاجهم ببهجته: «**الْعَبُوا بَنِي أَرْفِدَة**»[(٩)].

---

(١) تقدم في «المجلس النبوي».

(٢) تقدم في «أنوار الفجر».

(٣) تقدم في «يمشي في الأسواق».

(٤) تقدم في «الزيارات النبوية».

(٥) «صحيح البخاري» (٣٠٧١، ٥٨٢٣)، و«قصص نبوية» للمؤلِّف (ص١٥٩- ١٦٤/ «أم خالد»).

(٦) تقدم في «يمشي في الأسواق».

(٧) تقدم في «الزيارات النبوية».

(٨) تقدم في «والعصر».

(٩) تقدم قريباً.

عاد مرضاهم، فإذا أفاقوا إذا هو ينظر إليهم، وإذا بَرْدُ يده يمسح آلامهم[(١)].

صحب جنائزهم، ووقف على قبور أهليهم وأحبائهم، وذرف الدمع في أحزانهم.

وإذا غابوا عنه، بلغهم سؤاله عنهم وتفقُّده لحالهم، فتفرَّقت حياته في حياتهم، وتنوَّرت حياتهم بحياته بحضور عَمِيق وتفاعل عَجِيب.

ثم تُوفِّي ﷺ، وبقي حيّاً في نفوسهم، حاضراً في قلوبهم، مُشْرِقاً في عيونهم؛ فلكل واحد منهم معه ذكرى لا تُمْحَى ولا تُنْسَى، فإذا تحدَّثوا عنه فكأنما لا يزال يتراءى طيفُه لهم، ولا تزال تنظر إليه عيونُهم:

كأنِّي أنظرُ إلى وَبِيص ساقَيْه...

كأنِّي أنظرُ إلى وَبِيص خاتمه...

كأنِّي أنظرُ إلى وَبِيص الطِّيب في مَفْرِق رأسه...

ما زلتُ أجد برد يده...

فإذا يده أبرد من الثلج، وأطيب من المسك...

يخيل إليَّ الساعة أني أجد بَرْدَ قدمه على كفِّي..[(٢)]..

٢٤ ـ الرحلة مع المصطفى ﷺ في يومه النبوي مددٌ لحبه العظيم في قلوبنا؛ ولذا كان صحابة رسول الله ﷺ أشدَّ الناس له حبّاً وأكملَ الخلق له تعظيماً؛ لأن كل ما يرونه من لفتات حياته يَتْرَعُ قلوبهم حبّاً له وتعظيماً، فحياته ﷺ بكل تفاصيلها حياة جاذبة، ولئن فاتنا أن نرى ما رأوه، فلن يفوتنا أن نعلمَ به ونتعلَّمه، ولا تَزَال تتروَّى مما رآه الصحابة من رسول الله ﷺ وما سمعوه، حتى يعمُرَ قلبَك من حُبِّه ما عَمَرَ قلوبَهم، وإن صحبةَ النبي ﷺ في تفاصيل

---

(١) تقدم في «عيادته المرضى».

(٢) «مسند أحمد» (١٢٨٨٠، ١٨٧٦٧)، و«صحيح البخاري» (٢٧١، ٥٧٢، ٣٥٥٣، ٣٥٦٦، ٥٦٥٩، ٥٩١٨)، و«صحيح مسلم» (٥٠٣، ٦٤٠، ١١٩٠)، و«سنن النسائي» (٦٢٨٤).

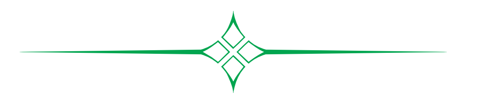
يومه الكامل مددٌ وِجداني لخزائن الحب النبوي في قلوبنا؛ فهو الذي كلما ازددت به معرفة ازددت له حبّاً، وكلما ازددت صحبةً لخبره ازددت شوقاً إلى رؤيته.

ويا لَكَمْ طوت لي حُجُبَ الزمن أخبارٌ أَتَرَوَّاها، حتى لكأني أعيشُ الخبرَ رأي عين، فأستشعر الدُّنو إليه، وأكاد أنغمرُ في أنواره، وأستنشق عطر أنفاسه، وأَهُمُّ أن أدنو منه أَلْثَمُ يديه وأجد بَرْدَ كفَّيه، وأهتف في مسامعه من كل قلبي: والله يا رسولَ الله، لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من نفسي.

اللهمَّ إنَّا آمنا بنبيك محمد ﷺ، وأحببناه واتَّبعناه وما رأيناه، اللهمَّ فلا تحرمنا رؤيته يوم القيامة، واحشرنا في زمرته، وأنلنا شفاعته، وأوردنا حوضه، وارزقنا مرافقته في جنات الفردوس الأعلى مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.





تكوين الكتاب

١- بدأت فكرة هذا الكتاب عام: (١٤١٥هـ) تقريباً، في حديث عابر بيني وبين أخي عبد العزيز الماجد رحمه الله، وكانت الفكرة فكرته، أذكر منها كلمة: **اليوم الكامل لرسول الله** ﷺ، وإشارة يده وهو يذكر مجيء خدم المدينة بالماء، فيضع المصطفى ﷺ فيه يده، وبقي هذا المشهد وتلك الكلمات حاضرةً في ذهني، حتى إني لأذكر زمانها ومكانها كأنها الساعة، جعل الله ذلك له من العلم الذي يُنتفع به بعدَه، وجزاه عني خير ما جزى أخاً عن أخيه.

٢- ظلَّت الفكرة تنمو في ذهني هذه المدة، وأنا ألتقط مفرداتها وشواهدها، وأجتهد في رصفها وإلحاقها بأَوْلَى المواضع بها، ثم كتبتُ منها سياقةً مختصرةً لـ«**اليوم النبوي**»، ودفعتُ بها إلى مشايخي وإخوتي الذين ذكرتهم بالشكر في مقدِّمة الكتاب، وكم استفدتُ من تسديدهم ومشورتهم وملاحظتهم، وكل ما أفادوا به فهو مبثوث في مساحة هذا الكتاب، تولَّى الله عني كفاءهم وحسن جزائهم.

٣- **الهدف من هذا الكتاب**: تقديم مشهد متكامل ليوميات الحياة النبوية، نتتبَّع في إيقاعها اليومي مواقعَ التأسِّي والاقتداء: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾، فنأخذ من حياته ما نُصْلِح به حياتنا.

وسوف نجد في مسار هذا اليوم وأحداث هذه الحياة ما يأتلف مع التجربة البشرية في أُفقها الواسع ومشتركها الجامع؛ ليرى فيه البشر، كل البشر، النموذج الأعلى في سُمُوِّه، والأقرب بواقعيته وبشريته: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**﴾.

٤- تعتني أكثر كتب السيرة بعرضها حسب المسار التاريخي، فتقدمها **تاريخ حياة**، وأحسب أن هذا العمل عرض للسيرة النبوية من زاوية أخرى، وهي زاوية الممارسة اليومية، فيقدِّمها **ممارسة حياة**، ونحن بحاجة إلى هذه وتلك، وإلى نظرات أخرى من زوايا أخرى، ففي رحابة الحياة النبوية وضخامة إنجازها ما يتسع لذلك وأكثر من ذلك.

وقد وجدتَ مجال القول ذا سَعةٍ فإن وجدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ(١)

٥- هذه المشاهد لم تقع في يوم واحد، وما جرى في يوم لا يجري في كل يوم، ولكن مجموعها يقدِّم الصورة الأقرب لما يجري في يومه ﷺ.

٦- بعض ما في هذا البرنامج اليومي جاء في الروايات ما يدل يقيناً على أن هذا وقته من اليوم، وبعضها كان إدراجه في الوقت لدلالات دلَّت على ذلك، وتختلف هذه الدلالات قوةً وضعفاً وظهوراً وخفاءً، فهي محل اجتهاد وتحرٍّ، وقد اجتهدتُ أن يكون كل خبر في حيِّزه الزماني، بحسب ما يدل عليه سياقه ومجموع رواياته ومقارنته بنظائره، ولكن الجهد قد يقصُر، والاجتهاد قد يخطئ، ولكن حسبي أني اجتهدتُ وما أَلَوْتُ.

٧- اجتهدتُ في اختيار النصوص الصحيحة ما أمكن، وقد أُورد رواياتٍ وأخباراً في سندها بعض الضعف، هي كالتتمَّة لما في الأخبار الصحيحة، إذا لم يكن في متنها نكارة ظاهرة؛ وذلك أن جمع الأخبار إلى بعضها يكشف عما يُستنكر ولا يأتلف مع جملة ما صح منها، كما أنه يَجبر -أحياناً أخرى- ضعف بعض ما ورد بإسناد فيه مقال؛ لوجود شواهد لمعناه، أو لأن سياق الأخبار يقتضيه، ونحو ذلك.

---

(١) «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (ص٢٤٦).

٨- عندما أسوق خبراً، فإني لا ألتزم روايةً من رواياته، ولكن أختار من مجموع الروايات صياغة هي الأقرب إلى التكامل؛ ولذا فإن العزو في كل فقرة إلى مجموعة من المصادر الحديثية، هو للنص الذي يكون سياقه متحصِّلاً من مجموعها، وإن كان مفرَّقاً بينها.

٩- لا ألتزم لفظ الصحابي في روايته للحدث والواقعة، وإن كنتُ أتحرَّاه ما أمكن، ولكن قد أتصرَّف باللفظ بحدود ما يلزم به ربطه بالنصوص الأخرى، ودمجه مع مساق الأحداث.

أما اللفظ النبوي، فهو ما ألتزمه، ولا أتصرَّف فيه، إلَّا على سبيل الاختيار من الروايات، أو الجمع بينها؛ ليتحصَّل من مجموعها أوفى النصوص وأكملها.

١٠- وكنت في الطبعة الأولى استقصي في تخريج الحديث من مصادره، وأذكر كل من أخرجه ما أمكن، لأن اللفظ الذي أسوقه يكون مجموعاً من عدة روايات، ونتج عن ذلك طول في الكتاب، وكثرة في المراجع، مع أن هذا العمل لا يهتم به إلا خاصة الخاصة من المعتنين بعلم الحديث.

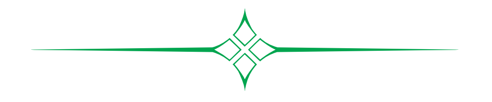
ولذا توجَّهت في هذه الطبعة إلى اختصار مصادر التخريج والاكتفاء ببعض من أخرج أصل الحديث من أصحاب كتب السنة المشهورة كالصحيحين، والسنن، وإن كان في الحديث ألفاظ هي في مصادر أخرى كالمسانيد والمعاجم ونحوها.

ومن أراد تتبع مصادر ألفاظ الحديث وجدها في الكتب الجامعة للروايات، كـ«المسند الجامع المعلل» للدكتور بشار عواد معروف، و«الجامع الصحيح للسنن والمسانيد»، لصهيب عبد الجبار.

١١- **وبعدُ**؛ فإني أشكر وأدعو لكل مَن اطَّلع على هذا الكتاب، ثم تكرَّم فأرسل لي تنبيهاً يكمِّل نقصاً، أو يَسُدُّ خللاً، أو يصحِّح خطأً؛ فالعلم رَحِمٌ بين أهله، والمرء قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، ولا يزال كل علم يَجِدُّ لنا يذكِّرُنا بقول خالقنا: ﴿**وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾.

وكتبه:

عبد الوهاب بن ناصر الطريري أبا الخيل



كتب للمؤلف

١ . قصص نبوية.

٢ . الحياة النبوية.

٣ . أماكن نبوية.

٤ . الآثار النبوية.

٥ . كأنك معه.

٦ . حديث الغدير.

٧ . سماء الذاكرة.

٨ . القبر المقدس.

٩ . سنام الإسلام.

www.altriri.net

: altriri@gmail.com

: /altriri

: @Abdulwahab.altriri

: /c/AbdulwahabAltorairy

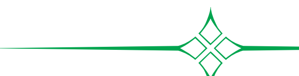
: t.me/altriri

: abdulwahabaltriri

: +905467723779



فهرس الموضوعات





اليـوم النبوي

لم يكن يوماً عاديّاً يبدأ من الصباح ويضمر في المساء، بل تشعر لفرط نشاطه أن كل لحظة هي بداية له، هو رجلُ اقْتِناصِ الفرص ورجلُ اللحظة. يفهم بفطرة النبي الرسول أن الدقيقة محسوبة ولها إنجازها.. والساعة محسوبة ولها إنجازها... واليوم محسوب وله إنجازه... والأجل ينصب خيامه على مشارف العمر.

في هذه الصفحات نعيش مع رسول الله ﷺ في صباحه ومسائه، نمشي معه في أسواق المدينة، نأكل من كفافه، نسمع صوته الحاني معلِّماً، وصوته المُخْبِت مصلِّياً، نجلس على حَصِيره الذي كان يجلس عليه، ونأكل من طعامه القليل الذي يُؤْثِر به. يمكنك أن تدخل بيته من وصف صحابته له.. ويمكنك أن ترى سكينته نائماً، وأن ترى حيويَّته جالساً، وربما رأيتَ في حِجره رضيعاً، أو على ظهره طفلاً يحظى بدفئه وبركته.

إذن كيف كان يتعامل هذا الإنسان العظيم النبي الكريم مع طبيعته البشرية ومشروعه الرِّسالي؟!

كيف كان يتعامل مع دورة الزمن اليومية؟!

كيف كان يقضيها؟!

هذا يوم: النبي، الرسول، الإنسان، المسؤول، الأب، الزوج، الصَّدِيق.. هذا «اليوم النبوي»، وهذا الكتاب بين يديك..

عبد الوهاب بن ناصر الطريري

عبد الوهاب بن ناصر الطريري







تصميم الغلاف: 8 فن للاتصال. huit.fen@gmail.com